

أدب الرِّحل في المغرب والأندلس

الدكتور علي إبراهيم كردي

دراسات في الأدب العربي ٢٩

أدب الرِّحل

في المغرب والأندلس

تصميم الغلاف
خالد يزبـك

الدكتور علي إبراهيم كردي

أدب الرِّحل

في المغرب والأندلس

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة — دمشق ٢٠١٣م

أدب الرِّحل في المغرب والأندلس / علي إبراهيم كردي . - دمشق :
الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٣م . - ١٧٦ ص ؛ ٢٤ سم.

(دراسات في الأدب العربي؛ ٢٩)

١ - ٨١٩ ك ر د أ ٢ - ٩٢٩,١ ك ر د أ ٣ - العنوان
٤ - كردي ٥ - السلسلة

مكتبة الأسد

دراسات في الأدب العربي
«٢٩»

m

تشغل الرِّحلة مكانة مهمّة في الثقافة العربيّة، فاهتّم بها العرب منذ القديم، وأكثروا من التأليف فيها، فتنوّعت بتنوّع أسبابها ومقاصدها العلميّة والدِّينيّة والسياسيّة والاجتماعية والاقتصاديّة.

فبعضها اهتمَّ أصحابها بوصف الأقاليم والبلدان وما حوت من الغرائب، وأخرى يهفو صاحبها إلى الحجّ وزيارة الأماكن المقدّسة، وثالثة هدف صاحبها لقاء العلماء والأخذ عنهم، ورابعة للسِّفارة وربط أواصر الصَّداقة، وخامسة للسّياحة والتِّجارة وغير ذلك.

وتحفل صفحات هذه الرِّحل على اختلاف أنواعها بالجليل من الفوائد التي تصوّر جوانب مهمّة من حياة الشُّعوب، وطباعها وعاداتها، وتقدّم لنا وثائق حيّة لما كانت عليه الحضارة العربية في مختلف عصورها.

وقد نُشِر عدد كثير من الرِّحل في العصر الحديث، ولا يزال قسم منها مخطوطاً أو في عداد المفقود.

واهتمّ الباحثون بأدب الرِّحل، وأفاضوا في الحديث عن مكانة أدب الرِّحلة وما ينطوي عليه من ذخائر، فكشفوا بدراساتهم وبحوثهم عن هذا الجانب المهمّ من جوانب الثقافة العربية[١].

---

(١) من المؤلفات في أدب الرحلة: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى للدكتور زكي محمد حسن، الجغرافية والرحلات عند العرب لنقولا زيادة، الرحلات للدكتور شوقي ضيف، الرحلة والرحالة المسلمون للدكتور أحمد رمضان أحمد، أدب الرحلة عند العرب للدكتور حسني محمد حسين، أدب الرحلة للدكتور حسين نصار، أدب الرحلات للدكتور حسين محمد فهيم.

غير أنّ كثيراً من هذه الدراسات اتّسمت بالعموميّة والاختصار، والخطأ في المعلومات أحياناً، والمزج بين رحل المشارقة والمغاربة، فرغبت في أن أخصص دراستي هذه لأدب الرحلة في المغرب الإسلامي الذي يضمّ دول المغرب العربي والأندلس، وذلك لازدهار هذا الضرب من الأدب في تلك البلاد، ووفرة الرِّحل وتنوّعها وأهميتها في الكشف عن الحياة العلميّة والاجتماعية والاقتصادية في البلدان التي مرّ بها أصحاب تلك الرِّحل.

وقد كان الهدف الذي جعلته نصب عيني من هذه الدراسة أن أرسم صورة واضحة لنشأة هذا الضرب من الأدب، وتطوره واتجاهاته، واقتضى ذلك منّي أن أسير مع هذه الرِّحل وفق التسلسل الزَّمني لتدوينها.

وكان لابد من التمهيد لهذه الدراسة بالكلام على اهتمام العرب بالرحلة وبدايات التدوين فيها، واستعراض أهم الرِّحل المدوّنة في المغرب الإسلامي، وتحدّثت عن أهم دوافع الرِّحل وبواعثها، وطرائق تدوينها، ثم أردفت ذلك بالحديث عن عوامل ازدهارها.

وكان الفصل الأوّل من هذا البحث عن أعلام الرَّحَالين في المغرب الإسلامي، ذكرت فيه ثمانية من أصحاب الرِّحل المغاربة هم: أبو بكر بن العربي ت (٥٤٣هـ/١١٤٨م)، وأبو حامد الغرناطي ت (٥٦٥هـ/١١٦٩م)، وابن جبير ت (٦١٤هـ/١٢١٧م)، والتِّجاني ت بعد (٧١٧هـ/١٣١٧م)، وابن رُشيد ت (٧٢١هـ/١٣٢١م)، والتُّجيبي ت (٧٣٠هـ/١٣٢٩م)، وابن بطوطة ت (٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، والقلصادي ت (٨٩١هـ/١٤٨٦م)، فقمت بالتعريف بكل واحد منهم، ثم تكلّمت على رحلته، وأردفت ذلك بنصوص مختارة منها.

أما الفصل الثاني فخصصته للتعريف برحلة العبدري، وهي رحلة حجازية مهمّة لم تنل حظّها من الشهرة التي نالتها غيرها من الرِّحل كرحلة ابن جبير، ورحلة ابن بطوطة، فرأيت أن أبسط الحديث عنها، فترجمت لصاحبها، وناقشت تسميتها، وبيّنت سببها ومدّتها، وتكلّمت على منهج

العبدريّ ومصادره في تأليفها، وعرضت أسلوبه الفنّي في الكتابة من خلالها وبيّنت أهم خصائصه؛ ثم خصصت مبحثاً لعرض آراء العبدري النقدية المتنوّعة، ثم عرضت مضامين الرحلة الجغرافية والاجتماعية والأدبية.

وجعلت الفصل الثالث للكلام على الرِّحل المنظومة شعراً، وهو ضرب طريف لم يلق حظّه من البحث، فأوردت رحلتين: الأولى لابن الفكون القسنطيني وصف فيها رحلته من قسنطينة إلى مراكش، والثانية للعبدريّ نظم فيها رحلته من المغرب إلى الحجاز.

وإني في هذا البحث لم استقص كل الرِّحل في المغرب الإسلامي بل اخترت بعضاً منها ظنّاً مني أنها تفي بالغرض، وقديماً قالوا: يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق، وعسى أن تعطي هذه الدراسة صورة عن هذا الأدب، وأن تكون حافزاً للمهتمّين على إقامة مزيد من الدراسات الجادة التي تسهم في وضع أدب الرحلة في مكانه الصحيح في تاريخ العلوم عند العرب.

والله من وراء القصد

د. علي إبراهيم كردي
أستاذ الأدب المغربي بجامعة دمشق
دمشق ٢٠١٣/٢/١م

تمهيد

عُرف العرب منذ القديم بحب الرِّحل والأسفار، فتواترت الأخبار عن رحل فردية وجماعية طلباً للرِّزق والتِّجارة، والاطّلاع والمعرفة، فقام بعض الشُّعراء في الجاهلية بالرّحلة إلى الحيرة ودمشق وبلاد الروم، وذكروا ما جرى معهم في هذه الرِّحل. كما كان لقريش رحلتان؛ إحداهما في الشِّتاء والأخرى في الصيف، وجاء ذكرهما في القرآن الكريم.

وعندما صدع الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بدعوته، وانتشر الإسلام في الجزيرة العربية، ثم تولّى الخلفاء الرَّاشدون أمور المسلمين من بعده قاموا بتجييش الجيوش للفتوح الإسلامية في المشرق والمغرب، فانضوت تحت لواء الخلافة الإسلامية دول كثيرة ما أدى إلى اتّساع رقعة الدولة. وكان لزاماً على القائمين على الأمور أن يعرفوا مسالك هذه البلاد وطرقها. فقاموا بفتح الطرق بين المدن المختلفة، وأنشؤوا نظام البريد الذي أسهم في تشجيع الرحلة بين أجزاء هذه الدولة. كما عيّنوا موظفين لتسجيل الأراضي وتقدير خراجها وجبايته وتوزيع الحقوق على أصحابها وشجع هذا الاتّساعُ العربَ على السِّياحة والوقوف على ما في هذه البلاد من عجائب وغرائب.

وكان هؤلاء الرّحالون يقصّون مشاهداتهم على النَّاس عند عودتهم، ويدوّنون بعضها في ملاحظات وصلت إلينا عن طريق المؤرخين الذين أوردوها في مصنفاتهم. ولم تأخذ هذه الملاحظات شكل الرِّحلة إلا في عصور لاحقة.

أما بدايات الرَّحل فقد أخبرنا بها بعض المؤرخين، وتعود أولى هذه البدايات إلى العصر العباسي كرحلة سلام الترجمان سنة ٢٢٧هـ / ٨٤٢م،

ورحلة سليمان التاجر ٢٣٧هـ/٨٥١م، ورحلة ابن وهب القرشي سنة ٢٥٧هـ/٨٧١م، ورحلة ابن موسى المنجم سنة ٢٧٧هـ/٨٥٠م[١]. ورحلة اليعقوبي سنة ٢٩٦هـ/٩٠٨م.

بيد أن هؤلاء لم يدونوا رحلهم بل وصلت إلينا أخبارها عن طريق الرواة والمؤرخين الذين أشاروا إليها، وأوردوا مختارات منها في مصنّفاتهم.

أما الرِّحل المدوّنة – فأقدمها فيما نعلم – رحلة ابن فَضلان[٢] التي قام بها سنة ٣٠٩هـ/٩٢١م إلى بلاد البلغار بتكليف من الخليفة العباسي المقتدر بالله ليقوم بتفقيه النَّاس في تلك البلاد بتعاليم الدِّين الإسلامي. فكتب وصفاً لمشاهداته في تلك الرِّحلة، وكانت أوّل رحلة مكتوبة نقف عليها. ومنذ ذلك الحين بدأت الرِّحل تأخذ شكلها المستقلّ إلى أن أصبحت فناً له قواعده وأسسه.

ومن المؤكد أن قسماً كبيراً من الرِّحل المدّونة أتت عليه غوائل الدهر، ولم يسلم منها إلا النَّزْر اليسير، ولكن هذا القسم الذي وصل إلينا واطّلعنا عليه يدلّنا على كثرة الرِّحل المؤلفة، وتنوع اتجاهاتها وطرائقها واختلاف أهدافها[٣].

أما الأندلس فقد أولع أهلها بالرّحلة منذ القديم، ونقف في كتب التَّراجم والسِّيَرِ والتَّاريخ على أسماء أعداد كثيرة منهم. فهذا المَقّري يذكر في كتابه (نفح الطيب) ما يزيد على ثلاث مئة راحل في طلب العلم إلى المشرق فقط، ونراه مع ذلك يصرّح بقصوره عن استيعاب الرَّاحلين جميعهم[٤].

هذا في الأندلس، وكان في المغرب أكثر منه، ذلك أن «اهتمامَ المغاربةِ بالرّحلة يتجاوز اهتمام الأندلسين»[٥].

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافي العربي ١٤٢/١.

(٢) طبعت في مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٥٩م بتحقيق الدكتور سامي الدهان بعنوان (رسالة ابن فضلان).

(٣) انظر الرحالة المسلمون في العصور الوسطى لزكي محمد حسن.

(٤) نفح الطيب ٥/٢.

(٥) تاريخ الأدب الجغرافي العربي ٣٨٢/١.

وسنحاول أن نستعرض أهَمَّ الرِّحل المدّونة في المغرب والأندلس وانتهت إلينا.

فمن المعروف أن القاضي أبا بكر بن العربي المعافري ت(٥٤٣هـ/١١٤٩م) هو «أول من وضع الأساس لهذا الفن، وكان ذلك قبل نصف قرن من ابن جبير»[(١)].

وكانت لهذا العالم رحلة إلى المشرق دامت نحواً من ثمانية أعوام، التقى فيها بمجموعة من العلماء وأخذ عنهم أمثال أبي بكر الطرطوشي ت(٥٢٠هـ / ١١٢٦م)، وأبي حامد الغزالي ت (٥٠٥هـ / ١١١١م)، والخطيب التبريزي ت (٥٠٢هـ / ١١٠٨م). أما تقييد رحلته فلم يصل إلينا بتمامه، ولكنَّ ابنَ خلدون والمَقّري نقلا عنه فقرات كثيرة في كتبهما.

وفي القرن السَّادس الهجري نصادف اثنين من الرّحالين الأندلسيين قاما بتدوين مشاهداتهما في كتابين مستقلين:

الأول – هو أبو حامد الغرناطيّ ت(٥٦٥هـ/١١٧٠م) الذي رحل إلى المشرق وسمع من علمائه ودون رحلته هذه بعنوان «تحفة الألباب ونخبة الأعجاب»[(٢)].

والثاني – هو محمد بن أحمد بن جُبَير الكِناني ت(٦١٤هـ/١٢١٧م) الذي «رفع هذا الضرب من الصياغة الأدبية إلى درجة عالية»[(٣)]، في رحلته لتأدية فريضة الحج عن طريق البحر المسماة «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار»[(٤)] وكانت هذه الرحلة على غاية من الأهمية لأنها الرحلة المدوّنة

---

(١) المصدر نفسه ٢٩٨/١.

(٢) طبعت مع ترجمة إسبانية وتعليقات في مدريد سنة ١٩٥٣ بعناية آلان دوبلر.

(٣) تاريخ الأدب الجغرافي العربي ٢٩٨/١.

(٤) طبعت هذه الرحلة غير طبعة في القاهرة وبيروت.

الأولى التي وصف صاحبها طريق الحج وصفاً مفصّلاً، وصوّر بها عادات البلاد التي مرّ بها وتقاليدها.

أما إذا انتقلنا إلى القرن السابع الهجري فنقف على أولى الرّحل المغربية المدّونة التي وصلت إلينا وهي رحلة ابن رُشَيد ت(٧٢١هــ/١٣٢١م) المسماة «ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة»[(١)] وهي أكبر الرِّحل المغربية من حيث الحجم إذ تقع في سبعة أجزاء، صرف مؤلفها جلّ اهتمامه إلى الحالة العلمية التي كانت تتصف بها البلاد التي مر بها.

ثم كانت رحلة العبدري ورحلة ابن بطوطة ومستفاد الرحلة والاغتراب للتّجيبي، وتاج المفرق للبلوي وغيرها كثير.

١ - دوافع الرحلة وبواعثها:

إن كثرة الرِّحل المدوّنة وتنوعها في المغرب الإسلامي تبعث في نفوسنا التساؤل عن دوافع هذه الرِّحل وبواعثها، لأنه غالباً ما يكون دافع الرحلة سبباً في تصنيفها[(٢)].

وتحتل **الرحلة الحجازية** إلى الأماكن المقدّسة المرتبة الأولى بين الرِّحل، لأن هذه الأماكن تتمتع بمكانة عالية عند المسلمين في كل الأصقاع، فالحج من أهم البواعث للرِّحلة لما كان يتمتع به المجتمع المغربي المسلم من تمسّك بالقيم الرّوحية، فكان أقصى أماني المسلم أن تتاح له فرصة زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان يتحمل المشاقّ والأخطار في الطريق، إضافة إلى مشاعر الغربة والبعد عن الأهل والأصحاب، وكل ذلك عن رغبة وطيب خاطر.

---

(١) طبع منها جزآن في تونس بتحقيق سماحة الشيخ محمد الحبيب بن الخوجة، وثالث في بيروت للمحقّق نفسه.

(٢) انظر أنواع الرِّحل في مقدمة الإكسير في فكاك الأسير صفحة /٢/ بتحقيق الدكتور محمد الفاسي.

ولم يكن الإنسان المغربي – شأنه شأن المسلمين جميعهم – يقنع برحلة واحدة إلى الحج، ولكنه ما إن يعود إلى بلاده ويستقر بين أهله حتى يعاوده الشوق والحنين مرة أخرى أشد وأقوى، فيشدُّ الرِّحال من جديد إذا تمكن من ذلك.

وغالباً ما كانت الرحلة إلى الحج **تقترن بزيارة الأماكن المقدسة بالشام وفلسطين،** لما لهذه الأماكن من منزلةٍ أثيرة عند هؤلاء، ولِما تناقلته كتب الحديث من أحاديث نبوية شريفة في فضل الشَّام، ولِما تحظى به مدينتا القدس والخليل من مكانة أثيرة في نفوس المسلمين باعتبار القدس أولى القبلتين، ووجود مدافن كثير من الأنبياء في الخليل، فزيارتهما لا تقل أهميّة عن زيارة مكّة والمدينة.

وهناك الرحلة **في طلب العلم** وهذه الرحلة تتعلق بسبب أو بآخر بالناحية الدينية، لأن الإسلام حضَّ على طلب العلم، وفرضه على كل مسلم ومسلمة، لذا فقد اهتم طلبة العلم منذ القديم بالرحلة فقطعوا الصحارى والقفار بحثاً عن فائدة، أو سماعاً لحديث، أو رجاء لقاء عالم، حتى أصبحت الرحلة فيما بعد شرطاً لازماً للعالم عموماً، ولعالم الحديث خصوصاً.

فقد رُوي عن الصّحابي الجليل عبد الله بن مسعود أنه قال: «ما أُنزِلَتْ آية إلاّ وأنا أَعلم فيما أُنزِلَتْ، ولو أنّي أعلم أنّ أحداً أعلمُ بكتابِ الله مني تُبلّغهُ الإبلُ والمطايا لأَتيتُه»[1].

ورُوي عن الشَّعْبيّ ت(١٠٣هـ/٧٢١م) قوله: «لو أنَّ رجلاً سافر من أقصى الشَّام إلى أقصى اليمن فحفظَ كلمةً تنفعُهُ فيما يستقبلِهُ من عمره رأيتُ أنَّ سفرَه لا يضيع»[2].

وكثيراً ما كان **الغرضان يمتزجان معاً فتكون الرحلة جامعة الأمرين معاً: الحج وطلب العلم** كما نرى عند ابن رُشَيد والعَبْدريّ والتُّجِيبيّ[3]

---

(١) الرحلة في طلب الحديث ٩٥.

(٢) الرحلة في طلب الحديث ٩٦.

(٣) طبع جزء من رحلته بتحقيق عبد الحفيظ منصور – بعنوان «مستفاد الرحلة والاغتراب».

والبَلَويّ[1] وغيرهم، فلا عجب إذاً إذا ألفينا معظم الرِّحل تتجه من المغرب إلى المشرق، وإنها في المغرب والأندلس أكثر منها في المشرق، ويتضح ذلك من خلال مراجعة ما وقفنا عليه من رحل، ولعل السَّبب في ذلك يعود إلى عدة عوامل:

أولها : وجود الديار المقدسة في المشرق.

وثانيهما: كثرة العلماء الذين كانوا مقصداً لطلاّب العلم من كل البقاع، إضافة إلى كون مركز الخلافة في الشرق.

وثالثها : لما كانت تحتوي عليه المدن المشرقية من مكتبات ومدارس تضم الكتب القيّمة والمؤلفات العلمية النفيسة.

وهناك **الرِّحل السياحية** التي كان الهدف منها الاطلاع على غرائب البلاد والسِّياحة في الأرض **كرحلة ابن بطوطة**. وهناك **الرحل السّفارية** التي كان يُرسل أصحابها للقيام بسفارات ذات هدف سياسي كرحلة «الإكسير في فكاك الأسير»[2]. إذْ دوّن صاحبها مشاهداته في سفارته لتخليص جماعة من الأسرى المسلمين في إسبانيا، إضافة إلى أنواع أخرى من الرِّحل[3].

٢ - طرائق تدوين الرِّحل:

اتبع الرّحالون طرائق عدّة في التَّدوين يمكن أن نصنِّفها وفق الآتي:

أ- **رحل كتبها أصحابها في أثناء الرِّحلة،** ويخضع تدوينها إلى التسلسل الذي سار عليه الرّحالة، فيدون فيها الأحداث والمفاجآت التي تحصل وفق زمن حدوثها ومكانه، وقد سلك العبدري هذه الطريقة في التَّدوين، ودليلنا على ذلك قوله حين

(١) طبعت رحلة بتحقيق الحسن السائع بعنوان «تاج المفرق في تحلية علماء المشرق».

(٢) طبعت في الرباط بتحقيق الدكتور محمد الفاسي.

(٣) انظرها مفصلة في مقدمة الأكسير صفحة ج.

التقى ابنَ دقيق العيد في القاهرة وحصل منه على الإجازة: «ووقف على ما تقيّد من هذه الرحلة واستحسنه، وأفادني فيها أشياء، وقيد منها وفاة الشَّقراطسيّ صاحب القصيدة الشقراطسيّة حسبما تقيدت في موضعها»(١).

ب - **رحل كتبت من المذكّرات التي دونها أصحابها** في أثناء الرحلة، وهي عبارة عن عناوين القضايا والفوائد التي أفاد منها، والأسانيد التي حصل عليها، فقد كان بعض الرّحالين يلجؤون إلى تقييد الأمور المهمة التي مرت معهم حتى لا ينسوها، وعندما كانوا يعودون إلى بلادهم ويستقرّون، كان واحدهم يُخرج هذه الملاحظات ويرتبها ويخرجها بعد مرور مدّة تطول أو تقصر، ونظن أن التُّجِيبي في «مستفاد الرّحلة والاغتراب» لجأ إلى هذا النوع من التّدوين لأنه ذكر في رحلته أحداثاً تتعلق بسنة (٧٠٤هـ/١٣٠٤م) مع أن الرحلة كانت سنة (٦٩٦هـ/١٢٩٧م) ونعتقد أن ابنَ رُشَيد أيضاً لجأ إلى الطريقة نفسها في التَّدوين إذ سجل في أثناء رحلته بعض الأشعار والمذكرات والأسانيد، ثم نظم ما جمعه بعد عودته من رحلته وبَوبّه وأخرجه منسّقاً، ويؤكد ابنُ رُشَيد بين الفينة والأخرى أن ما يرويه قد كتبه زمن الرحلة.

ج - **رحل دُوّنت من الذاكرة**: وهذا الضرب من التدوين يتم بعد عودة الرحالة من رحلته إذ يقوم بإملاء رحلته من الذاكرة من دون أن يعتمد أصولاً أو ملاحظات مدوّنة عن رحلته، ومن هذا النوع «رحلة ابن بطوطة» التي قام بتدوينها الكاتب ابن جُزيّ بتكليف من أبي عِنان المريني ت(٧٥٩هـ/١٣٥٨م) الذي أعجب بأخبارها وعجائبها.

---

(١) رحلة العبدري (٣٠١).

٣ - عوامل ازدهار الرِّحل:

يمكن أن نُرجع هذا الازدهار إلى العوامل الآتية:

أ - تأمين الطرق:

عمل ملوك الدُّول الإسلامية على تأمين طرق القوافل المتجهة إلى الحج وذلك بالقضاء على قطاع الطرق والمفسدين الذين كانوا يتربصون للحجاج ويعترضون طريقهم، ويعيثون في الأرض فساداً، فأخذوا على أيديهم، ومنعوهم من القيام بمثل هذه الأعمال التي كانت في كثير من الأحيان تجعل الحُجّاج يتردّدون في أداء فريضتهم، أو يحجمون عن القيام بها. كما قاموا بإنشاء مراكز ومحطّات يستريح بها الرّحالون والمسافرون على طول الطريق، إضافة إلى المحارس والمنازل والمخيّمات لحماية هؤلاء الحجاج وتموينهم بما يلزم من الأغذية والعلاج، وإرشادهم إلى أقرب الطرق وأسلمها.

ب - تنظيم ركب الحاج المغربي:

كما قام هؤلاء الملوك بالإشراف على تنظيم الرَّكب وتقديم يد العون للحجاج، وتأمين احتياجاتهم، وكانوا يتكفّلون بحماية الرّكب إلى أن يغادر حدود دولتهم، فتتكفّل الدولة الأخرى بحمايته لحين خروجه من حدودها إلى أن يصل إلى بغيته بسلام.

وكان هناك غيرُ ركب يُنَظَّمُ في كل موسم، وكانت تسمية الرَّكب ترتبط بالمدينة أو بالمنطقة التي ينتمي إليها، فكان هناك الرَّكب الفاسي والسّجِلْماسيّ والمرّاكُشيّ والشّنقيطيّ والبَحريّ.. وغير ذلك من التَّسميات(١)، وكثيراً ما كان ملوك المغرب وغيرهم يحمّلون الرَّكب الهدايا والكسوةَ للحرمين الشريفين، ولملوك مصر، كما يكون مناسبة لإرسال المصاحف والأموال لوقفها على المساجد في الأماكن المقدسة في المشرق كمكة والمدينة والقدس والخليل.

---

(١) ركب الحاج المغربي ٩.

ج - انتشار الزوايا في الطرق:

وكان للزوايا أثرٌ إيجابي في ازدهار الرحلة، إذ كانت تقدّم للمسافرين والحُجّاج الطَّعام واللباس، وقد انتشرت الزوايا في ذلك الوقت في معظم بقاع العالم الإسلامي ما هيأ للرّحالة كثيراً من متطلباته وهو في الطّريق شرقاً وغرباً، فكانت الزَّوايا دورَ ضيافة بالمجّان للجميع، يكرم فيها الزَّائر قبل أن تُعرف هويته.

د - كما كان **لإسقاط المكوس عن الحجّاج** في بعض الأحيان أثرٌ كبير في تنشيط الرِّحلة، لأنَّ تأدية هذه المكوس كان أحد العوائق التي كانت تحول دون القيام بفريضة الحج، وقد أشار غير رحَّالة[(١)] إلى المضايقات التي كان يعانيها الحاج من رجال المكوس المصريين، وهذا ما دفع ابنَ جبير إلى مدح صلاح الدين الأيوبي عندما رفع المكوس والمغارم عن الحجاج بقوله[(٢)]:

رفعتَ مغارمَ أرضِ الحجاز	**بإنعامك الشّامل الغامرِ**
وأمّنت أكناف تلك البلاد	**فهان السبيلُ على العابرِ**

وهكذا فإن الرِّحل كانت تُؤتي أُكُلَها، وتعود بالفائدة على الرَّحالة والبلدان، فكان الرّحالة يفيد علماً كثيراً، وثقافة متنوعة تدين للقائه الأكابر من العلماء الذين تنوعت مشاربهم، واختلفت ثمارُ جنيهم، فكان يأخذ عن هؤلاء ما يُنَمّي ثقافته، ويُنَوِّع معارفه، وكم من عالم لم يبلغ المرتبة العليا إلا بالرِّحلة! وقد نبّه ابن خلدون على هذا في قوله: «إنّ الرّحلة في طلب العلم ولقاء الأساتذة مزيد كمال في التَّعلُّم... فالرحلة لابد منها في العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال»[(٣)].

---

(١) من هؤلاء: ابن جبير في رحلة ١٣، والعبدري ١٢٦ -١٢٧ والبلوي في تاج المفرق ١٩٧/١.

(٢) القصيدة في رحلة العبدري ٢١٨ -٢٢١.

(٣) مقدمة ابن خلدون ٧٤٥.

كما يتمكن الرَّاحل من بعض الأخلاق السَّامية **كالصَّبر** على ما يلاقيه من متاعب بدنية وآلام نفسية كفراق الأحبة، ومثل **آداب المداراة** لأن البعيد عن وطنه أشد شعوراً بالحاجة إلى هذا الأدب(١).

كذلك كان لانتقال هؤلاء العلماء أثر واضح **في نقل معارف قومهم وبلدانهم إلى أماكن** جديدة ما يفيد بنقل الثقافة من مكان لآخر(٢).

أما البلاد التي يرحل أبناؤها عنها إلى الحواضر فإنّها تعود إليها الحياة ثانية بعد عودة هؤلاء مُحمَّلين بأنواع متعدّدة من العلوم، إذ يقومون بنشرها في بلادهم، فالأندلس بلغت فيها الحالة العلمية منزلة أرفع بعد عودة أبي الوليد الباجي ت(٤٧٤هـ/١٠٨٢م) من رحلته المشرقية، وكذلك تونس بعد عودة أبي القاسم بن زيتون ت(٦٩٠هـ/١٢٩٠م) إليها.

* * *

---

(١) الرحلات لمحمد الخضر حسين ١٢.

(٢) الرحلات لمحمد الخضر حسين ١٥.

الفصل الأول

أعلام الرّحالين في المغرب والأندلس

١- أبو بكر بن العربي

ترجمته: هو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن العربيّ المُعافريّ(١).

ولد بإشبيلية في ٢٢ شعبان ٤٦٨هـ / إبريل ١٠٧٦م، ونشأ فيها، وأخذ عن أبيه الذي كان من علماء إشبيلية المعروفين، ودرس على الجلّة من مشايخها(٢).

صحبه أبوه إلى المشرق في رحلة للحج وطلب العلم، وبعد عودته إلى بلده انصرف إلى التدريس والتأليف حتّى سنة ٥٢٨هـ/١١٣٤م، عندما دعاه تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين والي إشبيلية إلى تولي القضاء، فحسنت سيرته وعدله، فأثار حفيظة بعض صغار الفقهاء فسعوا به عند الأمير فصرف عن القضاء، فانتقل إلى قرطبة وتفرّغ للتدريس والتأليف، ثم عاد إلى أشبيلية سنة ٥٣٧هـ/١١٤٢م. وبعد سقوط دولة المرابطين واستتباب الأمر للموحّدين. رحل ابن العربي مع وفد إلى مراكش لتهنئة عبد المؤمن بن علي أمير الموحدين. فسأل عبدُ المؤمن ابنَ العربي فيما إذا كان لقي محمد بن تومرت في مجلس الغزالي، فأحرج الشيخ، واحتال في الإجابة التي لم تَرُق لعبد المؤمن، فصرف الوفد، وتوفي ابن العربي في عودته إلى الأندلس بالقرب من فاس ودفن فيها في ٧ ربيع أول ٥٤٣هـ/ يوليو ١١٤٨م.

---

(١) ينظر في ترجمته: الصلة ٥٥٨/٢، مطمح الأنفس ٢٩٧، وفيات الأعيان ٢٩٦/٤، المغرب ٢٥٤/١، الديباج المذهب ٢٨١، المرقبة العليا ١٠٥، تذكرة الحفاظ ١٢٩٤/٣، أزهار الرياض ٦٢/٣، نفح الطيب ٢٥/٢....

(٢) النفح ٢٨/٢.

رحلته: كانت رحلة أبي بكر بن العربي وأبيه من إشبيلية عن طريق البحر، فرست السَّفينة في مدينة (بجاية)، حيث اختلف ابن العربي إلى مجالس بعض علمائها كأبي عبد الله الكلاعي وأخذ عنهم. ثم انتقل إلى مدينة (المهديّة) أواخر سنة ٤٨٥هــ / ١٠٩٢م، ولقي فيها إمام المالكية في وقته محمد بن علي المازريّ، وأبا الحسن بن الحدّاد الخولاني، وسمع عليهم الفقه والحديث.

ثم رحل أبو بكر وأبوه من (المهديّة) إلى (الإسكندرية)، وكان الجوّ عاصفاً ما أدّى إلى تحطّم السَّفينة، وغرق كثير من ركّابها، وأشرف ابن العربي وأبوه على الغرق، ولكنهما تمكّنا من النَّجاة فوجدا نفسيهما على ساحل (طرابلس)، فاستضافهما بعض وجهاء بني سُليم، وأكرمهما، وعندما تحسّنت الأحوال أكملا طريقهما إلى الإسكندرية فأقاما فيه مدّة وجيزة، ثم توجّها إلى القاهرة. وكان ذلك قبل نهاية سنة ٤٨٥هــ/١٠٩٢م، وكانت الدعوة الفاطميّة على أشدّها، ما اضطر علماء السُنّة إلى إقامة مجالس دروسهم سرّاً، فكان ابن العربي يذهب إلى القرافة الصُّغرى قريباً من قبر الإمام الشَّافعي ليحضر بعض الدروس خفيةً.

ثم انتقل ابن العربي إلى بيت المقدس فأقام فيها ثلاث سنوات، والتقى بأبي بكر الطرطوشي، ولازمه مدّة، وأفاد من دروسه وتشبّع بآرائه، وكان له أثر في تكوينه العلمي. ثم رحل إلى دمشق وسمع من بعض شيوخها، فبغداد حوالي سنة ٤٩٠هــ/١٠٩٧م، وطالت إقامته فيها، فسمع من شيوخها بمذاهبهم المختلفة، فاكتمل تكوينه الذهني والفقهي. ثم غادر ابن العربي بغداد إلى دمشق فبيت المقدس، وانتقل منها إلى الإسكندرية، ومنها عاد إلى الأندلس.

ذكرت المصادر أن اسم رحلة ابن العربي «ترتيب الرِّحلة للتَّرغيب في الملّة»، ولم يصل إلينا الكتاب بل وقفنا على نقول منه في المصادر المختلفة.

ويبدو أن ابن العربي ألف كتابه للدفاع عن نفسه ضد خصومه الكثيرين، وإظهار تفوّقه على غيره ممّن درس في المشرق، وبيان ما حصّله من العلوم المختلفة في رحلته.

قال كراتشكوفسكي عن ابن العربي: «هو أوّل من وضع الأساس لأدب الرحلة[١]».

مختارات من رحلته

ركوبه البحر في رحلته من إفريقية:

«.. وقد سبق في علم الله تعالى أن يعظم علينا البحر بِزَوْله، ويغرقنا في هَوْله، فخرجنا من البحر، خروج الميت من القبر، وانتهينا بعد خطب طويل إلى بيوت بني كعب بن سُلَيم، ونحن من السَّغَب[٢] على عَطَب[٣]، ومن العُرْي في أقبح زيّ، قد قذف البحر زقاق[٤] زيت مزّقت الحجارةُ مَنيئتها[٥]، ودسّمت الأدهان وَبَرها وجلدتَها، فاحتزمناها أُزُراً، واشتملناها لُفُعاً[٦]، تمجُّنا[٧] الأبصار، وتخذلنا الأنصارُ، فعطف أميرهم علينا فأوينا إليه فآوانا، وأطعمنا الله تعالى على يديه وسقانا، وأكرم مثوانا، وكسانا بأمرٍ حقير ضعيف، وفَنّ من العلم طريف...».

(نفح الطيب ٣١/٢، أزهار الرياض ٨٩/٣)

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافي العربي ٢٩٨/١.

(٢) السَّغب: الجوع.

(٣) العَطب: الهلاك.

(٤) زقاق: واحدها زقّ، وهو كل وعاء اتخذ لشراب أو غيره.

(٥) المنيئة: الجلد أوّل ما يُدبغ.

(٦) اللّفاع: ما يلتحف به من ثوب وغيره.

(٧) تمجّنا الأبصار: تنفر منا.

وصف القنوات بدمشق:

وذكر، رحمه الله تعالى، في رحلته عجائب منها: «أنّه حكى دخوله بدمشق بيوت بعض الأكابر أنّه رأى فيه النهر جائياً إلى موضع جلوسهم، ثمّ يعود من ناحية أخرى، فلم أفهم معنى ذلك حتّى جاءت موائد الطَّعام في النّهر المقبل إلينا، فأخذها الخَدَم ووضعوها بين يدينا، فلمّا فرغنا ألقى الخَدم الأواني وما معها في النَّهر الرَّاجع، فذهب بها الماء إلى ناحية الحريم من غير أن يقرب الخَدمُ تلك الناحية، فعلمت السِّر..».

(نفح الطيب ٣٣/٢)

وصف المائدة بطور زيتا:

«.. شاهدتُ المائدة بطور زيتا مراراً، وأكلتُ عليها ليلاً ونهاراً، وذكرتُ الله سبحانه وتعالى فيها سرّاً وجهاراً، وكان ارتفاعها أشَفَّ[١] من القامة بنحو الشِّبر، وكان لها درجان قبليّاً وجنوبيّاً، وكانت صخرةً صَلوداً[٢] لا تؤثّر فيها المعاول، وكان الناس يقولون: مُسخت صخرةً إذ مُسِخ أربابُها قردة وخنازير، والذي عندي أنّها كانت صخرةً في الأصل قطعت من الأرض محلاً للمائدة النَّازلة من السَّماء، وكلّ ما حولها حجارة مثلها، وكان ما حولها محفوفاً بقصور، وقد نُحتت في ذلك الحجر الصَّلد بيوتٌ أبوابها منها ومجالسها منها، مقطوعة فيها، وحناياها في جوانبها، وبيوت خدمتها قد صُوِّرت من الحجر كما تُصوَّر من الطِّين والخشب، فإذا دخلت في قصر من قصورها ورددت الباب وجعلت من ورائه صخرة مقدار ثُمْنِ درهم لم يفتحه أهل الأرض للصوقه بالأرض، وإذا هبت الريح وحثَت تحته التّراب لم يُفتح إلا بعد صَبّ الماء تحته والإكثار منه حتى يسيل بالتراب، وينفرج مُنْفَرَج الباب...».

(نفح الطيب ٣٧/٢)

---

(١) أشفّ: أزيد.

(٢) صلوداً: صلبة.

بعض فوائد ابن العربي:

منها قوله في تصريف المُحْصَنات: يُقالُ: «أحصنَ الرَّجُلُ فهو مُحْصَنٌ - بفتح العين في اسم الفاعل -. وأسهبَ في الكلام فهو مُسْهَب، إذا أطال البحث فيه، وألْفَجَ فهو مُلْفَج، إذا كان عديماً، لا رابع لها...».

ومنها قوله: «سمعت الشّيخ فخر الإسلام أبا بكر الشَّاشي، وهو ينتصر لمذهب أبي حنيفة، في مجلس النَّظَر يقول: يُقال في اللغة العربية لا تَقْرَبْ كذا – بفتح الرَّاء – أي لا تتلبَّس بالفعل، وإذا كان بضمّ الراء كان معناه لا تَدْنُ من الموضع»، وهذا الذي قال صحيح مسموع».

(نفح الطيب ٣٦/٢ -٣٧)

* * *

٢- أبو حامد الغرناطي

ترجمته: محمد بن عبد الرحيم بن سلمان بن ربيع القيسيّ الغرناطيّ[(١)].

ولد سنة ٤٧٣هـ/١٠٨٠م في غرناطة، ونشأ فيها، وتلقّى علومه الأولى على مشايخها. ولا نكاد نقف على معلومات ذات شأن عن نشأته وشبابه، ولم تسعفنا المصادر بما يفيد في جلاء ذلك، وأوّل إشارة نقف عليها هي مغادرته الأندلس حوالي سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م - وكان في السابعة والعشرين من عمره – ووصوله إلى المغرب الأقصى، وتنقّله بين حواضرها، ثم وصوله إلى إفريقية (تونس) وزيارته بعض معالمها، ثم ركب البحر من تونس سنة ٥١١هـ / ١١١٧م إلى سردانية، ووصف لنا بركاناً ثار فيها، ثم انتقل إلى الإسكندرية ولقي بعض العلماء فيها، ووصف لنا منار الإسكندرية، ثم تحوّل إلى القاهرة سنة ٥١٢هـ/١١١٨م، فوصف جامع عمرو بن العاص، وأهرامات مصر، وكثيراً من آثارها وعجائبها، وتحدّث عن مقياس النيل وفيضانه وهروب الزواحف والهوام ودخولها على الناس في القرى.

وبقي أبو حامد في مصر حتى سنة ٥١٥هـ/١١٢١م، ثم توجّه إلى دمشق، ودرّس الحديث فيها، وحدّثنا عن بعلبَكّ وتدمر، ثم وصل إلى بغداد سنة ٥١٦هـ/١١٢٣م، وأقام فيها أربع سنوات تقريباً.

---

(١) ترجمته في الوافي بالوفيات ٢٤٥/٣، آداب اللغة العربية ٨٦/٣، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ٣٠٣ وهو معوّلنا في الكثير مما سنورده عن أبي حامد، الأعلام ١٩٩/٦.

وفي سنة ٥٢٤هـ/١١٣٠م نجد أبا حامد في إيران، ويتّجه شرقاً ليصل إلى (باب الأبواب) وهو أقصى ما وصل إليه الفتح الإسلامي شرقاً على يد مسلمة بن عبد الملك أيّام الأمويين. ويتكلّم على بعض المظاهر الاجتماعية والاقتصادية لأهل تلك البلاد. وزار كثيراً من الأقاليم مثل خوارزم عن طريق بلاد البلغار وجنوب روسيا، واستقرّ بها مدّة طويلة اتخذ بها أمّهات أولاد وأنجب بنين وبنات.

ونجده سنة ٥٣٠هـ/١١٣٥م في بلاد البلغار، ثمّ يكون في سنة ٥٤٥هـ/١١٥٠م في المجر فيصف مدنها ورخاءها، وبعدها رحل أبو حامد إلى خوارزم، وخرج منها سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م متوجهاً إلى الحج ماراً ببخارى ونيسابور، والريّ، وأصفهان، والبصرة، فأدّى الفريضة وتوجّه إلى بغداد، فالموصل سنة ٥٥٦هـ/١١٦١م، ثم توجّه إلى حلب فأقام فيها سنة ٥٦٠هـ/١١٦٥م، ثم انتقل إلى دمشق حيث أدركته المنية سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م عن اثنتين وتسعين سنة.

رحلة أبي حامد الغرناطي:

دوّن أبو حامد الغرناطي مشاهداته في كتابين اثنين الأول «تحفه الألباب ونخبة الأعجاب»، والثاني «المعرب عن بعض عجائب المغرب».

١ - المعرب عن بعض عجائب المغرب:

ألّفه بعد وصوله إلى بغداد سنة ٥٥٦هـ / ١١٦١م وأهداه إلى الوزير عون بن هبيرة، وخصّصه للحديث عن العجائب المنتشرة في مدن المغرب الإسلاميّ، فذكر كهفاً بجوار مدينة (لوشة) فيه سبعة أشخاص نيام منذ زمن قديم، يشبهون أهل الكهف. وتكلّم على كنيسة قرب جبل الثَّلج المطل على مدينة غرناطة بجوارها شجرة زيتون عجيبة تزهر وتثمر الزيتون وتنضجه في يوم واحد من أيام الربيع.

ويصف مدينة النحاس وعجائبها، وقنطرة طليطلة، وتفّاح شنترة، والبحر الأسود المعروف ببحر الظُّلمات[١]، ومجمع البحرين[٢] ويتحدّث عن عجائب مخلوقاته.

ثمّ يترك الأندلس ويتحدّث عن عجائب الجبال، ويذكر عجائب جبل اللُّكام، وعجائب جبل السَّراة في بلاد العرب، وجبل الرَّاهون بسرنديب الذي نزل عليه آدم عليه السَّلام.

ويخصّص باباً من الكتاب للحديث عن أوقات الصَّلاة، ومعرفة الفيء والزَّوال[٣]، ثم يتبع ذلك بفصل عن ذكر ساعات اللَّيل والنَّهار في الزِّيادة والنُّقصان بحسب شهور السَّنة.

ثم يعود أبو حامد إلى العجائب فيصف بركاناً في جزيرة صقلية، وينتقل إلى ذكر الإسكندرية وبعض عجائبها، فيصف منار الإسكندرية بإسهاب قبل تهدّمه، ثم يذكر عجائب مصر كالأهرامات والبرابي[٤].

ويستطرد إلى ذكر فصول فلكية فيتكلّم على المجرّة وطريقة الاستدلال بها على القِبلة، ويتحدّث عن صفات الأرض وطولها وعرضها، ويختم كلامه الجغرافي بالحديث عن الأقاليم السبعة، ويصف الجبال ويحدّد المسافات والمراحل بينها والطرق والمسالك فيها.

٢ - كتاب تحفة الألباب ونخبة الأعجاب:

كتبه أبو حامد الغرناطي بعد الفراغ من كتابه السابق (المعرب) وذلك عام ٥٥٧هـ / ١١٦٢م، بعد خروجه من بغداد واستقراره في الموصل.

رتّب أبو حامد كتابه في مقدّمة وأربعة أبواب، فالمقدمة للبيان والتمهيد، والأبواب لتتمّة المقصود. وجعل الباب الأول: في صفة الدنيا وسكّانها من إنسها وجانها.

---

(١) بحر الظلمات: هو المحيط الأطلسي.
(٢) مجمع البحرين: مضيق جبل طارق.
(٣) الفيء: الظلّ. الزّوال: تعامد الشّمس.
(٤) البرابي: المعابد.

والباب الثاني: في صفة عجائب البلدان وغرائب البنيان.

والباب الثالث: في صفة البحار وعجائب حيواناتها، وما يخرج منها من العنبر والقار، وما في جزائرها من أنواع النفط والقار.

والباب الرابع: في صفة الحفائر والقبور، وما تضمّنت من القفار إلى يوم النُّشور.

والتزم المؤلف بالمنهج الذي وضعه لتأليف كتابه التزاماً دقيقاً على عكس كتابه الأول الذي اتصف بالاستطراد وتداخل الموضوعات.

ولكن كتاب (تحفة الألباب) خليط عجيب من المفيد وغير المفيد، ومن الواقعي والأسطوري مما يدخل في نطاق العلم، وما يدخل في نطاق علم العوام والقصص الشعبي، وهو بالعموم تصوير لعجائب الكون بأسلوب مُسَلٍّ.

لقد زار أبو حامد الغرناطي كثيراً من البلاد في الشرق والغرب، وكان بإمكانه أن يؤلّف كتاباً في وصف رحلته وصفاً مفيداً ممتعاً، غير أنه أولى اهتمامه إلى العجائب والغرائب، فجاء كتاباه أقرب إلى القصص الشعبي منه إلى أدب الرِّحل، وضمّا مادّة عجائبية تشد الأسماع وتثير الإعجاب.

مختارات من رحلته

وصف (سجسين):

«ودخلت البحر إلى بلاد الخَزَر، فوصلت إلى نهر عظيم أكبر من الدِّجلة مرّات أضعافاً مضاعفة، كأنّه بحر تخرج منه أنهار عظيمة[1]، وعليه مدينة يقال لها (سجسين)، فيها من الغُزِّ أربعون قبيلة، لكل قبيلة أمير على حدة، ولهم دُور كبيرة، وفي كل دار خركاه[2] عظيمة كالقبّة الكبيرة، تسع

(١) يريد نهر إتل وهو نهر الفولجا.

(٢) الخركاه: خيمة كبيرة مستديرة، أو خيمة ملكيّة على هيئة قبّة.

الواحدة مئة رجل وأكثر، مُغَشَّاة باللُّبود. وفي المدينة من أمم التُجَّار والغرباء وأولاد العرب من المغرب آلاف لا يُحصى عددهم، وفيها جوامع يُصلّى فيها الجمعة في الخزر، وهم أمم أيضاً، وفي وسط البلدة أمير من أهل بلغار، لهم جامع كبير يُصلّى فيه الجمعة، وحوله أمم من البلغاريين، وجامع أيضاً آخر فيه أمّة يقال لها أهل صُوَار[1]، وهم أيضاً كثيرون. ويوم العيد يخرجون بمنابر كثيرة، يصلّي كل أمير بأمم كثيرة، ولكلّ أمّة قضاة وفقهاء وخطباء، والجميع على مذهب أبي حنيفة، إلاّ أولاد المغاربة، فإنّهم على مذهب مالك، والغرباء على مذهب الشّافعي، وداري الآن فيهم، وأمّهات الأولاد وأولادي وبناتي..»

(تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس عن المعرب ٣١٤ -٣١٥)

وصف رجل من نسل عاد في مدينة بلغار:

«ولقيت من نَسل العاديّين رجلاً طويلاً، كان طوله أكثر من سبعة أذرع كان يسمّى (دنقي)، كان يأخذ الفرس تحت إبطه كما يأخذ الإنسان الحَمَل الصَّغير، وكان من قوّته يكسر ساق الفرس بيده، ويقطع جسده وأعضاءه كما يقطع باقة البقل. وكان صاحب بلغار قد اتّخذ له درعاً يُحمل على عجلة، وبيضته لرأسه كأنّها مِرْجل[2]، وكان إذا وقع القتال يقاتل بخشبة من شجر البلّوط يمسكها كالعصا في يده، لو ضرب بها الفيل لقتله، وكان خيّراً متواضعاً، كان إذا التقاني يسلّم عليَّ ويرحّبُ بي ويكرمني، وكان رأسي لا يصل إلى حَقْوه[3] رحمه الله. ولم يكن ببلغار حمّام يمكن أن يدخل فيها إلاّ حمّام واحدة واسعة الأبواب، وكان من أعجب بني آدم. لم أشاهد قَطّ مثله، وكان له أخت على طوله، ورأيتها مراراً عدّة في بلغار. وقال لي في بلغار القاضي يعقوب بن النعمان إنّ هذه المرأة الطويلة العاديّة

---

(١) صوار: قبيل مجهول الأصل من الناس كان يسكن الضفة الشرقية لدلتا الفولجا.

(٢) المرجل: القِدْرُ.

(٣) الحَقْو: الخصر.

قتلت زوجها، وكان اسمه (آدم)، وكان من أقوى أهل بلغار، ضمّته إلى صدرها فكسرت أضلاعه، فمات في ساعته».

(تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس نقلاً عن تحفة الألباب ٣١٦ -٣١٧)

وصف سعة العيش في بلاد المجر:

«... وتلك الولاية[١] من رومية العظمى، وفيها جبال يخرج منها الذّهب والفضّة، وتلك البلاد من أكثر البلاد رخاء ونعمة، يكون الغنم عشرين بدينار، والحملان والجداء ثلاثين بدينار، والعسل خمس مئة رطل بدينار، والجارية الحسناء بعشرة دنانير. وفي وقت الغزو تشتري الجارية الجيدة بثلاثة دنانير واشتريت جارية مولّدة، أبوها وأمها وإخوتها بالحياة، اشتريتها من سيّدها بعشرة دنانير، بنت خمس عشرة سنة أحسن من القمر، سوداء الشعر والعين، بيضاء كالكافور، تعرف الطَّبخ والخياطة والرَّقم[٢]...»

(تاريخ الجغرافية والجغرافيين بالأندلس نقلاً عن المعرب ٣٢٠ -٣٢١)

فصول قصار عن خصائص بعض المدن:

الهند: «بحرها دُرٌّ، وجبلها ياقوت، وشجرها عود، وورقها عطر»

كرمان: «ماؤها وَشَل[٣]، وثمرها دَقَل[٤]، وعَوْدُها بَهَل[٥]»

الشام: «والشّام عروس بين نساء جلوس»

مصر: «ومصر هواؤها راكد، وحرّها متزايد، تطوّل الأعمار وتُسوِّد الأبشار».

(تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ٣٥٢ نقلاً عن المعرب ٢٠٧)

* * *

(١) أي بلاد المجر.

(٢) الرَّقم: النقش والوشي.

(٣) الوشل: الماء القليل يتحلّب من جبل أو صخرة يقطر منه قليلاً قليلاً.

(٤) الدَّقل: أردأ أنواع التمر.

(٥) بهل: العَوْدُ: الجمل المسنّ. وبهل: أي سارح من دون راع، مهمل.

٣- ابن جُبير

ترجمته: هو أبو الحسين محمد بن أحمد بن جُبير بن سعيد بن جُبير بن سعيد بن جُبير بن محمد بن مروان بن عبد السلام ابن مروان بن عبد السلام ابن جُبير الكناني[(١)] الداخل إلى الأندلس مع بَلج القشيري سنة ١١٣هـ/٧٣١م.

ولد ابن جبير في بلنسية سنة ٥٤٠هـ / ١١٤٥م، وقرأ على أبيه ومشايخ بلده، وتقدّم في صناعة الشعر والنثر، وكان من علماء الأندلس في الفقه والحديث. قال عنه ابن الخطيب «كان أديباً بارعاً، شاعراً مجيداً، سريّ النفس، كريم الأخلاق»[(٢)].

كتب ابن جبير عن السيد أبي سعيد بن عبد المؤمن الموحّدي والي غرناطة. وتذكر بعض المصادر أنّه استدعاه ليكتب عنه كتاباً وهو على شرابه، فمدّ إليه بكأس، فأظهر الانقباض لأنَّه لم يشرب الخمرة قط، فأقسم السَّيّد ليشربنّ منها سبعاً، ففعل ذلك مرغماً، فملأ له الأمير الكأس دنانير سبع مرّات، فحمل المال إلى بيته وقرّر أن يكفّر عن شربه بالسَّفر إلى الحج بتلك الأموال.

ولكننا لا يمكننا الاطمئنان إلى صحّة الخبر لأن ابن جبير شرع في رحلته سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م، وكان الأمير أبو سعيد قد توفّي سنة ٥٧١هـ/١١٧٩م، فمن المحال إذاً أن يكون الحج قد جرى في السنة

---

(١) الذيل والتكملة ٥٩٥/٥، مستفاد الرحلة والاغتراب للتجيبي ٢٤٣، التكملة ١٠٩/٢، الإحاطة ٢٣٠/٢.

(٢) الإحاطة ٢٣١/٢.

نفسها، ومن المستبعد أن يكون الحج للسبب الذي ذكر لما بين التاريخين من مدّة طويلة.

رحل ابن جبير إلى المشرق ثلاث مرات، أوّلها سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م وفيها دوّن رحلته المعروفة. مات ابن جبير في الإسكندرية في رحلته الثالثة سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م.

رحلة ابن جبير:

١ - **تسميتها:** ذكر حاجي خليفة في كشف الظنون أن اسم رحلة ابن جبير (رحلة الكناني)، وتابعه المستشرق كراتشكوفسكي، ولكنّا نظنّ أنّ للرِّحلة اسمين كغيرها من الرِّحل، الأول: (رحلة ابن جبير)، وهذا العنوان ورد في أول المخطوط الوحيد للرحلة، وجاء في خاتمته أن اسمها (اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك)، ولكن هذا العنوان هو اسم لكتاب آخر ألّفه ابن جُبير وذكره ابن عبد الملك المراكشي(١) ضمن مؤلفات ابن جبير.

أما الاسم الثاني للرحلة فهو (تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار)، وهو الاسم الصحيح للرحلة.

٢ - **خط سيرها:** خرج ابن جبير من غرناطة يوم الخميس ٨ شوال سنة ٥٧٨هـ / ٣ فبراير ١١٨٣م، ووصل إلى الإسكندرية بعد ثلاثين يوماً قضاها على ظهر السفينة في البحر من مدينة سبتة. ثم اتجه جنوباً إلى القاهرة، فقوص، وانتهى إلى عيذاب على ساحل البحر الأحمر، ومنها قطع البحر إلى جُدَّة في طريقه إلى مكّة والمدينة.

وبعد تأدية فريضة الحج اجتاز الطريق النجديّ إلى الكوفة، وزار بغداد والموصل، وعاد عن طريق سورية فمرّ بحلب وحماه، وحمص، والنبك،

---

(١) الذيل والتكملة ٦٠٤/٥.

ودمشق، وانتهى إلى عكا، فاستقلّ أحد المراكب الجنوية عائداً إلى بلده، فمرّ بصقلية، ووصل إلى غرناطة في ٨ محرم من سنة ٥٨١هــ / ١١٨٥م.

٣ - محتوى الرحلة: دوّن ابن جبير رحلته على شكل مذكرات يوميّة، استعمل فيها التاريخين الهجري والميلادي، فيذكر اليوم والشهر القمريين والسنة الهجرية، في حين كان يكتفي بذكر اليوم والشهر الشَّمسيين من دون ذكر السنة الميلادية.

عني ابن جبير في رحلته بالنَّواحي الدِّينية فاهتمَّ بذكر مشاعر الحج بالتفصيل، ووصف الطريق بين هذه المشاعر بدقّة متناهية، وعَيَّن المراحل الزَّمنية التي استغرقته كل منها.

كما عني بالمظاهر الجغرافية من سهول وجبال وبحار وخلجان وأنهار، وشروق وغروب، وفصول السنة. وأجناس الناس وأشغالهم وصناعاتهم وزراعاتهم ومتاجرهم وغير ذلك.

ولم يغفل ابن جبير تصوير العلاقات التجارية بين المسلمين والمسيحيين في إبّان الحروب الصليبية، ويشير غير مرّة إلى الحياة الاقتصادية من حيث المزروعات والسلع المتبادلة، وانتقد بعض الممارسات التي كان يقوم بها رجال الضرائب المصريين الذين كانوا يضيّقون على الحجاج، ويفتّشونهم، ويكلّفونهم بالضَّرائب عن كل ما معهم من مال من دون أن يتأكدوا من استحقاق الضريبة.

كما تكلّم على المكوس التي كان على الحُجّاج أن يدفعوها لشريف مكّة نظير ما يُؤدّى لهم من خدمات بمكّة وعرفة وبقيّة المناسك.

ويلفت نظرنا عناية ابن جبير بالبحث عن المدارس والمارستانات، وهذا ليس غريباً على رجل عالم فقيه، وهو في كل هذا دقيق الملاحظة، سهل العبارة، واضح الأسلوب، يترك قلمه على سجيّته في معظم أجزاء الرحلة، ولا يلتفت إلى الصنعة إلا في أماكن قليلة عندما يصف مدينة ينشرح فيها

فيعنى بالسجع والتوازن وتزيين الجمل بالمحسنات كقوله في وصف مدينة حلب: «بلدةٌ قدرها خطير، وذِكْرُها في كل زمان يطير، خُطّابُها من الملوك كثير، ومحلُّها من التقديس أثير[١]، فكم هاجت من كفاح، وسُلَّت عليها من بيض الصِّفاح[٢]، لها قلعةٌ شهيرة الامتناع، بائنة الارتفاع، معدومة الشَّبه والنَّظير في القلاع، تنزّهت حصانةً أن تُرامَ أو تُستطاع، قاعدة كبيرة، ومائدة من الأرض مستديرة، منحوتة الأرجاء، موضوعة على نسبة اعتدال واستواء...» [٣]

لقد وصل ابن جبير بأدب الرحلة إلى قريب من ذروته، وأضاف إلى فن الرحلة صفحات من أجمل ما فيه، وأغزرها مادّة، وأقربها إلى روح العلم وأصدقها.

مختارات من رحلة ابن جبير

وصف تفتيش الحُجَّاج بالإسكندرية:

«فمن أوّل ما شاهدنا فيها يوم نزولنا أن طلع أمناءُ إلى المركب من قِبَل السُّلطان بها لتقييد جميع ما جُلبَ فيه، فاسُتحضِر جميع مَن كان فيه من المسلمين واحداً واحداً، وكُتب أسماؤهم وصفاتهم، وأسماء بلادهم، وسُئل كل واحد عمّا لديه من سلع أو ناضّ[٤] ليؤدي زكاة ذلك كلّه دون أن يُبحث عمّا حال عليه الحَوْل من ذلك أو لم يَحُل، وكان أكثرهم متشخّصين لأداء الفريضة لم يستصحبوا سوى زادٍ لطريقهم، فَلُزِّموا أداء زكاة ذلك دون أن يُسأل أحال عليه الحَول أم لا..»

(الرحلة ١٣)

---

(١) الأثير: المفضل المكرم.

(٢) الصفاح: السيوف.

(٣) رحلة ابن جبير ٢٢٥.

(٤) الناضّ: الدراهم والدنانير.

مناقب الإسكندرية:

«ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه: المدارس والمحارس[1] الموضوعة فيه لأهل الطّبّ والتّعبّد، يغدون من الأقطار النائية، فيلقى كل واحد منهم مسكناً يأوي إليه، ومُدرّساً يُعلّمه الفنّ الذي يريد تَعلّمه، وإجراءً[2] يقوم به في جميع أحواله. واتّسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتّى أمر بتعيين حمّامات يستحمّون فيها متى احتاجوا إلى ذلك، ونصب لهم مارستاناً لعلاج من مرض منهم، ووكّل بهم أطبّاء يتفقّدون أحوالهم، وتحت أيديهم خدّام يأمرونهم بالنَّظر في مصالحهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء..»

(الرحلة ١٥)

وصف أهل بغداد:

«وأما أهلها فلا تكاد تلقى منهم إلاّ من يتصنّع بالتواضع رياء، ويذهب بنفسه عجباً وكبرياء. يزدرون الغرباء، ويظهرون لمن دونهم الأَنفة والإباء، ويستصغرون عمّن سواهم الأحاديث والأنباء، قد تصوّر كلّ منهم في معتقده وخَلده أن الوجود كلّه يصغر بالإضافة لبلده، فهم لا يستكرمون في معمور البسيطة مثوىً غير مثواهم. كأنّهم لا يعتقدون أن لله بلاداً أو عباداً سواهم، يسحبون أذيالهم أشراً وبطراً، ولا يغيّرون في ذات الله منكراً، يظنّون أن أسنى الفخار في سحب الإزار، ولا يعلمون أن فضله، بمقتضى الحديث المأثور، في النار، يتبايعون بينهم بالذَّهب قرضاً، وما منهم من يحسن لله فرضاً،... لا تكاد تظفر من خواص أهلها بالورع العفيف، ولا تقع من أهل موازينها ومكاييلها إلاّ على من ثبت له الويل

---

(١) المحارس جمع محرس: مأوى مخصص للدارسين والزّهّاد والمسافرين والفقراء.

(٢) الإجراء: المرتّب.

من سورة التطفيف، لا يبالون في ذلك بعيب، كأنّهم من بقايا مَدْيَن قوم النَّبي شُعَيب..»

(الرحلة ١٩٤)

وصف الخليفة العبّاسيّ الناصر:

«أبصرنا هذا الخليفة المذكور، وهو أبو العبّاس أحمد الناصر لدين الله ابن المستضيء بنور الله أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف، ويتّصل نسبه إلى أبي الفضل جعفر المقتدر بالله، إلى السَّلف فوقه من أجداده الخلفاء، بالجانب الغربي أمام منظرته به وقد انحدر عنها صاعداً في الزورق إلى قصره بأعلى الجانب الشرقي على الشّط، وهو في فتاءٍ من سنّه، أشقر اللّحية صغيرها كما اجتمع بها وجهه، حسن الشكل، جميل المنظر، أبيض اللون، معتدل القامة، رائق الرّواء، سنّه نحو الخمس وعشرين سنة، لابساً ثوباً أبيض شبه القَباء برسوم ذهب فيه، وعلى رأسه قلنسوة مذهبة مطوّقة بوبر أسود من الأوبار الغالية القيّمة المتخذة للباس مما هو كالفَنَك[١] وأشرف، متعمّداً بذلك زيّ الأتراك تعمية لشأنه، لكن الشَّمس لا تخفى وإن سُترت..»

(الرحلة ٢٠٣ -٢٠٤)

وصف دمشق:

«جنّة المشرق، ومطلع حُسنه المؤنق المشرق، وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استَقْرَيناها، وعروس المدن التي اجتليناها، قد تحلّت بأزاهير الرّياحين، وتجلّت في حلل سندسيّة من البساتين. وحلّت من موضع الحسن بالمكان المكين، وتزيّنت في منصّتها أجمل تزيين، وتشرّفت بأن آوى الله تعالى

(١) الفَنك: حيوان غالي الفراء.

المسيح وأمّه، صلى الله عليهما، منها إلى ربوة ذات قرار[١] ومعين، ظلّ ظليل، وماء سلسبيل، تنساب مذانبه[٢] انسياب الأراقم[٣] بكل سبيل، ورياض يُحيي النُّفوسَ نسيمُها العليل، تتبرّج لناظريها بمجتلى صقيل، وتناديهم: هلمّوا إلى مُعَرَّسٍ[٤] للحسن وَمقيل، قد سئمت أرضها كثرة الماء حتى اشتاقت إلى الظّماء، فتكاد تناديك بها الصُّمُّ الصِّلاب: (**اركض برجلك هذا مغتسلٌ باردٌ وشَراب**)[٥]، قد أحدقت البساتين بها إحداق الهالة[٦] بالقمر، واكتنفتها اكتناف الكمامة للزَّهر، وامتدّت بشرقيّها غوطتها الخضراء امتداد البصر، فكل موضع لحظته بجهاتها الأربع نضرتُه اليافعة قيد النظر، ولله صدقُ القائلين عنها: إن كانت الجنّة في الأرض فدمشق لا شكَّ فيها، وإن كانت في السَّماء فهي بحيث تُسامتُها[٧] وتحاذيها»

(الرحلة ٢٣٤ -٢٣٥)

وصف اتفاق النصارى والمسلمين:

«ومن أعجب ما يُحَدَّث به أنّ نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى، وربّما يلتقي الجمعان ويقع المُصافّ بينهم، ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم، شاهدنا في هذا الوقت، الذي هو شهر جمادى الأولى من ذلك خروج صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين لمنازلة حصن الكَرَك، وهو من أعظم حصون النَّصارى، وهو المعترض في

---

(١) القرار: المكان المنخفض الذي يجتمع فيه الماء.

(٢) المذانب: جمع مذنب: وهو المسيل بين تلعقين.

(٣) الأراقم: الحيّات، الواحد أرقم.

(٤) التعريس: النزول آخر الليل للراحة.

(٥) سورة ص ٤٢.

(٦) الهالة: ما يحيط بالقمر.

(٧) تسامتها: تقابلها.

طريق الحجاز، والمانع لسبيل المسلمين على البرّ، بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أشفّ[1] قليلاً، وهو سَرارة[2] أرض فلسطين، وله نظر عظيم الاتساع متّصل العمارة، يُذكر أنّه ينتهي إلى أربع مئة قرية، فنازله هذا السلطان وضيّق عليه وطال حصاره.

واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكة كذلك، وتجّار النصارى أيضاً لا يُمنع أحد منهم ولا يُعترض، وللنَّصارى على المسلمين ضريبة يؤدّونها في بلادهم وهي من الأَمَنَة[3] على غاية، وتجّار النّصارى يؤدّون في بلاد المسلمين على سلعهم، والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية، والدُّنيا لمن غلب»

(الرحلة ٢٦٠)

* * *

---

(١) أشفّ: أكثر.

(٢) سرارة الشيء: أطيبه.

(٣) الأمنة: الأمن والاطمئنان.

٤- التّجاني

ترجمته: هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التّجاني(١)، ولد بمدينة تونس عاصمة الدولة الحفصيّة، بين عامي ٦٧٠ -٦٧٥هـ/١٢٧٢ - ١٢٧٦م، وتربّى في حجر والده الأديب العالم، فأخذ عنه مبادئ القراءة والكتابة، واختلف إلى مجالس الشُّيوخ في تونس(٢) فأخذ عنهم علوم القرآن والحديث الشريف، والتفسير، واللغة والأدب، فحصَّل علماً غزيراً جعله في مرتبة عالية.

اهتم عبد الله التّجاني باقتناء الكتب المختلفة النادرة، وورث عن عائلته التي عرفت بالعلم مجموعة قيّمة منها، فكان يعود إليها وينقل عنها، وكان دائم العودة إلى المكتبة الرئيسيّة للدولة الحفصيّة التي وفّر لها الملوك الحفصيّون الكتب النادرة والقيّمة.

وعندما بلغ التّجاني مرحلة الشَّباب، وكان قد أصبح من العلماء المشهورين، انخرط في سلك الكتّاب في ديوان الإنشاء إلى جانب مجموعة من الكتّاب المشهورين، وربطته بهم علاقات مودّة تظهر جليّة في المراسلات بينه وبينهم.

---

(١) اعتمدنا في ترجمة الرجل على المقدمة الضافية التي صدّر بها الأستاذ حسني عبد الوهاب رحلة التجاني المطبوعة بليبيا وتونس ١٩٨١. وانظر شجرة النور الزكية ٢٠٦، والأعلام للزركلي ١٢٥/٤.

(٢) انظر مقدّمه الرحلة ص (كو).

ونظراً إلى نبوغه اختصّه الأمير أبو يحيى زكريا بن اللّحياني، وصحبه في رحلته لتفقّد أركان الدولة، وعيّنه كاتباً خاصاً له سنة ٧٠٦هـ/١٣٠٦م. ثم عاد عبد الله إلى العاصمة تونس في صفر من سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٨م، وتولّى رئاسة ديوان الرسائل حتى سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م، حين حصلت اضطرابات في أركان الدولة، واختفى على إثرها ذكر صاحبنا فلم نعد نقف له على خبر.

خلف التّجاني عدداً من المؤلفات في اللغة والأدب(١)، تنمّ على تمكّنه من العلوم المختلفة، وتدلّ على طول باعه في الأدب.

رحلة التّجاني:

تعدّ رحلة التّجاني في الرِّحل الداخليّة، ولعلّها الرحلة الوحيدة من نوعها في وصف البلاد الإفريقيّة، والتعريف بعمرانها في أوائل القرن الثامن للهجرة.

بدأ التّجاني رحلته من مدينة تونس قاطعاً الساحل التونسي فمرّ برادس والحمّامات، وسوسة، ثم صفاقس، ثمّ اتّجه جنوباً نحو قابس، فجزيرة جربة فيعرّف بها ويصف لنا عقائد أهلها وعاداتهم وتقاليدهم. ثم يدخل الواحات الجنوبيّة بقسميها: الشَّرقي (مطماطة ونفزاوة)، والغربي (بلاد الجريد). ثم يعود مع أميره ويصل إلى طرابلس، ويزور مناطق زوارة وزواغة وزنزور ويصفها وصفاً دقيقاً، ويقيم بمدينة طرابلس مدّة يتصل بأبرز علمائها، ويحضر مجالس بعض محدّثيها، وبعد مدّة يسافر الأمير إلى الحج، ويعود التجاني إلى تونس، ويصف طريق العودة بدقة.

لم يكن التجاني يكتفي بوصف المدن والطُّرق إليها، بل كان يذكر أخبارها(٢)، وأهم الأحداث التي مرّت بها، ويعرّف بأهم أبنائها القدماء

---

(١) انظر مقدّمه الرحلة ص (ك ح –م هـ).

(٢) انظر الكلام على سوسة وتاريخها وأبرز أعلامها في الرحلة ٢٥ وما بعد.

والمعاصرين ممّن عرفوا بالفقه والعلم والأدب والسياسة، ويحدّثنا عمّن يسكنها من القبائل وما يتفرّع عنها.

ومما يميز عبد الله التجاني إيراده في رحلته بعض الوثائق التاريخيّة المهمّة، واهتمامه بتأريخ جملة من الأحداث التي تفرّد بذكرها في رحلته، وبذلك تصوّر هذه الرحلة البلاد التونسيّة في العصور الوسطى من حيث عناصر السكان، وحالتهم الاجتماعية والاقتصاديّة.

وكان يعتمد في وصف المدن والطرق على المشاهدة، ويعمد في كثير من الأحيان إلى المقارنة مع ما جاء في المؤلفات الجغرافية والتاريخية والأدبية كالمسالك والممالك للبكري، وتاريخ ابن شدّاد، والكامل لابن الأثير، والذخيرة لابن بسام، وأنموذج الزمان لابن رشيق القيرواني، وخريدة القصر للعماد الأصفهاني.

ولا يمكن أن نغفل الجانب الأدبي في رحلة التجاني، إذ نقف في الرحلة على نصوص شعريّة مهمّة تفرّد بذكرها، وأخرى نقلها عن كتب ودواوين أتى عليها الدهر، ولم نقف لها على ذكر، كنقوله من كتاب أنموذج الزمان[١] لابن رشيق، وتحفة القادم لابن الأبار[٢]، وديوان الجراوي[٣].

ومما تميّز به التّجاني أنه ذكر في رحلته كثيراً من المراسلات الإخوانية والعائلية[٤]، وعرض ما جاء فيها من شعر ونثر، وكانت تتّسم بالصنعة التي كانت سائدة لدى كتّاب ذلك العصر.

وقد كتب التجاني رحلته بأسلوب جميل وعبارة أنيقة اعتنى بتزويقها، وجاء أسلوبه متراوحاً بين الطبع والصنعة، ولكن صنعته من النوع المقبول الذي لا يُغرق فيه باستخدام المحسّنات اللفظية إغراقاً كبيراً.

---

(١) الرحلة ٣٣ -٥٧.
(٢) الرحلة ٨٤.
(٣) الرحلة ١٣٧.
(٤) الرحلة ١٢٩ وما بعد و١٨٩.

مختارات من رحلة التجاني

وصف مدينة قابس:

«.. وعلى قابس سور ضخم جليل من بناء الأُوَل، ولها أرباض[(١)] واسعة، وجُلُّ أسواقها في أرباضها، وقد دار بسورها خندق متّسع يُجرون الماء إليه إذا خافوا من نزول عدوّ عليهم، فيكون أمنع شيء لها، ولها واد يسقي بساتينها ومزارعها، ويخترق في كثير من مواضع الغابة دورها وشوارعها، وأصل هذا الوادي عينٌ خرّارة في جبل بين القبلة والمغرب منها، وأكثر جنّاتها فيما بين المدينة والبحر، وبتلك الجهة السَّاحة المعروفة بساحة عنبر.

ومن المكاره الّتي حفّت بها جنّة قابس، ما يتعاهدها من الوباء، وينتاب ساكنها من الأمراض، وسبب ذلك فيما يذكر أهلها كثرة شجر الدُّفلى بها، فيكتسب الماء منها لدى جريه سُمّيّة ومرارة تضرّ بأبدان ساكنيها كثيراً، ولذلك لا تجد وجوه كثير من أهلها إلاّ مصفرّة، وفي هذا البلد أيضاً فساد وتغيّر سببه كثرة عفوناتها.

وقد اشتهر عن أهل قابس ما اشتهر من بيع فضلاتهم، وهم يقرّون بذلك، ويدّعون شدّة احتياجهم إليها، وأن النخيل في بلادهم لا يثمر إلاّ به، ومن رسالة لأبي مطرّف بن عميرة في وصف قابس، وكان ولي قضاءها في مدّة الخليفة المستنصر رحمه الله: بلد غوطيّ البساتين، طوري الزيتون والتّين، فأمَّا النَّخل فجمع عظيم، وطَلْع هضيم[(٢)]، وسكك مأبورة[(٣)]، ونواعم في الخدور مقصورة..».

(الرحلة ٨٧ -٩٠)

---

(١) أرباض المدينة: ما حولها، واحدها: رَبَض.

(٢) طلعٌ هضيم: الطَّلْعُ: غلاف يشبه الكوز ينفتح عن حَبّ منضود فيه مادّة إخصاب النَّخلة. وهضيم: داخل بعضه في بعض، قال تعالى في سورة الشعراء ١٤٨: (ونخلٍ طَلْعُها هضيم).

(٣) أبر النَّخل: لقّحه.

وصف سكان جزيرة جربة:

«.. وأكثر مساكن أهلها أخصاص[1] من النَّخيل، يجعل كلّ واحد منهم في أرضه واحداً أو اثنين أو أكثر من ذلك، ثمّ يسكنه بعياله، وليس بها بناء قائم إلاّ دورٌ قليلة، وهم ينقسمون إلى فرقتين؛ فرقة تعرف «بالوهبيّة» ورئاستهم في (بني سمومن) وأرض هذه الفرقة من الجزيرة الجهة الغربية فما والاها من جهة الشّمال، وفرقة تعرف «بالنكارة» ورئاستهم في (بني عزون)، وأرضهم الجهة الشّرقية فما والاها من جهة الجنوب.

وكانت مدينة جربة فاصلة بين أرضيهم، وكلا الطّائفتين خوارج غلاة في مذهبهم، مُكفّرون العصاة على ما هو معروف من مذهب الخوارجِ، لا كمذهب المعتزلة في امتناعهم من إطلاق اسم الكفر على من واقَع كبيرةً ولم يتب منها، فإن المعتزلة لا تسمّيه كافراً ولا مؤمناً، وتسمّيه فاسقاً على حكمهم بتخليده في جهنّم، وكأن المعتزلة بزعمهم توسّطوا في هذا بين مذهب الخوارج ومذهب أهل السُّنّة..»

(الرحلة ١٢٢ -١٢٣)

التعريف بقبيلة بني يزيد:

«وبنو يزيد أربعة أفخاذ من دباب تحالفت وانتسبت على مدلول الزيادة لا إلى رجل مُتَسَمٍّ بيزيد وهم: الصُّهبة، والحمارنة، والخرجة، والأصابعة.

فأمّا الصّهبة – بسكون الهاء – فبنو صهب بن جابر بن فائد بن رافع ابن دباب.

وأمّا الحمارنة، فبنو حمران بن جابر، إخوتهم.

وأمّا الخرجة – بسكون الراء – فجماعة من آل سليمان بن رافع بن دباب. أخرجهم بنو عمّهم آل سالم بن رافع من أرضهم فمالوا إلى محالفة هؤلاء، وساكنوهم بمنازلهم هذه، وكانت أرضهم أرض مسلاتة وما قارب منها.

---

(١) أخصاص: جمع خُصّ: بيت من القصب أو الأغصان.

وأما الأصابعة: فهم منتسبون إلى رجل كانت له أصبع زائدة، ودباب يطعنون عليهم نَسبهم ويذكرون أنهم خارجون منهم».

(الرحلة ١٣٤)

بعض مراسلات التجاني:

«وأكثر الفقيه الطيّب الفاضل أبو إبراهيم بن حسينة في هذه الأيام من مخاطبتي بالنظم والنثر في أغراض شتّى وأنا أجيبه عن ذلك كلّه.. وأذكر منه الآن قوله:

أعبدَ الله فُقْتَ ذوي المعالي ... حَباكَ اللهُ أيّاماً سعيده

ونلتَ منالَ آباءٍ كرامٍ ... لهم في المجد آثارٌ حميده

أردتُ إليك إرسالاً بشعرٍ ... لأسمعَ من جوابك لي مديده

فإنَّك مستمدٌّ من بحورٍ ... سواحلها غدَت منّي بعيده

فإن جاوبت عن نظمٍ بنظم ... بعثتُ بقطعةٍ أيضاً جديده

فلا أبقى لأطلب منك نظماً ... ولا أبقيتَ تطلب لي قصيده

فأجبته عن ذلك:

أمحرزَ كلّ منقبةٍ حميده ... ومن لم نُلْفِ في الدّنيا نَديدَه

أُعنِتَ على النِّظام بحُسن طبعٍ ... وأفكارٍ مؤيّدة سديده

وتسألني الجواب وإنَّ فكري ... ليقصر عن مجاريك المديدة

فمهّد لي على التقصير عذراً ... وهَوِّن من مطالبكَ الشديده

ودم في عزّة وبلوغ قصدٍ ... وسعدٍ دائمٍ وحُلىً جديده

(الرحلة ١٧١ -١٧٢)

* * *

٥- ابن رُشَيد

ترجمته: هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد ابن إدريس بن سعيد بن مسعود بن حسين بن محمد بن عمر بن رُشيد الفهري السبتي[(١)]، ولد بمدينة سبته في رمضان من سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م.

تلقى ابن رشيد دراسته الأولى في بلده على مجموعة من مشايخها[(٢)]، وأخذ عنهم علوم القرآن والتفسير، والحديث والنحو واللغة والأدب.

ثم انتقل ابن رشيد إلى مدينة فاس التي كانت مركزاً علمياً مرموقاً، والتزم مجالس الشيوخ فيها، فحذق علوم الحديث.

لم يكتف ابن رُشيد بما حصّله في المغرب من علوم فرحل إلى المشرق حيث التقى عدداً كثيراً من المشايخ والعلماء والأدباء الذين ذكرهم في رحلته، وجمع عدداً وافراً من الإجازات في العلوم المختلفة.

وبعد عودته من رحلته تصدّر للتدريس في بلده سبتة فدرّس الفقه والحديث، ثم تولى الخطبة بجامع غرناطة، واشتهر بين الناس فاستدعاه السلطان إلى المغرب، وعيّنه إماماً وخطيباً للجامع العتيق بمرّاكش، ثم استقدمه إلى فاس وجعله من خاصّته إلى أن توفي في ٢٣ محرم سنة ٧٢١هـ/١٣٢١م.

ترك ابن رُشيد عدداً من المؤلّفات في العلوم المختلفة كالنحو والبلاغة والعروض والتراجم والفقه والفهارس والأسانيد[(٣)].

---

(١) الإحاطة ١٣٥/٣، فوات الوفيات ٢٨٥/٤، الديباج المذهب ٢٩٧/٢.

(٢) انظر درة الحجال ٩٦/٢ -٩٧.

(٣) أزهار الرياض ٣٥٠/٢، درّة الحجال ٩٧/٢، بغية الوعاة ٢٠٠/١.

رحلة ابن رشيد:

اسم الرحلة كاملاً: (ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكّة وطيبة). وتعدّ في أنفس ما كتبه ابن رُشيد، لما تضمَّنته من فوائد علميّة كثيرة، وقد وصل إلينا من هذه الرحلة نسخة خطّية واحدة غير كاملة، منسوخة بخطّ المؤلف ما عدا الجزء الثالث منها، قرأها عليه تلميذه عبد المهيمن الحضرمي كما يظهر من التقييدات عليها، والنسخة محفوظة بدير الإسكوريال بإسبانيا.

ويقع مخطوط الرحلة في سبعة أجزاء، ضاع منها اثنان، ووصل إلينا خمسة هي:

- الجزء الثاني: يتضمن الحديث عن مدينة تونس عند الورود، وترجم فيه لستة عشر شيخاً وأديباً وعالماً من أهالي تونس والمقيمين فيها[١].

- الجزء الثالث: وهو جزء مبتور الأول والآخر يتحدّث عن مصر والإسكندرية عند الورود، وترجم فيه لعشرة شيوخ من أهالي الإسكندرية، وثلاثة وأربعين من أهل القاهرة[٢].

- الجزء الخامس: وموضوعه الحرمان الشريفان ومصر والإسكندرية عند الصدور، وفيه يذكر ابن رُشَيد مراحل سفره، ويصف تنقّلاته ومحاوراته مع الأصحاب، ويطنب في الحديث عن مناسك الحج، ولا يغفل ما التزمه في رحلته في التعريف بمن لقيه من الرجال، فترجم في الحرمين الشريفين لستة عشر شيخاً، وفي مصر عند الصدور لأحد عشر شيخاً، منهم أربعة تكرر لقاؤه بهم، وترجم لأربعة شيوخ لقيهم بالإسكندرية[٣].

---

(١) طبع بتونس بتحقيق محمد الحبيب الخوجة.

(٢) طبع بتونس بتحقيق محمد الحبيب الخوجة.

(٣) طبع ببيروت بتحقيق محمد الحبيب الخوجة.

- الجزء السادس: ويتعلّق بالعودة من الإسكندرية إلى تونس عن طريق طرابلس والمهدية، ويعرّف فيه بجماعة من الأعلام، لقي أحدهم في السَّفينة وترجم لاثنين لقيهم بمدينة طرابلس، وواحد لقيه بالمهدية، وأربعة وثلاثين لقيهم بتونس، منهم عشرة تكرر لقاؤه بهم(١).

- الجزء السابع: ويتعلّق بالعودة من تونس إلى سبتة عن طريق بونة (عنابة)، ومالقه ورندة، والجزيرة الخضراء. ويتحدّث ابن رشيد في هذا الجزء عن مرويّاته ومجالسه ومراسلاته، ويترجم فيه لستة أشخاص، ويختم به الرحلة(٢).

أمّا الجزآن الضائعان فهما الأوّل والرابع، ويضمّ الجزء الأول حديثه عن خروجه من مدينة سبتة ووصوله إلى المريّة، ولقائه للوزير ابن الحكيم ت (٧٠٨هـ/١٣٠٨م)، ودخوله بعد ذلك بجاية، ونظنّ أن ابن رشيد قد عرّف في هذا الجزء بعدد من المشايخ والعلماء الذين كانت تزخر بهم بجاية في نهاية القرن السابع الهجري، وترجم لهم الغبريني في كتابه (عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية).

على حين يضم الجزء الرابع حديثه عن بلاد الشَّام التي اتجه إليها ابن رُشيد عند خروجه من مصر، ثم انطلق منها إلى الحجاز، ويبدو أنّه ترجم فيه لجماعة من العلماء لقيهم في طريقه إلى الحجاز، ويدلّنا على أسماء بعضهم (الاستدعاءُ الكبير) المطبوع بآخر الجزء الثالث من الرحلة.

خط سير الرحلة:

من خلال قراءتنا لما وصل إلينا من رحلة ابن رشيد، وما جاء في المصادر المختلفة نستطيع أن نحدّد خطّ سير رحلة ابن رُشيد، فقد خرج من مدينة سبته سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م قاصداً الحج، فانتقل إلى المريّة بالأندلس،

---

(١) لا يزال هذا الجزء مخطوطاً.

(٢) لا يزال هذا الجزء مخطوطاً.

ولقي فيها الوزير ابن الحكيم، الذي رافقه في رحلته، وانطلق الرَّجلان في رحلتهما فوصلا إلى تونس عن طريق تلمسان وبجاية، ومنها انتقلا إلى الإسكندريّة ثم القاهرة التي وصلا إليها سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م، واتجها منها إلى دمشق، ومنها إلى المدينة المنوّرة فمكّة المكرمة.

وبعد أداء فريضة الحج عاد رحّالتنا أدراجه إلى القاهرة فالإسكندرية سنة ٦٨٥هـ/١٢٨٦م، ومنها ركب البحر إلى طرابلس فالمهديّة بديار إفريقية التي وصل إليها في ربيع الأول من تلك السنة، وبلغ تونس في ربيع الثاني، وأقام بها عاماً كاملاً، ثم اتجه إلى مدينة بونة (عنّابة)، ومنها أبحر إلى مالقة ورُندة والجزيرة الخضراء، ثم انتهى به المطاف في مدينة سبتة في جمادى الثانية من سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٧م.

منهج ابن رشيد في رحلته:

كان ابن رشيد حريصاً على الاتصال بالعلماء والشُّيوخ، والأخذ عنهم في كلّ مدينة كان يحلّ فيها، واكتسب من ذلك علماً واسعاً، قراءة ورواية وسماعاً، ووقف على أمهات التّصانيف الحديثيّة وكتب العربيّة، وجرت بينه وبين من لقيهم من العلماء محاورات ومناقشات علميّة، ومطارحات أدبيّة، وكان احتفاله بهذا الجانب من رحلته مهيمناً عليه، فلا نجده يصف المعالم والآثار والمدن إلاّ لماماً، وبقدر الحاجة، بل كان يصرف كل اهتمامه إلى ملاقاة الرجال وزيارة العلماء والمحدّثين والرواة في مجالسهم. وكان يحرص كذلك على زيارة قبور أئمة الحديث الذين يتّصل بهم السَّنَد أو ينتهي إليهم(١).

وبهذا تعدّ الرِّحلة بحقّ برنامجاً أو فهرساً شاملاً لما تضمّنته من تراجم وأسانيد وأسماء كتب، ومرويات، وهذا ما وعاه تلميذه عبد المهيمن الحضرمي حين أطلق على الرحلة اسم البرنامج(٢).

---

(١) انظر وصفه لزيارة قبر الإمام أبي طاهر السلفي في الإسكندرية. ملء العيبة ٩٢/٣.

(٢) انظر قراءة عبد المهيمن الحضرمي على الرحلة على الصفحة الأخيرة من الجزء السابع.

وينصّ ابن رُشيد على أنّه لم يقصد من كتابة رحلته تأليف كتاب بمنهجٍ محدّد واضح، بل أراد أن يجمع ما دوّنه من ملاحظات على بطائق متفرّقة حول مشاهداته وقراءاته في رحلته، فضمّن تأليفه مسائل حديثية، ولطائف أدبيّة، وبيانيّة، وفقهيّة ونكت عروضيّة.

وقد استعار منهج المحدّثين وطريقتهم في الضبط، فتجلّى ذلك في الأسانيد والمسلسلات التي رواها عن الشيوخ في هذه الرِّحلة، وفي الإجازات التي حصل عليها، فكان حذراً في النقل، متريّثاً في الرواية، مثبتاً في التدوين، فتبيّن ذلك من كل ما ساقه من أخبار وروايات، ونصوص شعرّية ونثرية.

ونلاحظ أن ابن رشيد اتّبع في الجزئين الخامس والسَّابع منهجاً مختلفاً إلى حدّ ما عن منهجه في بقيّة الأجزاء، فنراه يولي الناحية الجغرافية اهتماماً خاصاً في الجزء الخامس، فوصف الطريق التي سلكها الرَّكب منذ خروجه من دمشق إلى الحجاز، ووصف البلدان التي مرّ بها كبصرى وحوران وتبوك والحجر، وكذلك وصف البلدان التي قطعها بين المدينة ومكّة، والأماكن التي تتّصل بمناسك الحج وأركانه، قال في انطلاق الركب من دمشق إلى المدينة: «.. وكان سفرنا من ظاهر دمشق من الموضع المعروف بميدان الحصى عصر يوم الاثنين الحادي عشر من شوّال، وقد كنّا برزنا للسَّفر غدوة اليوم، فاعتاق الكريُّ في بعض حوائجه إلى عشيّ اليوم، وعاينّا في ذلك اليوم عند خروج النَّاس للوداع ما يُسيل الدموع، ويكاد يذهب بالقلب السَّليم فكيف بالمصدوع، فبتنا تلك اللَّيلة بالموضع المعروف بالقيساريّة على ضفّة النَّهر، ورحلنا سحر اليوم الثَّاني عشر، ونزلنا منازل بالطَّريق سالكين إلى بُصرى، وهي مدينة حوران، وضبط هذا الاسم بضمّ أوّله، وإسكان ثانيه، وفتح الراء المهملة... وافتتحت بُصرى في خلافة أبي بكر رضي الله عنه لعامٍ وأربعة أشهر مضت من خلافته فوافيناها بعد صلاة الجمعة في يوم الخامس عشر من شوّال، ورأينا بلداً محكم الأسوار، قديم الآثار، أبواب دوره من منحوت الأحجار...»[١]

---

(١) الرحلة ٥/١ -٣.

بينما نجد ابن رشيد في الجزء السابع يولي الناحية الأدبيّة اهتماماً خاصاً، ولاسيّما مطارحاته مع الأديب التونسيّ أبي الفضل التّجاني التي شغلت معظم السِّفر السابع من الرحلة، ويبدو أن كلّ واحد منهما وجد في الآخر ضالّته، فتبادلا الرسائل والمساجلات الشعرية الإخوانيّة، وكان كلّ واحد منهما معجباً بصاحبه، ومن نماذج رسائله قوله: «... ولا أغربُ من رسالتك البديعة المساق، المخجلة كل قلادة بما رُزقتهُ من حسن الانتظام والاتّساق، فقد أغربت وأشرقت وغرّبت وشرّقت، وتهادتها النَّواسم العطريّة، وافتقرت إليها المواسم السريّة والمباسم الخمريّة، وأنت تخلع عليّ فرائدها، وتجلب إليّ فوائدها، وتذكّرني في أمر التّصنيف، وتعرّفني وإيّاه بغير لام التَّعريف، وتُشَرّف هذا المجموع غاية التشريف...»[1]

أما ترجمته للشيوخ فكان يترجم للعَلَم فيذكر كُنيته واسمه، وما تميّز به من علوم وآداب، ثمّ يذكر شيوخه وما أخذ عن كلّ واحد منهم، ويذكر إجازاته وسماعه، والعلوم التي حصَّلها. ومثال ذلك ترجمته للشيخ تاج الدّين الغَرّافي الذي لقيه بالإسكندرية فقد ذكر كنيته واسمه ونسبه، ونشأته، وحلاّه بما يستحقّ من صفات، ثم ذكر سماعه وإجازاته، وما أخذه عنه وعدّد تلاميذه[2].

أسلوب الرّحلة:

يتراوح أسلوب ابن رشيد في رحلته بين الأسلوب المرسل، والأسلوب المتصنّع الذي يكدّ فيه المؤلف ذهنه لإنشاء الجمل والعبارات المزخرفة بأنواع المحسّنات البديعيّة.

ويسود الأسلوب المرسل عندما كان يتناول بعض الأمور العلميّة والمناقشات الفقهية والحديثيّة، في حين كان يتأنّق في عبارته عندما كان يترجم لشيخ من الشيوخ، أو يصف بلداً أو مُتَنَزَّهاً، أو يطارح أديباً من الأدباء.

---

(١) الرحلة ٧/ق ١٣/ب.

(٢) الرحلة ٥٣/٣ -٩٤.

وتتفاوت عبارته بين الطول والقصر، ويتأنّق ما وسعه في اختيار ألفاظه، واستعمال ألوان البديع كقوله في ترجمة ابن حَبيش: «... وكان متفنناً في العلوم، منصفاً فيما يعنّ من الفهوم، متقدّم القدم في صناعة البيان، متمكّن اليد من ناصية الإبداع والإحسان، تلج دُرر كلمه أصداف الآذان من غير استئذان، فريد في دهره، أمير في نظمه ونثره...»(١)

ويبدو من خلال ما اقتطفناه من ترجمة ابن حَبيش حرصه الكبير على التزام السجع، واستخدام المحسنات البديعية كالجناس والترادف، ومراعاة التوازن بين الكلمات والجمل لإحداث إيقاع موسيقي، وتناسب صوتي.

بيد أننا نجد ابن رُشيد في بعض الأحيان يعتدل في استخدام المحسنات فيجيء أسلوبه أقرب إلى العفوية والطبع، وتتقبّله الأذن بارتياح، كقوله في وصف منار الإسكندرية: «.. ومن عجائب الإسكندرية منارها الذي يعجز عنه الواصف، ويحار فيه الراصف، وضخامته من داخله أكثر مما هي من خارجه، وهو من عجائب المصنوعات وغرائب المرئيّات...»(٢)

فهو هنا يقدّم معلومات ولذلك لان أسلوبه، في حين أنّه في الترجمة يسجل موقفاً يريد أن يظهره بتزيين العبارة.

أمّا أهم النماذج الأدبية التي تظهر سمات نثره الفني في الرحلة فهي تلك الرسائل التي تبادلها مع أنداده في تونس، ومنها الرسالة التي بعثها إلى صنوه أبي الفضل التجاني التي يقول فيها: «.. فبالله يا ذا الفضائل، وربّ العقائل، انظر إليّ بعين الرّفق، وأنظرني إلى زمن اليُسر في أداء هذا الحق، فقد أفلستُ وأعسرتُ، ونصبتُ بديهتي ورويّتي وأكديتُ وأجبلتُ، ودع فكري ينزع قليلاً، فقد تركته عليلاً، وأنشقني من لدنك نسيماً بليلاً...»(٣)

---

(١) الرحلة ٨٤/٢.

(٢) الرحلة ٩٤/٣.

(٣) الرحلة ٧/ق ٢٧/أ.

ففي هذه الرسالة يظهر التزام السجع ومراعاة الجناس، والميل إلى الإطناب والترادف، ويظهر الثراء اللغوي عند ابن رشيد في قدرته على اختيار اللفظة المناسبة لإكمال السجعات.

ولابدّ من الإشارة هنا إلى أنه على الرغم من مستوى ابن رشيد الأدبي الرفيع، لم يكن يتهافت على هذا اللون من الزخرفة اللفظية، ولم يقدم على جواب أبي الفضل التجاني بهذا الأسلوب الفني إلاّ استجابة لإلحاح الأصدقاء الذين طلبوا منه ذلك. ومن هنا فإن الأسلوب المرسل هو الغالب على الرحلة.

مختارات من رحلة ابن رُشيد

ترجمة ابن أبي الدُّنيا:

«وابنُ أبي الدّنيا هذا المرثيّ هو الفقيه الجليل، العالم العامل المشاور، المفتي القاضي أبو محمد عبد الحميد بن أبي البركات بن أبي الدنيا الصَّدفي، من رؤساء أهل إطرابلس ونزل تونس. معروف بالعلم والدِّين والورع والفضل، وله تصانيف في أصول الدِّين، وأصول الفقه، ونظم ونثر، اتفق الناس على فضله، ولي بأَخَرة قضاء الجماعة بتونس محمولاً عليه. وبلغني أنّه لم يحكم إلاّ أياماً قلائل، نظر في الشُّهود فجرّح وعدّل وأسقط وأثبت. والتزم منزله مريضاً إلى وفاته وآب مُثاباً. وقيل لي: إنّه دعا أن لا يحكم بين اثنين فأجيب.

وصلت إلى تونس وهو بحالة مرض متزايد، فقصدت بعض الطلبة المشتغلين بالرّواية هنالك - وكان له به اتصال - في رؤيته وسرت معه إلى منزله، فاستأذن ودخل وتركني في دكان إسطوانه. فمكث ساعة وخرج إليّ. وقال: إن الشيخ بحالة لا يُدخَل عليه فيها. وما نصح في ذلك ولا أراه صدق في استئذانه. فإنّه بلغني أن الشيخ أبا محمد – رحمه الله – كان في تلك الأيام حريصاً على لقاء مَن وصل من المغرب في المركب الواصل، راغباً فيمن يستجيزه أو يأخذ عنه أو يسمع منه.

فلما كان في غدٍ عدت لأنظر من أتوسّل إليه ليدخلني عليه، فألفيت الشيخ - رحمه الله - قد توفي ووُضِع في مُصَلاَّه، فحضرت جنازته، واشتدّ أسفي على فقده، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

فكانت وفاته - رحمه الله - صبحَ يوم الثلاثاء الثاني والعشرين لشهر ربيع الأول عام أربعة وثمانين وست مئة، وصُلّي عليه بالجامع الأعظم، جامع الزيتونة، عقب صلاة الظهر من ذلك اليوم، صلّى عليه أبو القاسم ابن عرفة الخطيب بجامع الزيتونة والإمام به. ودفن خارج باب البلد بالمدفن الكبير المعروف عندهم بالزّلاّج..».

(رحلة ابن رشيد ٤٠٣/٢ -٤٠٤)

زيارة قبور الأئمّة:

«.. وزرنا بالإسكندرية – حماها الله تعالى – قبر الإمام الزّاهد المحدّث، آخر الحفّاظ وبقيّة المحدثّين أبي الطاهر السِّلَفي داخل باب الأخضر على مقربة منه، وله سنام كبير عالٍ، وعلى مقربة منه قبر الزّاهد الإمام أبي بكر الطرطوشي - رحمه الله - وعلى قبره مكتوب: توفي الإمام الزاهد أبو بكر محمد بن الوليد الفهري في جمادى الآخرة عام عشرين وخمس مئة. وبمقربة من الجدار الغربي قبر يقال: إنه قبر عبد الرحمن بن هرمز الأعرج رحمه الله...»

(رحلة ابن رشيد ٩٢/٣)

وصف عمود السواري بالإسكندرية:

«.. ومن عجائبها أيضاً التي يحار العقل في التوصّل إلى وصفه، ويكلّ الرامق إليه بطرفه: السارية المعروفة عندهم بعمود السَّواري. وهي خارج باب البلد، قائمة ببسيط من الأرض على قاعدة، وعلى رأسها قاعدة أخرى أخذ بعض أصحابنا ارتفاعه بحضرتي فألفيناه مئة وثلاثين شبراً، وشبرت قاعدته بشبري فكانت تسعة عشر شبراً في كل وجه من وجوه القاعدة...»

(الرحلة ٩٥/٣)

ترجمة ابن خطيب المِزَّة:

«وممن لقيته بالقاهرة: الشيخ الأجلّ الفقيه المسند شهاب الدين أبو الفضل عبد الرحيم بن العلم يوسف بن يحيى بن يوسف – وزاد بعض أصحابنا بعد يوسف بن أحمد بن سليم الدمشقي المزّي، بميم مكسورة بعدها زاي معجمة، منسوب إلى المِزّة، موضع بغوطة دمشق –ويشهر بابن خطيب المزّة. وخطيب المزّة هو جدّه يحيى، ويعرف أيضاً بابن المعلم. سمع الكثير وأجيز له، وهو أحد الشُّيوخ الفضلاء الثِّقات الأخيار، وتفقّه على مذهب الشافعي رحمه الله.

أخبرني –رضي الله عنه – أنه سمع سنن أبي داود من رواية اللؤلؤي على الشيخ أبي حفص عمر بن محمد بن معمر بن طَبَرزَد الدارقزّي. وقرأت أنا من السنن عليه أحاديث في الأحاديث التي خرجت له من أسمعته، وأظنها جزأين قرأتهما عليه..»

(الرحلة ١٦٠/٣)

ذكر غريبة عنَّت لنابه:

وما عنَّت بل أغنت في معنى الآية الكريمة وأقتّت: وهي قوله تعالى: **(يا أيها الذين آمنوا ليبلونّكم الله بشيء من الصَّيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب)** [المائدة: ٩٤]

صحبني في الطّريق من المدينة على ساكنها الصَّلاة والسَّلام قاصدين إلى البيت الحرام أحدُ الشيوخ من شرفاء المدينة. فلمّا وافينا (رابغ) رأيت أمراً عجباً من تخلّل الوحش: الغزال والأرنب بين الجمال والرِّحال بحيث يناله الناس بأيديهم، والنّاس ينادون: حرام حرام. والجوارح قد سُلسلت خِيفَةَ تعدّي جاهل يعتسف المجاهل[١]، فقال في ذلك الشَّيخ الشَّريف: تأمّل ترَ عَجباً.

(١) اعتساف الطَّريق: السَّير فيه على غير هدى.
والمجاهل: جمع مَجْهل: الأرض لا يُهتدى فيها.

هكذا جرت عادتنا في هذا الطريق، يؤمّنا ونحن محرمون يمرّ به من الوحش ما ترى، فإذا عُدنا مُحلّين لم نجد به شيئاً. فلمّا عدنا كان كما قال. فبان لي معنى الآية الكريمة ما لم يكن غيّر بالمشاهدة. وكلام المفسّرين على الآية معلوم يصدق على ما تناله الأيدي كالبيض والفراخ مما لا يستطيع أن يفرّ، وما يُنال بالرماح ونحوها ككبار الصيد.

ثم رحلنا عنه منزلاً منزلاً إلى أن وافينا خُلَيْصاً يوم الأربعاء ضحوة الثالث من ذي حجّة. فَقِلْنا هناك ورفعنا عشيَّ النهار...

(الرحلة ٥/٧٥ -٧٦)

الوقوف بعرفة:

«ورأينا في تلك الليلة عجباً فيما ابتدعته العامّة من الاستعداد والاحتفال بوقد الشَّمع بطول تلك الليلة بالجبل القائم في وسط عرفات المعروف عند العرب القدماء بالإلال. وهو جبل مرتفع في أعلاه مسجد، تُنصب به رايات أمراء الرَّكْب، وقد صُنع له درج بالبناء من أمامه ومن خلفه، فيُرتَقى إليه على طريق، ويُنزل من أخرى، وربّما التقى فريق مع فريق فيغصّ الجبل بالصَّاعدين والنّازلين، وهو يتأجّج ناراً، ويتموّج بالبحر زخاراً، والطّرق إليه بالشُّموع في بسيط عرفات كالسُّطور المذهبات، تتَّصل به من كل الجهات، وأنت إذا نظرت إليه على بعد من الخيمات، تراه كشعلة واحدة وما يطول من الشَّمع كأنَّه ألسنٌ متعاضدة. فترى عجباً، صلداً عاد ذهباً أو صار لهباً..»

(الرحلة ٥/٨٧)

وصف ينبع:

وهذا الموضع المعروف بينبع، بفتح أوّله وسكون ثانيه بعده باء معجمة بواحدة مضمومة وعين مهملة، كذا قيّده أو عُبيد رحمه الله، والعامّة تقول: الينبوع، بزيادة واو وإلحاق أداة التعريف، وهي بُليدة حسنة كثيرة المياه

والخضر والبساتين. وهي بين مكّة والمدينة، وكانت من بلاد ضمرة قوم عزّة كُثَيّر، وقد ذكره كُثيِّر في شعره، وقد وصف غيثاً:

ومــــرّ فـــأروى يَنْبُعـــاً وجنوبَـــهُ وقـــد جيـــد منـــه جَيْـــدَةٌ فعبـــاثر

قال أبو عبيد البكري – رحمه الله – وينبع عن يمين رضوى، لمن كان منحدراً من المدينة إلى البحر، وهي قرية كبيرة وبها عيون عذاب غزيرة، زعم محمد بن عبد الحميد الصبّاح أن بها مئة عين إلاّ عيناً. ووادي ينبعَ يَليل يصبّ في غيقة، قال جرير:

نظرتْ إليكَ بمثـلِ عينـي مُغْـزِلٍ قُطعـتْ حبائلهـا بـأعلى يليـل

ويسكن ينبع الأنصار، وجُهينة وليث»

(الرحلة ٥/٢٧٨)

* * *

٦- القاسم التُّجِيبيّ

ترجمته: هو القاسم بن يوسف بن محمد بن علي التُّجِيبي السَّبتي، ولد بسبتة سنة ٦٧٠هـ / ١٢٧١م، ونشأ فيها، وحفظ القرآن بقراءاته المختلفة، ودرس كتب التفسير والحديث الشريف وعلومه المختلفة، والفقه والتصوّف، وعلوم العربية على مشايخ بلده[١]. ثم تنقّل بين مدن الأندلس والمغرب ومصر، والشَّام والحجاز. وأخذ عن علماء هذه الأمصار، وسجّل ما أخذه عنهم، فتوسّعت مداركه العلميّة، وأصبح من العلماء المشهورين.

توفي القاسم بن يوسف التجيبي سنة ٧٣٠هـ / ١٣٢٩م.

رحلته:

قام التُّجيبي برحلة لأداء فريضة الحج ولقاء العلماء، عرفت باسم «مستفاد الرِّحلة والاغتراب»، وذكر المؤرخون أنّها في ثلاثة مجلّدات ضخمة[٢]. غير أنَّ الذي وصل إلينا منها هو الجزء الثاني الذي يتحدّث فيه عن مدينة القاهرة وآثارها ومن لقيهم من العلماء فيها، ووصف الطريق منها إلى البلد الأمين. في حين لا يزال الجزآن الأول والثالث مفقودين، وهما يضمّان كلام الرحالة على بداية رحلته وطريقه إلى مصر، وتتمّة الرحلة وفيها حديث عن الحجاز وبيت المقدس والشَّام وطريق العودة إلى بلده.

---

(١) ذكرهم التُّجِيبي في برنامج شيوخه المطبوع.

(٢) ذكر ذلك ابن حجر العسقلاني في الدرر الكامنة، والتنبكتي في نيل الابتهاج.

قام الرّحالة التُّجِيبي برحلته سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٥م، وأدى فريضة الحج سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٧م، وبذلك يكون أمضى سنتين في رحلته من بلده إلى الحجاز، وكان حريصاً فيها على لقاء العلماء والشُّيوخ في البلاد التي كان يمرّ بها وينهل من علومهم المختلفة، وأمضى سنتين في طريق العودة.

ويتضمّن الجزء المطبوع من الرِّحلة، وهو الثَّاني، ترجمة للشُّيوخ الَّذين لقيهم في رحلته، ويذكر ما رواه عنهم، وما سمعه منهم بأسانيدهم، ويصف ما رآه في طريقه من معالم وآثار ومشاهد، وبعض الجوانب الاجتماعية من عادات وتقاليد ومذاهب مختلفة.

وتضمَّن، هذا الجزء ترجمة لعدد وافر من الشُّيوخ الأعلام الَّذين لقيهم في رحلته. فترجم في القاهرة لأحد عشر شيخاً، وفي قوص ترجم لشيخين هما البهاء القفطي وسعد الدين بن الصلاح. وترجم بمكّة لأحد عشر شيخاً من أهلها والمجاورين فيها. وتفاوتت تراجمهم في الطُّول.

ولم يغفل التُّجيبي وصف المشاهد والمقابر، فوصف في القاهرة روضة الإمام الشَّافعي(١)، وقبر ابني عبد الحكم(٢)، وقبر عثمان بن صلاح الدين الأيوبي(٣)، ووصف الجيزة، وأهراماتها(٤)، وأبا الهول(٥)، ومنية ابن خصيب(٦)، ووصف مدن أسيوط وأخميم(٧)، وقوص(٨)، وعيذاب(٩)، وجدّة(١٠).

---

(١) مستفاد الرحلة والاغتراب ١٤٣.
(٢) مستفاد الرحلة والاغتراب ١٤٥.
(٣) مستفاد الرحلة والاغتراب ١٤٥.
(٤) مستفاد الرحلة والاغتراب ١٦٤ -١٦٥.
(٥) مستفاد الرحلة والاغتراب ١٦٧.
(٦) مستفاد الرحلة والاغتراب ١٦٩.
(٧) مستفاد الرحلة والاغتراب ١٦٩.
(٨) مستفاد الرحلة والاغتراب ١٧٣.
(٩) مستفاد الرحلة والاغتراب ٢٠٥.
(١٠) مستفاد الرحلة والاغتراب ٢١٨.

وبسط القول في مكة[1] فوصف مسجدها، والكعبة، والحجر الأسود، والملتزم والحطيم، والحجر والميزاب، ومقام إبراهيم، وبئر زمزم، ومنى، ووصف بعض جبال مكّة، وعرض لمن لقيهم من علمائها.

اعتمد التُّجيبي الأسلوب المرسل في رحلته عموماً، فلم يُعن بالصنعة الفنّية إلاّ نادراً، حيث وردت بعض السَّجعات العفوية في أثناء حديثه عن مكان، أو التَّعريف بعلم من الأعلام.

فمن نماذج أسلوبه المرسل وصفه لمدينة عيذاب: «.. هذه البُلَيدة على ضفّة بحر القُلْزُم، وليست بالكبيرة القطر، ولا بالآهلة العامرة بالخلق، وأهلها قوم من البجّةِ، سود، والبُجَّةُ: من ولد حام بن نوح – عليه السلام – فيما يقال. وقيل: من ولد كوش بن كنعان بن حام، نزلوا بين بحر القُلزم والنّيل، فتشعّبوا هناك شعوباً، وملكوا ملوكاً، وقيل: بل هم من الحبشة، وقيل: بل هم قوم من فزارة، نفاهم أبو بكر الصِّديق – رضي الله عنه – فنزلوا عيذاب. وقيل غير ذلك، والله أعلم بحقيقة ذلك.

وأكثر بيوتها أخصاص، وفيها أدؤر يسيرة مجصّصة ابتناها التُّجّار المدعوّون بالأكارم، لينزلوا بها إذا وصلوا من (عَدَن) إليها، أو من (قوص)، أو من غيرها من البلاد، وربمّا ينزل فيها بعض الحجّاج إذا وجدها خالية منهم، ... وهي من أشدّ البلاد التي رأيناها حرّاً، لا يكاد أن يتنفّس فيها إلاّ ويخيّل إليه أن أحداً قد أمسك بأنفه، وكأن النار – نعوذ بالله منها – تلفح وجه الإنسان فيها. ومن العجب أن ماء بحرها حارٌّ أيضاً ...

.. وأهل هذه البليدة السَّاكنون بها ينصرفون عراةً رجالاً ونساءً، ولا يوارون شيئاً غير خرق زرق، أو جلود يسترون بها عوراتهم فقط،

---

(١) مستفاد الرحلة والاغتراب ٢٣٠ -٣٥٧.

وشعور نسائهم بادية، وثُديّهن، ويذكر أنّهم لا يعاقبون على الزّنى، نعوذ بالله من ذلك، ولا يعارون عليه»[1].

ومن نماذج أسلوبه المتصنّع الذي يعنى فيه بالسَّجع قوله في ترجمة ابن دقيق العيد: «... فمنهم إمام الأئمّة العالم العلم العامل الورع الكامل، نخبة الفضلاء علماً وحلماً، مظهر معاني العلوم استنباطاً وفهما، والمحتوي على عمدة أصولها وفروعها حفظاً وحكما، أبو الفتح محمّد بن الشَّيخ الفقيه الإمام الفاضل العالم مجد الدِّين أبي الحسن علي بن وهب بن مطيع بن أبي الطَّاعة القُشَيري النَّسب، المنفلوطي الأصل، اليَنْبُعيّ المولد، القوصي المَرْبى، القاهري المنزل، المنعوت بتقي الدين، المعروف بابن دقيق العيد..» [2].

غير أن الغالب على أسلوبه، الأسلوب المرسل، وقلّ أن يلجأ إلى الصنعة، وبذلك يخالف ذوق كتّاب عصره الذين أثقلوا كتاباتهم بالمحسنات اللفظية.

مختارات من الرحلة

وصف المارستان المنصوري بالقاهرة:

«.. وبهذه القاعدة العلّية مارستان[3] عظيم القدر، شهير الذِّكر، يتمصّر عنه أعظم قصر من قصور الملوك، مُعَدٌّ للمرضى وذوي العاهات، ابتناه الملك الأجَلُّ المجاهد قلاوون الصالحي، الملقّب بالمنصور – رحمه الله – ووقف عليه أموالاً عظيمة، ورتّب فيها الأطبّاء والخراج، ومن يعالج أمر المرضى، ويتفقّد أحوالهم بكرة وعشيّة، وجعل فيها من عقاقير الهند كثيراً ممّا لا يكاد يوجد إلاّ في خزائن الملوك وذخائرهم، رفقاً من الله تعالى بالمرضى في هذه المدينة، وفيه من الكسى والأغذية ما يناسب ذلك.

---

(١) مستفاد الرحلة والاغتراب ٢٠٥ -٢٠٦.

(٢) مستفاد الرحلة والاغتراب ١٦.

(٣) المارستان: المستشفى.

وعن يمين الداخل إليه روضة عظيمة، وضع فيها قبّة سامية في الهواء. مزخرفة بالذّهب الإبريز، ورتّب فيها طائفة من القرّاء، وجملة وافرة من أرباب العلوم، وأجرى لجميعهم أرزاقاً جمّة، من أوقاف عظيمة وقفها عليها...»

(مستفاد الرحلة والاغتراب ٤ -٥)

أبو الهول:

«... وبمقربة من هذه الأهرام الثلاثة رأس صورة من حجر صلد، هائل المنظر، على صورة رأس الإنسان، مقابل إلى الأهرام، وظهره إلى القبلة مهبط النِّيل، ويدعوه أهل مصر بأبي الأهوال، ذرع عنق هذا الرأس عرضاً وأنا أنظر إليه، فألفي فيه نحو تسعة أقدام، ويزعمون أنه طِلّسم[١] للرِّياح، وأنّه لو ذهب لأتلف الرّيح مصر، والله أعلم بحقيقة ذلك، وبما كان المراد به، وبما مرّ عليه من الدهور والعصور...»

(مستفاد الرحلة والاغتراب ١٦٧)

قبر حوّاء بجُدَّة:

«.. وعاينّا أيضاً بخارج هذه المدينة قبّة مبنيّة زعموا أنَّ بها قبرَ أم البشر حوّاء عليها السَّلام، وقد صوّر بداخلها صورة قبر، والنّاس يقصدون ذلك القبر للتَّبرّك بزيارته، ويرون أن الدُّعاء عنده مستجاب، وأهل العلم يأبون أن ذلك موضع قبرها، ويقولون: إنّما هو موضع نزولها من الجنّة، وإن كان ابن إسحاق – رحمه الله – قد نقل أن مهبط آدم وحوّاء – عليهما السلام - كان على جبل يقال له: (واشم) من أرض الهند، وقال: بين قرى الهند اليوم الدهنج والمندل، فقد ذكر غيره من أهل العلم ما ذكرت، ولعلّه أصح.

وقال بعض أهل العلم: أُهْبِطَ آدم عليه السلام بسرنديب من الهند بجبل يقال له: بوذ، وأهبطت حوّاء عليها السلام بجُدّة، وأُهبط إبليس بالأُبُلّة[٢]،

---

(١) الطِّلَّسْمُ: السِّرُّ المكتوم.

(٢) الأُبُلّة: بلدة على شاطئ دجلة في زاوية الخليج قرب البصرة.

وأهبطت الحيّة ببيسان[1] وقيل: بِسجستان، وسجستان أكثر بلاد الله تعالى حيّات، والله تعالى أعلم»

(مستفاد الرحلة والاغتراب ٢١٩)

بئر زمزم:

«.. هي زَمْزَمُ، وهو أشهر أسمائها، وزُمازِم، وزُمَزْمٌ، وبرّة، والمضنونة، وتُكْتُم، وهمزة جبريل بتقديم الميم على الزّاي، وهزمة جبريل – بتقديم الزاي على الميم – والهزمة: الغمرة بالعقب في الأرض، وشفاء منعم، وطعام طعم، وطيبة، وشراب الأبرار، ومكتومة، ومكنونة، والسُّقيا، والرّوى، وشبّاعة، وسقاية الحاج، وحفيرة عبد المطلب، وركضة جبريل عليه السلام.

وأشهر أسمائها زمزم – كما قدّمناه – وسمّيت بذلك من كثرة الماء، يقال: ماء زمزامٌ وزمزم للكثير، والزَّمْزَمة عند العرب: الكثرة والاجتماع. وقيل: بل من ضمّ هاجر لمائها حين انفجرت لها، وزمّها إيّاه، وقال ابن فارس اللغوي: زمزم من قولك زممت الناقة إذا جعلت لها زماماً تحبسها بها. وقال الحربيّ: سمّيت زمزم بزمزمة الماء، وهي صوته، وقيل: بل من زمزمة جبريل عليه السلام وكلامه عليها، وقيل: لأن الفُرس كانت تحجّ إليها قديماً في الزمن الأول وتزمزم عليها.

والزَّمزمة: صوت تخرجه الفُرس من خياشيمها عند شرب الماء، وبذلك كتب عمر – رضي الله عنه – إلى عمّاله أن انهوا الفرس عند الزمزمة.

وبئر زمزم الآن داخل المسجد الحرام، وكانت قديماً خارجه قبل أن يزاد فيه، وقد قدّمنا ذلك. وعليها قبّة عظيمة هائلة، وفيها صنعة عجيبة من قربصة الخشب، وقد تأنّق الصنّاع فيها أي تأنُّق، وقد قامت على أعمدة هائلة، وهي تقابل من الكعبة المعظمة المُلْتَزم والحجر الأسود، وركن القبّة خارج عن ركن الكعبة المشرّقة قليلاً، وبينهما أربع وعشرون خطوة...»

(مستفاد الرحلة والاغتراب ٣٠٢ -٣٠٣)

---

(١) بيسان: مدينة بفلسطين.

ليلة القدر في الحرم المكّيّ:

«ثمّ لما كانت ليلة سبع وعشرين من الشهر المذكور، وكانت ليلة القدر، أوقدت أركان صوامع المسجد الحرام بجملةٍ من السُّرُج، من كل جهة من جهاتها الأربع، وزيد في قناديل المسجد الحرام، وكثر في تلك الليلة إيقاد الشَّمع بكل جهة ومكان، وأحضر الأثير الأكرم ابن الأصبهاني صهر الصاحب الخليلي جملة منه، فأوقدها بإزاء باب بني شيبة للقرّاء المذكورين، وحضر ختمتهم في تلك الليلة – أعني ليلة سبع وعشرين المذكورة – واجتمع لحضور هذا الختم جمع كثير من المكّيين والقادمين عليهم، وكنت فيمن حضر، فلمّا ختموا صعد أحد المصريّين منبراً قد كان أُعدَّ له هناك، فلمّا استوى عليه اندفع بعض القرّاء يتلو بين يديه آيات من الكتاب العزيز.... وكثر الازدحام على سماع هذا الخطيب من الرِّجال والنِّساء، ثمّ لمّا خطب الخطيب المذكور خطبة بليغة مناسبة للشهر المبارك والبقعة الطَّاهرة، فلمّا فرغ من خطبته شرع في الدُّعاء للسَّيِّد الشَّريف (أبي نمي)، ورفع في نسبه العليّ إلى أمير المؤمنين أبي الحسن علي – رضي الله عنهم – وعند ذكره لهذا النَّسب الشَّريف أمر له السيّد (أبو نمي) المذكور بخلعة حسنة حريرية، وعمامة حريرية مصفّحة بالذَّهب، فدفع إليه جميع ذلك، وأمر بلباسها على المنبر ففعل والناس ينظرون إليه... ثم دعا الخطيب المذكور. وأمّن الحاضرون، وانفضّ الجمع..»

(مستفاد الرحلة والاغتراب ٤٦٠ -٤٦١)

* * *

٧- ابن بطوطة

ترجمته: هو أبو عبد الله، محمّد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرَّحمن بن يوسف اللَّواتي الطَّنجي، الملقّب بشمس الدين، والمعروف بابن بطّوطة(١).

ولد بطنجة يوم الاثنين ١٧ رجب سنة ٧٠٣هـ / ١٣٠٣م، في أسرة عرفت بالفضل والعلم، ونشأ في بلده، فأخذ العلوم الشَّرعيّة عن مشايخ بلده، ونبغ بين أقرانه.

رحل ابن بطوطة ثلاث مرّات(٢)، أشهرها رحلته الأولى المدوّنة (تحفة النظار في غرائب الأمصار). والمعروفة برحلة ابن بطوطة.

وكان الدافع إلى القيام بها هو الحج إلى البيت العتيق، وكان عمره آنذاك اثنتين وعشرين سنة.

توفي ابن بطوطة على الأغلب سنة ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م.

خط سير الرِّحلة:

انطلق ابن بطوطة من مدينة طنجة بالمغرب الأقصى في رجب سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٤م، فزار مراكش والجزائر وتونس وليبيا، ووصل إلى مصر

---

(١) الإحاطة ٢٧٣/٣ -٢٧٤، الدرر الكامنة ٤٨٠/٣ -٤٨١، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ٥/٥.

(٢) الأولى رحلته المعروفة، والثانية إلى إسبانيا بعد عودته، والثالثة إلى إفريقية واستمرت سنتين.

فنزل الإسكندرية وانتقل إلى القاهرة، ولم يتمكّن من السفر إلى الحجاز بحراً من عيذاب كما جرت العادة لخلاف حصل بين القائمين على المراكب والمماليك، فغادر إلى القاهرة، وسافر منها إلى الشام ورافق الرَّكْبَ الشَّامي إلى المدينة المنوّرة ومكّة فأدى فريضة الحج، ثم تابع رحلته إلى بلاد فارس والعراق والأناضول، ثم عاد إلى مكّة ثانية مروراً بالموصل وديار بكر، ثم انتقل إلى اليمن وعُمان والبحرين والأحساء، وعاد إلى مكة مرّة ثالثة.

ومن ثم قصد مصر ثم غادرها إلى فلسطين فالأناضول فشبه جزيرة القرم حيث أبحر إلى القسطنطينية برفقة الخاتون زوجة السلطان (أوزبك خان)، ثم غادر إلى الهند عبر بخارى وخوارزم وخراسان وكردستان وأفغانستان، وفي دلهي شغل أحد مناصب القضاء، وهناك أرسله السلطان إلى ملك الصين مع وفد يحمل هدايا إليه، فهبّت عاصفة على المركب فأغرقته، ولم يعد ابن بطوطة إلى السلطان الهنديّ، بل أقام في إحدى الجزر قرابة سنة ونصف تولى فيها القضاء.

ثم قصد الصين لما سمعه عنها من غرائب، فمرّ بسيلان والبنغال وشبه جزيرة الملايو، ومن هناك عبر إلى جزيرة سومطرة، ثم اتجه إلى بلاد فارس فالعراق فسوريا فمكّة للمرّة الرابعة، ثم عاد إلى وطنه عبر مصر وتونس والجزائر، فوصل إلى بلده طنجة سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م، ثم تحوّل إلى فاس حيث بلاط السلطان أبي عنان المريني، وهناك قصّ ابن بطوطة أخبار رحلته فأثار إعجاب السلطان بها، فأوعز إلى كاتبه ابن جُزَيّ الكلبي أن يدوّن ما يرويه ابن بطوطة في كتاب، فكانت الرِّحلة التي بين أيدينا.

مضمون رحلة ابن بطوطة:

تحقّق لابن بطوطة في رحلته الجانب السياحي، والروحي والعلمي، وكان يولي اهتمامه بالجانب العجائبي، والاجتماعي، فكان شديد الاهتمام بالنَّاس وعاداتهم وتقاليدهم ولاسيما العلماء والأولياء، في حين كان قليل الاهتمام بوصف المدن والأرض.

ومن الموضوعات الاجتماعية التي أعجب بها ابن بطوطة في دمشق كثرة الأوقاف التي شملت مختلف الشؤون الاجتماعية[١]، أما في بخارى فلفت نظره شواهد القبور التي نقش عليها أسماء علمائها وأسماء الكتب التي ألّفوها[٢].

ومن الجوانب الاجتماعية التي أثارت استغرابه في الصين والهند إحراق الموتى[٣]، ولاحظ إقبال أهل آسيا الصغرى على شرب النَّبيذ دون حرج، لأنّهم يعتنقون المذهب الحنفي الذي يبيح شرب النبيذ[٤]. ويشير إلى المكانة العالية التي احتلتها المرأة في المجتمع[٥].

وحظيت بعض الجوانب الاقتصادية باهتمام ابن بطوطة فأشار إلى ادّخار أهل الصِّين الذَّهب على شكل سبائك[٦]، واستخدامهم الأوراق النقدية المصنوعة من الكاغد في البيع والشراء[٧]، وبراعتهم في صناعة الفخار الصيني، وإتقانهم فن التصوير[٨].

ومما يميز ابن بطوطة تعداده لأنواع السفن والمراكب[٩]، ووصفها، وعدد بحّارتها، والعادات المرعيّة فيها، وكذلك شؤونها الإدارية والماليّة. كما وصف طريقة استخراج اللؤلؤ، وهيئة الغواصين[١٠].

---

(١) رحلة ابن بطوطة ١١٨/١ وما بعد.

(٢) الرحلة ٤١٠/١.

(٣) الرحلة ٤٦٩/٢ و٧١٨.

(٤) الرحلة ٣٦١/١ و٣٧٨.

(٥) الرحلة ٢٤٨/١ و٣٦٥.

(٦) الرحلة ٧١٩/٢.

(٧) الرحلة ٧٢٠/٢.

(٨) الرحلة ٧١٩/٢ -٧٢٠.

(٩) الرحلة ٢٤٦/١ و٣١٢/١.

(١٠) الرحلة ٣٠٤/١.

ورحلة ابن بطوطة أقرب ما تكون إلى المذكرات التي دوّن فيها كل ما مرّ به من أحداث وأحوال، واهتم صاحبها بالجانب السِّياحي والجغرافي، ولم يغفل ذكر العلماء الذين صادفهم في طريقه، ومجالس العلم التي كان يحضرها، فذكر العلماء الذين لقيهم بتونس ومصر، ودمشق ومكّة والمدينة، وبغداد.

وتتسم الرحلة ببعض الاختلاط في المعلومات، ما أثار الشكّ في صحّة ما رواه ابن بطوطة، ولعل ذلك بسبب إملاء الرحلة من الذَّاكرة، فلم يكن من السَّهل تَذَكُّر أحداثها مرتّبة منظّمة.

ويلفت النظر بعض المبالغات التي وردت في الرحلة، ولاسيما عند حديثه عن الأولياء والصالحين وكراماتهم، أو تلك المتعلقة بالسِّحر والشَّعوذة، وقد يُعزى ذلك إلى نقله بعض القصص الشَّعبي، ووقوعه تحت تأثير ما كان يروج بين النَّاس من قصص وحكايات ونقلها من دون تحقق أو تثبّت.

أسلوب الرحلة:

كان ابن بطوطة عموماً حريصاً على تأدية المعاني، فابتعد عن الاعتناء بزخرفة الأسلوب وتنميقه على حساب الفكرة، إلا أنه كان يلجأ أحياناً إلى تحسين الكلام باختيار عباراته، وتزيينها ببعض السَّجعات التي تأتيه عفو الخاطر دون قصد، ولم تكن تسيء إلى أسلوبه كقوله في وصف شيراز: «.. هي مدينة أصيلة البناء، فسيحة الأرجاء، شهيرة الذكر، منيفة القدر، لها البساتين المونقة والأنهار المتدفّقة، والأسواق البديعة، والشوارع الرفيعة، وهي كثيرة العمارة، متقنة المباني، عجيبة التّرتيب، وأهل كل صناعة في سوقها لا يخالطهم غيرهم، حسان الصور، نظاف الملابس، ليس في المشرق بلدة تداني مدينة دمشق في حسن أسواقها وبساتينها وأنهارها، وحسن صور ساكنيها إلا شيراز»[١].

---

(١) الرحلة ٢٢٣/١.

فالكاتب يعنى باختيار ألفاظه وتنقيح عبارته، من دون الانسياق وراء الأسجاع المتكلّفة، وسرعان ما يتحرّر من السجع، ويعود إلى الأسلوب المرسل الذي يتّسم بالعفوية والوضوح.

ومما يلفت النظر أن ابن بطوطة كان يشفع بعض الألفاظ الغريبة، أو الأعجميّة، أو المحلّية بشروحها أو بما يوضح المراد منها كقوله[١]: «.. وولدا الأمير هما شقيقان، والأكبر منهما اسمه تين بك، و«بك» معناه الأمير، و«تين» معناه الجسد، فكأن اسمه أمير الجسد، واسم أخيه «جان بك» ومعنى «جان» الروح فكأنه يسمّى أمير الروح....».

وقد يوضح بعض الجمل الفارسيّة كقوله[٢]: «ويقولون بلسانهم: خرما وماهي لوت بادشاهي، معناه بالعربي: التَّمر والسَّمك طعام الملوك».

وقال يصف إحراق امرأة من الهنود لنفسها: «فرأيت إحداهنّ لما وصلت إلى تلك الملحفة نزعتها من أيدي الرجال بعنف وقالت لهم: ماواميترا ساني أزاطش من ميدانم أواطش است رهاكني مارا وهي تضحك، ومعنى هذا الكلام: أبالنار تخوّفونني؟ أنا أعلم أنها نار محرقة»[٣].

فكأن ابن بطوطة يريد أن يخبرنا بمعرفته بلغات البلاد التي مرّ بها.

وحظيت رحلة ابن بطوطة بعناية الباحثين مستشرقين وعرباً واشتغلوا بها ترجمة وتلخيصاً ودرساً، وطبعت مرات كثيرة في المشرق والمغرب.

---

(١) الرحلة ٣٧٢/١.
(٢) الرحلة ٢٩٩/١ وانظر ٣٤٠/١.
(٣) الرحلة ٤٧١/٢.

مختارات من رحلة ابن بطوطة

أوقات دمشق:

«.. والأوقاف بدمشق لا تُحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها، فمنها أوقاف على العاجزين عن الحجّ يُعطى لمن يحجّ عن الرجل منهم كفايته، ومنها أوقاف على تجهيز البنات إلى أزواجهنّ، وهنّ اللواتي لا قدرة لأهلهنّ على تجهيزهنّ. ومنها أوقاف لفكاك الأسارى. ومنها أوقاف لأبناء السَّبيل، يُعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزوّدون لبلادهم، ومنها أوقاف على تعديل الطُّرق ورصفها، لأن أزقّة دمشق لكل واحد منها رصيفان في جنبيه يمرّ عليها المترجّلون، ويمرّ الركبان بين ذلك. ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير. مررت يوماً ببعض أزقّة دمشق فرأيت به مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصيني، وهم يسمّونها الصَّحن، فتكسّرت، واجتمع عليه النَّاس، فقال له بعضهم: اجمع شقفها واحملها معك لصاحب أوقاف الأواني، فجمعها، وذهب الرَّجل معه إليه، فأراه إيّاها، فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن. وهذا من أحسن الأعمال، فإن سيّد الغلام لابدّ له أن يضربه على كسر الصحن أو ينهره، وهو أيضاً ينكسر قلبه ويتغيّر لأجل ذلك، فكان هذا الوقف جبراً للقلوب...»

(**رحلة ابن بطوطة** ١١٨/١)

وصف أهل زبيد باليمن:

«.. ولأهلها لطافة الشمائل، وحسن الأخلاق، وجمال الصُّور، ولنسائها الحسن الفائق الفائت، وهي وادي الخصيب الذي يُذكر في بعض الآثار أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال لمعاذ في وصيته: «يا معاذ إذا جئت وادي الخصيب فهرول». ولأهل هذه المدينة سبوت النّخل المشهورة، وذلك أنّهم يخرجون في أيام البسر والرُّطب في كلّ سبت إلى

حدائق النّخل ولا يبقى بالمدينة أحد من أهلها، ولا من الغرباء، ويخرج أهل الطَّرب وأهل الأسواق لبيع الفواكه والحلاوات، وتخرج النِّساء ممتطيات الجمال في المحامل، ولهنّ مع ما ذكرناه من الجمال الفائق والأخلاق الحسنة والمكارم، وللغريب عندهن مزيّة، ولا يمتنعن من تزوّجه كما يفعله نساء بلادنا، فإذا أراد السَّفر خرجت معه وودّعته، وإن كان بينهما ولد فهي تكفله وتقوم بما يجب له إلى أن يرجع أبوه، ولا تطالبه في أيّام الغيبة بنفقة ولا كسوة ولا سواها. وإذا كان مقيماً فهي تقنع منه بقليل النفقة والكسوة، لكنهنّ لا يخرجن عن بلدهنّ أبداً، ولو أعطيت إحداهن ما عسى أن تُعطاه على أن تخرج من بلدها لم تفعل..»

(الرحلة ٢٧٢/١ -٢٧٣)

مَغاص اللؤلؤ:

«.. ومغاصُ الجوهر فيما بين سيراف والبحرين في خور[١] راكد مثل الوادي العظيم، فإذا كان شهر إبريل وشهر مايو تأتي إليه القوارب الكثيرة. فيها الغوّاصون وتُجّار فارس والبحرين والقطيف. ويجعل الغَوّاص على وجهه مهما أراد أن يغوص شيئاً يكسوه من عظم الغيلم وهي السّلحفاة، ويصنع من هذا العظم أيضاً شكلاً شبه المقراض يشدّه على أنفه، ثم يربط حبلاً في وسطه ويغوص. ويتفاوتون في الصَّبر في الماء، فمنهم من يصبر السَّاعة والسَّاعتين[٢] فما دون ذلك، فإذا وصل إلى قعر البحر يجد الصَّدف هنالك فيما بين الأحجار الصِّغار مثبتاً في الرمل، فيقتلعه بيده، أو يقطعه بحديدة عنده مُعدَّة لذلك، ويجعلها في مخلاة جلد منوطة بعنقه، فإذا ضاق نَفَسه حرّك الحبلَ، فيحسّ به الرجل الممسك للحبل على السَّاحل فيرفعه إلى القارب فتؤخذ منه المخلاة ويفتح الصدف، فيوجد في أجوافها قطع لحم تقطع بحديدة، فإذا باشرت الهواء جمدت فصارت

---

(١) الخور: الخليج في البحر.

(٢) هذه مبالغة واضحة، فالإنسان لا يستطيع البقاء تحت الماء إلا دقائق معدودة.

جواهر[1]. فيُجمع جميعها من صغير وكبير، فيأخذ السُّلطان خُمسَه، والباقي يشتريه التّجار الحاضرون بتلك القوارب، وأكثرهم يكون له الدَّين على الغواصين، فيأخذ الجواهر في دَيْنه أو ما وجب له منه».

(الرحلة ٣٤/١)

إحراق الهنود موتاهم:

«.. ولما انصرفت عن هذا الشيخ رأيت الناس يهرعون من عسكرنا ومعهم بعض أصحابنا، فسألتهم ما الخبر؟ فأخبروني أنَّ كافراً من الهنود مات، وأُجِّجَت النَّار لحرقه. وامرأته تحرق نفسها معه، وبعد ذلك كنت في تلك البلاد أرى المرأة من كفّار الهنود متزيّنة راكبة، والنَّاس يتبعونها من مسلم وكافر، والأطبال والأبواق بين يديها، ومعها البراهمة: وهم كبراء الهنود، وإذا كان ذلك ببلاد السلطان استأذنوا السلطان في إحراقها، فيؤذن لهم فيحرقونها... وإحراق المرأة بعد زوجها عندهم أمر مندوب غير واجب، ولكن من أحرقت نفسها بعد زوجها أحرز أهل بيتها شرفاً بذلك، ونُسبوا إلى الوفاء، ومن لم تحرق نفسها لبست خشن الثياب، وأقامت عند أهلها بائسة ممتهنة لعدم وفائها، ولكنها لا تُكره على إحراق نفسها».

(الرحلة ٤٦٩/٢ -٤٧٠)

براعة أهل الصين في التصوير:

«وأمَّا التَّصوير فلا يجاريهم أحد في إحكامه من الرُّوم ولا سواهم، فإن لهم فيه اقتداراً عظيماً. ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك، أنّي ما دخلت قطّ مدينة من مدنهم ثم عدت إليها، إلاّ ورأيت صورتي وصورة أصحابي منقوشة في الحيطان والكواغد[2]، موضوعة في الأسواق. ولقد دخلت إلى مدينة السُّلطان

---

(١) هذا غلط واضح، فالجوهرة تتوضع داخل الصدفة.

(٢) الكواغد جمع الكاغد وهو الورق.

فمررت على سوق النقّاشين، ووصلت إلى قصر السلطان مع أصحابي ونحن على زيّ العراقيين، فلمّا عدت من القصر عشيّاً مررت بالسُّوق المذكورة، فرأيت صورتي وصور أصحابي منقوشة في كاغد قد ألصقوه بالحائط. فجعل الواحد منا ينظر إلى صورة صاحبه، لا تخطئ شيئاً من شبهه. وذكر لي أن السلطان أمرهم بذلك، وأنّهم أتوا إلى القصر ونحن به، فجعلوا ينظرون إلينا ويصورون صورنا ونحن لم نشعر بذلك، وتلك عادة لهم في تصوير كل من يمرّ بهم. وتنتهي حالهم في ذلك إلى أنَّ الغريب إذا فعل ما يوجب فراره عنهم، بعثت صورته إلى البلاد وبُحث عنه، فحيثما وجد شبه تلك الصورة أخذ»

(الرحلة ٧٢٠/٢)

المشعوذون في الصين:

«وفي تلك الليلة حضر أحد المشعوذة، وهو من عبيد القان، فقال له الأمير: أرنا من عجائبك، فأخذ كرة خشب لها ثقب فيها سيور طوال، فرمى بها إلى الهواء فارتفعت حتى غابت عن الأبصار، ونحن في وسط المشور أيّام الحرّ الشديد، فلمّا لم يبق من السَّيْر في يده إلاّ يسير، أمر متعلّماً له فتعلّق به وصعد في الهواء إلى أن غاب عن أبصارنا، فدعاه فلم يجبه ثلاثاً، فأخذ سكّيناً بيده كالمغتاظ، وتعلّق بالسير إلى أن غاب أيضاً. ثم رمى بيد الصّبيّ إلى الأرض، ثم رمى برجله، ثم بيده الأخرى، ثم برجله الأخرى، ثم بجسده، ثم برأسه، ثم هبط وهو ينفخ وثيابه ملطّخة بالدم. فقبّل الأرض بين يدي الأمير، وكلّمه بالصّيني، وأمر له الأمير بشيء، ثمّ إنه أخذ أعضاء الصَّبي فألصق بعضها ببعض، وركضه برجله فقام سويّاً، فعجبت منه، وأصابني خفقان القلب كمثل ما كان أصابني عند ملك الهند حين رأيت مثل ذلك، فسقوني دواء أذهب عنّي ما وجدت، وكان القاضي فخر الدين إلى جانبي، فقال لي: والله ما كان من صعود ولا نزول ولا قطع عضو، وإنّما شعوذة..»

(الرحلة ٧٣٠/٢ -٧٣١)

* * *

٨- القَلَصَاديّ

ترجمته: هو أبو الحسن، عليّ بن محمّد بن محمّد بن عليّ القرشي البَسْطِيّ، الشَّهير بالقلصاديّ[(١)].

ولد بمدينة بَسْطة الأندلسيّة شمال شرق غرناطة سنة ٨١٥هـ/١٤١٣م أو قبلها بقليل، ونشأ في بلده ذات الطبيعة الجميلة، وتلقّى دراسته الأولى على مشايخها، فأخذ عنهم علوم القرآن والحديث، وفروع الفقه، وقواعد العربية والحساب الذي له صلة وثيقة بالفرائض.

تردّد في أثناء إقامته ببسطة على غرناطة عاصمة مملكة بني الأحمر.

وعندما بلغ الخامسة والعشرين من عمره رحل في طلب العلم إلى المغرب والمشرق ليتزوّد من العلم والمعرفة، فاتّجه أولاً إلى تلمسان ولقي أهم مشايخها وأخذ العلم عنهم.

حظي القلصادي بشهرة واسعة في تلمسان فتصدّى للتدريس، وكان يحضر دروسه عددٌ غفير من الطلبة يدرسون عليه بعض الكتب التي ألّفها.

ثم انتقل إلى تونس الَّتي كانت مركزاً علمياً مرموقاً، و«كانت سوق العلم حينئذ نافقة، وينابيع العلوم على اختلافها مغدقة»[(٢)] ، فالتحق القلصادي بمجالس علمائها وأخذ عنهم علماً وافراً، وعمل في الوقت نفسه في التَّدريس،

---

(١) البستان لابن مريم ١٤١، نفخ الطيب ٦٩٢/٢، شجرة النور الزكية ٢٦١، نيل الابتهاج ٣٣٩، الأعلام للزركلي ١٠/٥، فهرس الفهارس ٩٦٢/٢، ومقدمة الرحلة للدكتور محمد أبو الأجفان وكانت المعوّل في ترجمة الرجل.

(٢) رحلة القلصادي ١١٥.

ثم رحل إلى القاهرة عبر جربة فطرابلس الغرب فالإسكندرية، وأقام بالقاهرة ستة أشهر في الذَّهاب، وأكثر من ثلاثة عشر شهراً في العودة أمضاها في القراءة والإقراء.

أما في البقاع المقدّسة فقد اشتغل القلصادي بتأليف كتاب في الفرائض وهو «شرح فرائض ابن الحاجب»، وروى الحديث الشَّريف عن بعض شيوخها.

وبعد هذه الرحلة التي استمرت خمس عشرة سنة، وجنى فيها صاحبها أطيب الثِّمار العلميَّة وخالط أقطاب عصره في المغرب العربي والمشرق، رجع إلى بلده بسطة، ثم انتقل إلى غرناطة فأقام فيها مشتغلاً بالتَّدريس والتَّأليف. إلى أن استشعر بالخطر الذي عصف بوطنه، فرحل إلى باجة إفريقية سنة ٨٨٨هـ/١٤٨٣م حيث واصل نشاطه العلمي فيها إلى أن توفّاه الله سنة ٨٩١هـ/١٤٨٦م ودفن فيها.

خلف القلصادي مصنّفات عديدة في الرياضيات، والفرائض، والفقه، والنحو، والعروض والمنطق، والقراءات والحديث(١).

رحلة القلصادي:

وسِمَت الرحلة بـ (تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب)، وبَيَّن القلصادي الغاية من القيام بها في مقدّمتها فقال: «الحمد لله الذي جعل طلب العلم واجباً على البعض من المسلمين... وفرض الحجّ على المستطيع من المؤمنين.. ثم سُنَّت العمرة وزيارة نبيّه عليه الصَّلاة والسَّلام تشريفاً له وتعظيما..»

فقد بين المؤلّف أنَّ الذي حفزه على الرِّحلة أمران: أداء فريضة الحج وما يتبعها من عمرة وزيارات، وطلب العلم والاستزادة منه.

---

(١) الرحلة ٤٤ -٤٧.

كما كان يهدف من تأليفها التَّعريف بمشايخه الَّذين أخذ عنهم العلوم المختلفة، فالرِّحلة إذن حجازية علميّة.

يبدأ القلصادي رحلته بمقدّمة موجزة يشرح فيها الهدف من تأليف رحلته، ثم يذكر مشايخه الذين أخذ عنهم ببَسطة، وما أخذ عن كلٍّ واحد منهم، فذكر ستة نفر هم:

١ - علي بن عزيز، ٢ - محمد القسطرلي،

٣ - أبو بكر البياز، ٤ - أبو عبد الله محمد البيساني،

٥ - جعفر بن أبي يحيى، ٦ - علي اللخمي.

ثم وصف مدينة بسطة فحلاّها بأجمل الصِّفات، ثم انتقل منها إلى مدينة وهران فتلمسان فتونس فجربة فطرابلس فالإسكندرية فالقاهرة فالطّور فينبع فرابغ فجدّة، ثم وصل إلى مكّة فقام بمناسك العمرة والتقى بعدد من أصحابه، وزار بعض المعالم كجبل ثور، وغار حِراء، ومنى، وديار الصَّحابة ومقابرهم، ثم عاد إلى مصر وأخذ عن بعض شيوخها، ثم رحل إلى الإسكندرية وركب السَّفينة إلى برقة، ومنها إلى طرابلس فتونس فوهران فتلمسان، ومنها رحل إلى المريَّة، ومنها عاد إلى بلده بسطة.

تتّسم رحلة القلصادي بالإيجاز، فهو لا يطنب في الوصف، ولا يقف عند الجزئيَّات، ولا يتوسّع في ذكر الأحداث، وفي خصائص البلدان التي زارها، وفي الأمور الاجتماعية، وهذا يفسّر صغر حجم الرِّحلة بالقياس إلى غيرها من الرِّحل الحجازية.

ويهتمّ القلصادي بالتأريخ لأحداث الرحلة ولاسيما عند وصوله إلى الأماكن المقدّسة، وعند قيامه بمناسك الحج والعمرة التي يفصّل فيها، ويهتم بذكر مشاهداته في الأماكن المقدسة أكثر من اهتمامه بمشاهداته في غيرها من الأماكن.

وعني القلصادي بالتَّرجمة لشيوخه الذين بلغ عددهم ثلاثة وثلاثين، وجاءت تراجمهم متفاوتة في الطُّول، غير أنَّ الإيجاز غالب عليها لأنه لا يذكر أطوار حياتهم، ولا شيوخهم ومصنّفاتهم، بل كان يكتفي بذكر ما أخذه عنهم، ويحلّيهم ببعض الأوصاف التي تبيّن قيمتهم العلمية ومكانتهم الاجتماعية، ويذكر الكتب التي قرأها عليهم.

ونظراً إلى أهمية الرحلة – على صغر حجمها – فقد اعتمد عليها عدد من المؤلِّفين[1] فنقلوا عنها تراجم الشُّيوخ الذين ذكرهم القلصادي، وأسماء بعض الكتب التي ذكرها في رحلته.

وللرِّحلة أهمية وثائقيّة كبيرة لأنّها تصوّر لنا نشاط العلماء، وطرائق تدريسهم، والكتب التي كانوا يتداولونها، وفنون المعرفة التي كانت رائجة آنذاك.

أما أسلوب القلصادي في رحلته فقد تراوح بين الأسلوب المتصنّع المزيّن بالسَّجع، والأسلوب المرسل البعيد عن التكلّف.

نماذج من رحلة القلصادي

ترجمة شيخه أبي عبد الله محمد البيّاني:

«ومنهم الشيخ الفقيه الوجيه الخطيب سيدي أبو عبد الله محمد البياني، قرأت عليه رسالة الشيخ ابن أبي زيد وأواخر ألفية ابن مالك، والنصف الأول من الإيضاح للفارسي، وحضرت عليه عدّة كتب في الفقه والعربية وغيرها.

وتوفي أواخر شوال عام ستة وسبعين وثمان مئة».

(رحلة القلصادي ٨٥)

---

(١) منهم المقّري في النفح والأزهار، والتُّنْبُكتي في نيل الابتهاج، وابن مريم في البستان، ومحمد مخلوف في شجرة النور الزكية.

وصف مدينة بسطة:

«.. دار تخجل منها الدُّور، وتتقاصر عنها القصور، وتقرّ لها بالقصور، مع ما حوته من المحاسن والفضائل، من صحّة أجسام أهلها، وما طبعوا عليه من كرم الشَّمائل، لهوائها الصَّحيح وفضائها الفسيح، وبحسبك فيها عدم الحرج، لأنَّ داخلها باب الفرج.

ولذلك قال فيها ابن الخطيب: إنها محل خصيب، ومنزل حبيب، وكفاها بمسجد الجنّة دليلاً على البركة، وبباب المسك دليلاً على الطِّيب، ولها من اسمها نصيب، إذ هي بحر الطعام، وينبوع العيون المتعدّدة بتعدّد أيام العام».

(رحلة القلصادي ٩٢ -٩٣)

القيام بمناسك العمرة:

«وحين أشرفنا على الكعبة الشريفة، رأينا ما يُدهش النَّاظر، ويحيّر الفكر والخاطر، بما خصّها الله تعالى به من الهيبة والتَّعظيم، فطُفنا بها سبعاً، وصلينا الرّكعتين في مستقرّ الأمن والأمان، مقام أبينا إبراهيم عليه السّلام، ثم خرجنا من باب الصَّفا إلى الصَّفا، وسعينا سبعاً، وقد تمّت العمرة بالحِلاق».

(رحلة القلصادي ١٣٢ -١٣٣)

* * *

الفصل الثاني

رحلة العَبْدريّ

١- ترجمة صاحب الرحلة:

لم تفصح المصادر القديمة عن حياة العَبْدريّ، فقد أهمله أصحاب كتب التَّراجم والطَّبقات والفهارس، وأقدم من ترجم له – فيما نعلم – ابن القاضي المكناسي في كتاب جذوة الاقتباس، غير أنّ هذه الترجمة جاءت مختصرة لا تكاد تفيد كثيراً، فهي لا تذكر تاريخ ولادته، ولا زمن وفاته، ولا تفصّل في أخبار نشأته. ويبدو أن ابن القاضي استمدّ ترجمة العبدري من رحلته، وكذلك فعل من جاء بعده وترجم للعبدري، فالرحلة – فيما نظنّ – هي المصدر الرّئيسي الذي أخذ عنه كلّ الذين ترجموا للمؤلِّف، ولولاها لضاع ذكر العبدري فيما ضاع من تراث هذه الأمّة.

وثمّة احتمال أن يكون ابن عبد الملك المرّاكشيّ ترجم للعبدري ترجمة وافية في كتابه «الذيل والتكملة» لما كان بينهما من علاقة وطيدة إذ «يبدو أنه جمعت بينهما بعض حلقات الدرس في مراكش، ولاسيما حلقة شيخهما قاضي الجماعة بمرّاكش أبي عبد الله محمد بن علي بن يحيى المدعو بالشريف»[(١)] ونجد العَبْدريّ يذكر ابن عبد الملك بقوله: «صاحبنا الفقيه الأديب الأوحد»[(٢)] ويصف كتابه بالإتقان والإفادة، ولكن هذا الاحتمال يبقى رهناً بعثورنا على الجزء الخاص الّذي ترجم فيه للمحمّدين، وهو لا يزال في ذمة الأيام.

ولذلك كان لزاماً علينا أن نسعى وراء الأخبار وما استسّر من دلالاتها لنجمع ترجمة أقرب ما تكون إلى الصَّواب لهذا الأديب.

---

(١) مقدمة الدكتور ابن شريفة للسفر الثامن من كتاب الذيل والتكملة ٨ -٤٢/١.
(٢) الرحلة ٣٠٢.

والعَبْدريّ كما جاء في صدر مخطوطات رحلته: محمّد بن محمّد بن عليّ بن أحمد ابن سعود[1]، وينتهي نسبه إلى عبد الدَّار بن قُصَيّ بن كلاب وإليه نسبته: العَبْدريّ[2].

---

(١) يرجع في ترجمة العبدري إلى المصادر والمراجع الآتية:
- الأعلام للزركلي ٣١/٧ -٣٢.
- الأعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام للمراكشي ٢٨٧/٤ -٣٣٠.
- أعلام الجغرافيين العرب للدكتور عبد الرحمن حميدة ٤٠٢ -٤٠٣.
- تاريخ العروس: عبدر.
- تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ٣٦٧/١.
- تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٤٨٢/١.
- تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ٢٢٣/٣.
- تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس للدكتور حسين مؤنس ٥١٨.
- تاريخ الفكر الأندلسي لجنثالث بالنثيا ٣١٨ -٣١٩.
- الجغرافية والرحلات عند العرب لنقولا زيادة ١٧١ -١٨٠.
- الجغرافيون العرب لمصطفى الشهابي ٨٦ -٨٨.
- جذوة الاقتباس لابن القاضي ٢٨٦ -٢٨٨.
- حوليات الجامعة التونسية العدد الرابع سنة ١٩٦٧ مقال للشاذلي بو يحيى.
- دائرة المعارف الإسلامية بالإنكليزية ٩٦/١ مقال محمد بن شنب.
- دليل مؤرخ المغرب لعبد السلام بن سودة ٣٨٠.
- الذيل والتكملة ٤٢/١/٨ مقدمة الدكتور محمد بن شريفة.
- الرّحالة العرب لنقولا زيادة ١١٧ -١٢٠.
- الرّحالة المسلمون في العصور الوسطى لزكي محمد حسن ١٣٢.
- الرحلة والرحالة المسلمون للدكتور أحمد رمضان أحمد ٣٤٧ -٣٥٣.
- شجرة النور الزكية ٢١٧/١.
- فهرس الفهارس للكتّاني ٨٠٩/٢.
- مجلة دعوة الحق السنة الخامسة العدد ٤٩/٢ والعدد ٤١/٤ مقال للأستاذ عبد القادر زمامة.
- مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد المجلدان ٩ و١٠ سنة ١٩٦١ -١٩٦٢ مقال للأستاذ محمد الفاسي صفحة ١٤/١.
- مجلة المناهل العدد ١٢٥/٥ مقال الدكتور شوقي عطا الله الجمل.
- مجلة المناهل العدد ٤٨/١٠ مقال الدكتور عباس الجراري.
- مجلة هسبرس تمودا العدد ١١ سنة ١٩٧٠ صفحة ٢٥٣ -٢٥٤ مقال للأستاذ محمد زنيبر بالفرنسية.
- المحاضرات الثقافية الأسبوعية لسنة ١٩٦٩، ١/١ -٣٦.
- معجم المؤلفين لكحالة ٢٤٤/١١ و٣/١٢.
- المشرق في نظر المغاربة للدكتور صلاح المنجد ٧١ وما بعد.
- المؤنس لابن أبي دينار ١٨.
- النقد الأدبي في المغرب العربي للدكتور عبد العزيز قليقلة ٢٩٤ -٣٢٢.
- الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى لمحمد بن تاويت ٣٩٢ -٤٠١.

(٢) الأنساب ٣٤٩/٨، واللباب في تهذيب الأنساب ٣١٢/٢.

أمّا أصله فقد تناقضت الآراء فيه، فبعض الباحثين[1] ممن ترجموا له يعدّونه أندلسيّاً هاجر من الأندلس إبّان اشتعالها بالحروب والفتن، واستقر في حاحة على شاطئ المحيط الأطلسي.

وبعضهم[2] يرى أن أسرة العَبْدريّ كانت تقطن في بَلَنْسية ثم هاجرت إلى المغرب، وأقامت فيه، وثمّة كانت ولادة المؤلف.

ولعل هذه النشأة للعبدري في حَاحَة هي التي حملت الأستاذ الفاسي على القول: إنّ العبدريّ مغربيّ لا أندلسي[3].

وليس بين أيدينا ما يرجّح أحد القولين، وإنْ كنا لا نلمس في رحلته ولا في شعره ذكراً للأندلس يدلّ على تعلّق العَبّدري فيها، في حين كان يذكر مَرَّاكُش على أنها موطنه، فأجاب عندما سئل عن بلده بأنها مَرّاكُش[4].

وإذا نظرنا إلى تراجم العبدريين في المصادر الأدبية وكتب التراجم المختلفة، فإننا نجد أن موطنهم بَلَنْسية[5]. ومن هنا أتته نسبة البَلَنْسيّ،

---

(١) منهم: بروكلمان ٤٨٢/١ – وبالنثيا في تاريخ الفكر الأندلسي ٣١٨. وجرجي زيدان ٢٢٣/٣ والأستاذ أحمد بن جدو في مقدمة طبعة الجزائر صفحة هـ - والدكتور عمر فروخ في تاريخ الأدب العربي ٤٠١/٦.

(٢) منهم: كراتشكوفسكي في الأدب الجغرافي ٣٦٧/١ – والدكتور زكي محمد حسن في كتابه الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ١٣٢، والدكتور نقولا زيادة في الجغرافية والرحلات عند العرب ١٦٤ – والدكتور أحمد رمضان أحمد في كتابه الرحلة والرحالة المسلمون ٣٤٧.

(٣) انظر مقال الدكتور محمد الفاسي في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد المجلدان ٩ و١٠ لسنة ١٩٦١ -١٩٦٢ صفحة ٢ وما بعد، ومقدمة طبعة الرباط صفحة ت، ث – ومقاله في كتاب المحاضرات الثقافية الأسبوعية الجزء الأول سنة ١٩٦٩ صفحة ١ -٣٦.

(٤) الرحلة ٣٠٢.

(٥) نفح الطيب ٣١٩/٢، الذيل والتكملة ٧٢/٤ -٧٤ -٢٢٣ و٢٣/٥ -٣٠٩ -٦٢٤

ولعلَ هذا الأمر هو الذي حمل بعضهم إلى ردّ أصله إلى الأندلس، بدليل أنَّ من رحل من المشرق من بني عبد الدَّار سكنوا بَلَنْسية، فمن المحتمل أن يكون أصل قوم الرجل أقاموا في الأندلس، غير أنّ أهله الأدنين رحلوا إلى المغرب وأقاموا في حَاحَة، وهناك كانت ولادته ونشأته كما سلف.

ويرى الدكتور شوقي عطا الله الجمل أن العَبْدريّ ولد في فاس، وأن زوجه من قبيله حَاحَة(١)، وقد تفرّد بهذا الرأي، ويبدو أنه خلط بين رحّالتنا وبين ابن الحاج الفاسي(٢) صاحب كتاب المدخل.

أمّا تاريخ ولادة العَبْدريّ وتاريخ وفاتِه فمجهولان، فكلّ ما نعرفه أنَّه قام برحلته في الخامس والعشرين من ذي القعدة عام ثمانية وثمانين وست مئة. وكان عندها في عنفوان عمره كما قال له شيخه أبو زيد الدبْاغ(٣).

فإذا افترضنا أنه كان حين ذاك بين الخامسة والعشرين والثلاثين من عمره تكون ولادته في آخر العقد الخامس وأوائل السادس من القرن السابع للهجرة، ونظنّ أن وفاته كانت بعد سنة سبع مئة للهجرة وهذا قريب مما قدّره الدكتور عمر فروخ – رحمه الله – إذ جعل وفاته سنة ٧٢٠هـ(٤).

---

(١) مجلة المناهل العدد ١٢٥/٥.

(٢) هو محمد بن محمد العبدري الفاسي: فقيه، زاهد، كان عارفاً بمذهب الإمام مالك توفي بالقاهرة سنة ٧٣٧هـ له كتاب المدخل (الديباج المذهب ٣٢٧ – حسن المحاضرة ٤٥٩/١).

(٣) الرحلة ١٦٤.

(٤) تاريخ الأدب العربي ٤٠١/٦.

ويبدو أن الأمر قد التبس على الزركلي إذ صنع ترجمتين متتاليتين للعبدري[1] على أنّه شخصان، وكذلك فعل عمر رضا كحّالة[2]، وهذا وهم منهما، لأن الترجمتين لشخص واحد هو العبدري صاحب الرحلة.

وثمّة اختلاف آخر في كنية الرّجل، فبعضهم يكنيه أبا محمد[3]، وبعضهم يكنيه أبا عبد الله[4]، ولا حاجة للإطالة في الحديث عن هذا الخلاف، فقد فصّل فيه محمد الفاسي – والرَّأي ما قال – وجعل كنيته أبا عبد الله.

أما كنية أبي محمد فقد تأتّت من ذكره ابنه محمّداً في رحلته. ويؤيّد رأي محمد الفاسي ما جاء في صدر بعض نسخ الرِّحلة المخطوطة، كما أنَّ البلوي الذي رحل إلى المشرق بعد العبدري بسنوات قليلة أورد له أبياتاً من قصيدة تائيّة[5] وكناه أبا عبد الله.

٢- رحلة العبدريّ:

- تسميتها:

اختلف الباحثون في اسم هذه الرِّحلة فمنهم من يسميها رحلة العبدري، وبعضهم يسميها الرّحلة المغربية.

وإذا عدنا إلى النُّسخ المخطوطة المتوفرة لدينا من هذه الرِّحلة، نجد أنَّ اسمها لم يكن واحداً في جميع هذه النُّسخ، فقد كتب على غلاف نسخة باريس

(١) الأعلام ٣١/٧ و٣٢.

(٢) معجم المؤلفين ٢٤٤/١١ و٣/١٢.

(٣) منهم بروكلمان وابن جدّو في مقدمة طبعة الجزائر وكراتشكوفسكي، وعمر فروخ، وبالنثيا، وابن أبي شنب في دائرة المعارف الإسلامية.

(٤) منهم محمد مخلوف في شجرة النور الزكية ٢١٧/١ ومحمد الفاسي في مقدمة طبعة الرباط، ومحمد بن تاويت في الوافي في الأدب المغربي ٣٩٢/٢ وحسين مؤنس في الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ٥١٨.

(٥) تاج المفرق ١٠٩/٢.

«رحلة العبدري» وهي الرحلة المغربية، وقريباً منه ما كتب على غلاف نسخة تونس «رحلة الشّيخ العبدري».

وهذا يدلنا على أنَّ الرِّحلة عرفت باسم صاحبها، وهذا أمر مألوف في الرِّحل عموماً والمغربية والأندلسية خصوصاً، فقد كان يغلب على اسم الرِّحلة اسمُ صاحبها فتشتهر به، ويشيع ذلك على ألسنة النَّاس حتى يكاد يُنسى الاسم الحقيقي للرِّحلة، كرحلة ابن بَطُّوطة، ورحلة ابن جُبَير، ورحلة ابن رُشَيد، فقلّ مَن يعرف أن اسم رحلة ابن جبير هو «تذكرة بالآثار عن اتفاق الأسفار» واسم رحلة ابن رشيد: «ملء العيبة بما جُمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكّة وطيبة».

ولذلك فإننا نرجّح أن يكون العَبْدريّ قد وضع اسماً لرحلته إلا أنّه لم يحفظ ولم يعش طويلاً، وبقي اسم العبدري علماً على رحلته.

وقد ذهب هذا المذهب الأستاذ أحمد بن جدّو الذي نشر قسماً من رحلة العبدري في الجزائر فأشار إلى احتمال أن يكون اسمها الجملة التي ذكرها العَبْدريّ في مقدمة الرحلة: «ما سما إليه الناظر المطرق في خبر الرِّحلة إلى بلاد المشرق»[(١)].

أما الأستاذ محمّد الفاسي ناشر طبعة الرِّباط فيرى أنَّ العبدري سمّى رحلته «الرحلة المغربية» وإنما قصد بها أنَّه قطع كل بلاد المغرب في طريقه إلى بلاد المشرق، ولم يركب البحر كما كان يفعل غيره من الرحالين كابن جبير[(٢)].

---

(١) مقدمة طبعة الجزائر صفحة ج، وقد أورد الرأي نفسه د. فروخ في تاريخ الأدب العربي ٤٠٢/٦ وقد نسب د. فروخ أيضاً رحلة ابن رشيد «ملء العَيبة» إلى العَبْدريّ، ولعلّه من سهوه رحمه الله.

(٢) كتاب المحاضرات الثقافية الأسبوعية ١٤/١ سنة ١٩٦٩ محاضرة الأستاذ محمد الفاسي.

سبب الرِّحلة ومدتها:

كان وراء رحلة العَبْدريّ سببان حملاه على المضيّ فيها:

الأول – سبب ديني: وهو القيام بفريضة الحج، وزيارة الأماكن المقدسة، والاتصال بالمتصوّفة والصَّالحين، وقد صَرّح العَبْدريُّ مراراً بأنّه كان ينوي الإقامة بمكة والمجاورة بها، وبأنّه قد اكترى المنزل وجهز لوازمه، وصرف الرَّكب إلى المغرب لولا حدوث فتنة هناك أرغمته على الرّحيل عن مكة(١).

الثاني – هو رغبته في لقاء العلماء والمشايخ والأخذ عنهم، وكان حريصاً على البحث عن السَّنَد العالي فيما يأخذه عن هؤلاء العلماء والمحدّثين، ونرى العَبْدريّ في سؤال دائم عن الأحوال العلميّة والثَّقافيّة في البلاد التي يمرّ بها، فإذا صادف مجموعة من العلماء في بلد من البلاد طرب لذلك وانشرحت نفسه فينطلق لسانه ثناءً وحمداً كما حدث معه في تونس(٢) وإذا لم يجد هذا النوع من العلماء يهجو بلسانه الذَّرِب هذه البلاد وأهلها كما صنع في قابِس وطرابُلُس(٣).

أما مدّة الرحلة فيبدو أنها استمرت أكثر من سنتين، ويذكر البحاثة حسن حسني عبد الوهاب – رحمه الله – أن العَبْدريّ زار تونس مرتين في طريق ذهابه إلى الحج سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م، وعند رجوعه سنة ٦٩١هـ/١٢٩٢م(٤) فعلى هذا يكون العبدري قد أمضى ثلاث سنوات في رحلته.

ويؤكد هذا البَلويُّ حين أورد أبياتاً للعَبْدريّ في رحلته فقال: «أنشدها في تونس في رجب الفرد سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م»(٥) فمن المحتمل إذاً أن

---

(١) الرحلة ٣٩١-٣٩٢.

(٢) الرحلة ١٠٨.

(٣) الرحلة ١٨٠ و١٨٤.

(٤) مقدمة رحلة التجاني صفحة يز.

(٥) تاج المفرق ١٠٩/٢.

يكون العَبْدريّ قد عاد في هذه السَّنة من الحجاز، وأقام في تونس سنة أخرى كما فعل نظيره ابن رُشَيد، ويرجّح هذا الاحتمال ما ذكره العَبْدريّ عن أهل تونس، وعن كياستهم وعلمهم فهو قد أعجب بعلمائها ومجالسهم العلميّة، ويؤكّد ذلك قوله عند دخوله تونس بعد عودته من الحجاز [1]: «وقد أقمت بها مدّة حتى شفيتُ الحَشا العليل، ونقعتُ بورْدِها الغليل، وقطعت فيها الغُدوّ والأصيل، بمجالسة كلّ فاضل جليل، فما أنفصل عن عالم يوضح الحَلَك مهما أجاب، إلاّ إلى صالح يُحتَلَب به دَرُّ السَّحاب، ولا أغدو عن مجلس أدب كقطع الرياض، إلاّ إلى محفل وعظ يسقي الخدود بالدّمع الفيّاض، فقطعتها أياماً من غفلات الدّهر مختلسات، وانتظم لي شملُ أنسٍ طالما مني بالشّتات، فلم يبق بها شيخ مذكور إلا رأيته، ولا علم مشهور إلا أتيته».

فالرِّحلة إذاً ذات هدف مزدوج ككثير من الرِّحل الحجازية التي كان أصحابها يقصدون الدِّيار المقدَّسة لأداء فريضة الحجِّ، ويغتنمون الفرصة ليلتقوا الشيوخ في المدن التي كانوا يمرّون بها، ويأخذون عنهم ما يتيسَّر لهم من العلوم المختلفة.

منهج العَبْدريّ في تأليف الرحلة:

وضّح العَبْدريّ في مقدمة الرِّحلة منهجه في تأليفها فقال[2]: «وبعد فإنّي قاصدٌ بعد استخارة الله سبحانه، إلى تقييد ما أمكن تقييده، ورسم ما تيسَّر رَسْمُه وتسويده، مما سما إليه النَّاظر المُطرق، في خبر الرِّحلة إلى بلاد المشرق، من ذكر بعض أوصاف البلدان، وأحوال مَن بها من القطّان، حسبما أدركه الحسّ والعيان، وقام عليه بالمشاهدة شاهد البرهان، من غير تورية ولا تلويح، ولا تقبيح حسن ولا تحسين قبيح، بلفظ قاصد لا يُحجم معرّدا[3]، ولا

(١) الرحلة ٤٨٩.

(٢) الرحلة ٢٨.

(٣) التعريد: الفرار. أي: لا يكفّ فارّاً.

يجمح فيتعَدّى المدى، مسطراً لما رأيته بالعيان، ومقرراً له بأوضح بيان، حتى يكون السَّامع لذلك كالمبصر....»

وقد كان العَبْدريّ وفيّاً لهذا المنهج الذي ارتضاه لرحلته، مطبقاً له، فقد وصف البلدان وصفاً دقيقاً بمبانيها، وآثارها، وكثيراً ما كان يُعرِّج على أهلها، فيصف عاداتهم وتقاليدهم، ولباسهم، ومستواهم العلمي، ولم يكن متساهلاً في نقد ما كان يراه غير طبيعي سواء في أخلاق الناس، أو في عاداتهم، وخصوصاً فيما يتعلَّق بالنَّاحية العلميّة للبلاد التي كان يدخلها كقوله عن طَرابُلس(١): «ثم وصلنا مدينة طرابُلُس، وهي للجهل مأتم وما للعلم فيها عُرس، أقفرت ظاهراً وباطناً، وذمَّها الخبيرُ بها سائراً وقاطناً».

ويقول عن تلمسان(٢): «وأما العلم فقد درس رسُمه في أكثر البلاد، وغاضت(٣) أنهاره فازدُحِمَ على الثّماد(٤)، فما ظنّك بها وهي رسم عفا طَلَلُهْ، ومنهلٌ جفَّ وَشَلُهْ(٥)».

وهذا ما جعل بعض الباحثين يصف آراءه بالتَّطرُّف، لأنَّ العَبْدريّ لم يترك بلداً دون أن يوجّه إليه نقده بصراحة. لا مداراة فيها ولا مواربة، كقوله في أهل الإسكندرية(٦): (... ومن الأمر المستغرب، والحال الذي أفصَح عن قلّة ديْنهم وأعرب، أنهم يعترضون الحجّاج، ويجرعونهم من بحر الإهانة المِلْحَ الأُجاج(٧)، ويأخذون على وفدهم الطُّرقَ والفِجاج(٨)، ويبحثون عمَّا

---

(١) الرحلة ١٨٤.
(٢) التَّعريد: الفرار. أي: لا يكفّ فارّاً.
(٣) غاض الماء: نقص.
(٤) الثماد: الحُفرَ يكون فيها الماء القليل.
(٥) الوشل: الماء القليل يُتحلَّبُ من جبل أو صخرة، يقطر منه قليلاً قليلاً.
(٦) الرحلة ٢١٦.
(٧) الأُجاج: الشديد الملوحة والمرارة.
(٨) الفجاج: واحدها فج: الطريق الواسع بين جبلين.

بأيديهم من مال، ويأمرون بتفتيش النِّساء والرِّجال.....)، وكذلك ذمّه لأهل القاهرة وأخلاقهم(١): «إذْ وَصَفَ القاهرة وأهلها وَصْفَ ناقد حاذق، وكان قَويّ الملاحظة، فسجل ما رآه من العيوب التي أحسّها هو عند المصريين»(٢).

ولعلَّ هذا النّقد لمصر وأهل مصر هو الذي حَمل الدكتور حسين مؤنس على لوم العَبْدريّ، ونعته بالتَّطرّف والتَّعقيد(٣)، وتحامله عليه وعلى رحلته، ومحاولة الحطّ من قيمتها إذ قال: «وأما العَبْدريّ فقد أنفق ثلاثة أرباع الكتاب في كلام مضحك وساذج لا قيمة له»(٤).

والواقع أنَّ العبدري كان يتمتّع بصفتي الصَّراحة والصِّدق في كلِّ ما يقوله بخلاف غيرة من الرَّحالين الذين تحدثوا أيضاً عن سوء المعاملة من رجال الحدود في مدينة الإسكندريّة، كابن جُبير، والبَلوي، وغيرهم.

كما لجأ العبدري إلى ذكر الأخبار التي استفادها والأشعار التي أنشده إيَّاها العلماء، لأنَّه كان يكثر من الاستشهاد بالشِّعر وإيراده له ولغيره، وكثيراً ما كان يأتي بالقصائد كاملة، على طولها أحياناً(٥).

وقام أيضاً بنقل بعض المعلومات المهمّة الَّتي كان يراها تخدم غرضه من الكتب المختلفة، لتوضيح ما يذهب إليه، وإن لم يشاهدها عياناً على الشرط الذي اشترطه على نفسه في مقدمة الرِّحلة.

ولقي العَبْدريّ مجموعةً من المُحَدِّثين الذين سمع منهم كثيراً من الأحاديث الشَّريفة، وأثبت بعضها في رحلته، وأبدى عناية كبيرة بالسَّند العالي، كما سلف، وكان كثيراً ما يورد الحديثَ بسنده كاملاً.

---

(١) الرحلة ٢٧٤ وما بعد.

(٢) المشرق في نظر المغاربة ٨٣.

(٣) تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ٥٢٠.

(٤) المصدر نفسه ٥٢٦.

(٥) انظر الصفحات ٥٤- ٥٥- ٥٦- ٥٧- ١٧٦- ٣٠٨- ٣٠٩- ٤٣١ من الرحلة.

أما تقسيم الكتاب فلا نكاد نلمح تقسيماً واضحاً له، ولكنَّنا نجد فيه بعض الفصول التي كان كثيراً ما يلجأ إلى عقدها عندما يريد الوقوف على ظاهرة، والتفصيل فيها تفصيلاً يبعد قليلاً عن غَرَض الرحلة ومنهجها، مستطرداً في حديثه عن بلد وما يختص به، أو عن تاريخه كما صنع في الحديث عن عجائب مصر ونيلها(١)، والحديث عن بناء المسجد الحرام(٢)، والكعبة وأسمائها(٣).

كما ترجم العَبْدريّ للشُّيوخ الذين لقيهم، وكان كثيراً ما يذكر تاريخ ولادة الشيخ، ورحلته في طلب العلم، ويشفع ذلك أحياناً بالحديث عن بعض طبائع الشَّيخ وعاداته(٤).

وكثيراً ما كان العَبْدريّ يستطرد إلى بعض الآراء التي تستوجب منه مناقشة وتوضيحاً، كما صنع في مشاركاته الفقهية، ومناقشاته العلمية(٥).

مصادره في تأليفها:

تحتوي رحلة العَبْدريّ على معلومات جغرافية وتاريخية وأدبية، بالإضافة إلى المعلومات الفقهية، لذلك نلاحظ تنوّع مصادره تنوعاً كبيراً ككتب السّيرة والحديث والتَّصوُّف، وكتب الجغرافية والرِّحل والتّاريخ، والدَّواوين الشِّعرية.

وقد صدر العَبْدريّ في ذلك كلّه عن طائفة من المصادر المتنوعة يأتي في أولها: المشاهدة، ثم الرِّواية الشَّفوية، ثم المصنفات المختلفة، التي نقل عنها.

---

(١) الرحلة ٣١١ -٣١٢.

(٢) الرحلة ٣٨٤.

(٣) الرحلة ٣٧٥.

(٤) انظر الصفحات ٢٩٩ -٤٩٧.

(٥) الرحلة ١٥١ -٢٠٥.

أمَّا **المشاهدة**: فقد ظهر أثرها واضحاً في المعلومات الجغرافية عن المناطق والبلاد التي مرّ بها، وخصائصها العمرانية، وتضاريسها، وكان وصفه لها وصْفَ شاهد عيان، كما يصف لنا السّهولَ والجبال بأسلوب كلّه إشراق وانفعال يدل على حساسية مرهفة بكل ما هو طبيعي طلق. وهنا يتكشّف العَبْدري عن جغرافي طبيعي لمّاح يُدرك بالنَّظرة الواحدة ما لا يدركه غيره بالتأمل الطويل(١).

وقد حملت هذه الرِّحلة طائفة من المعلومات والقضايا العلمية التي أخذها المؤلِّف من **صدور العلماء مشافهة**، وقَيَّدها في رحلته فزخرت بها ووعت كثيراً منها مما لم نجده في غير هذه الرحلة، ومن ها هنا تزداد قيمة الكتاب العلمية، ويسمو درجة نحو الجودة والفائدة.

ولا ريب أنَّ هذين المصدرين كانا المصدرين الأساسيين اللذيّن نهل منهما العَبْدريّ، وعوّل عليهما في تقييد رحلته، وتسجيل ما اعتلج في صدره عن تلك الرِّحلة، وما شاهده خلالها، وما نقله عن العلماء الذين قابلهم.

أما المصدر الثَّالث فهو **المصنفات** التي نقل عنها العَبْدريّ. وقد لجأ إليها مستعيناً بها على ما لم يشاهده، أو شاهده ولكنه يريد التَّوكيد والتَّوضيح والاستدلال، وسلك في نقوله عن المصادر طريقين:

الأول: أن يذكر المصدر ثم ما ينقله عنه.

الثاني: أن يورد النَّقل، ثم يقول: حكى هذا فلان في كتابه كذا.

وهذه دقّة في التَّصنيف، إذ يلجأ العَبْدريّ إلى نسبة الأقوال إلى أصحابها، وبهذا يمكننا مراجعة الأقوال في مصادرها الرَّئيسية.

ويمكن أن نُصنِّف مصادره التي نقل عنها ضمن الطَّوائف الآتية:

---

(١) الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ٥٢٣.

١ - المصادر الجغرافية والتاريخيّة: ككتاب «المسالك والممالك» لأبي عُبَيد البكري ت(٤٨٧هـ/١٠٩٤م)، و«أخبار مكة» لأبي الوليد الأزرقي ت(٢٥٠هـ/٨٦٤م)، و«طبقات الأمم» للقاضي صاعد ت(٤٦٢هـ/١٠٦٩م)، و«مروج الذهب» للمسعودي ت(٣٤٦هـ/٩٥٨م).

٢ - كتب الحديث المختلفة: الصِّحاح وغيرها، إضافة إلى كتاب «غريب الحديث» لأبي عُبَيد القاسم بن سلام ت(٢٢٤هـ/٨٣٩م)، و«مشارق الأنوار» للقاضي عياض ت(٥٤٤هـ/١١٤٩م).

٣ - كتب السِّيرة النبوية: «كسيرة ابن إسحاق» ت(١٥١هـ/٧٦٨م)، و«الرُّوض الأُنف» لأبي القاسم السُّهَيْلي ت(٥٨١هـ/١١٨٥م)، و«الاكتفاء» لأبي الربيع بن سالم الكلاعي ت(٦٣٤هـ/١٢٣٦م)، و«الشمائل» للترمذي ت(٢٧٩هـ/٨٩٣م).

٤ - كتب الفقه المالكي: «كالمدّونة» لعبد الرحمن بن القاسم ت(١٩١هـ/٨٠٦م)، و«العُتَبيَّة» لمحمد بن العُتبي القرطبي ت(٢٤٥هـ/٨٥٩م)، و«التَّلْقين» للقاضي عبد الوهاب ت(٤٢٢هـ/١٠٣٠م).

٥ - كتب التَّصوُّف: ككتاب «التشوّف» لابن الزَّيَّات ت(٦٢٧هـ/١٢٢٩م)، و«منار العلم» لأبي سعيد الحاحي المتزازي.

٦ - الدواوين الشعرية والمجموعات: «كديوان المتنبي»، و«النَّابغة» و«الحماسة»، و«يتيمة الدهر للثعالبي» ت(٤٢٩هـ/١٠٣٧م).

٧ - كتب أخرى في القراءات والتراجم «كالتيسير» و«المقنع» لأبي عمرو الداني ت(٤٤٤هـ/١٠٥٣م) وغيرها.

وقد لاحظ المستشرق كراتشكوفسكي كثرة نقول العَبْدريّ مما دفعه إلى القول[1]: «ومن المؤكد أنه على معرفة بمن سبقوه في هذا الاتّجاه. وهو عندما يضمّن وصفه كلاماً من المسَعودي أو البَكريّ إنما يدفعنا بذلك إلى إعمال

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافي العربي ٣٦٨/١.

الحَذر بل إلى التَّساؤل هل يعتمد وصفه على المصادر المكتوبة دون الملاحظة المباشرة؟».

ولا شك في أن المستشرق الرُّوسي ليس محقّاً في تساؤله وحذره، لأنّ العَبْدريّ لم يكن يأخذ من المصادر كيفما اتفق، بل كان يعمل الحذر فيما ينقله، وكان يناقش في كثير من الأحيان ما ذكره غيره، ويُصوّب أخطاء الذين سبقوه، ونقد البكري وصوّبَ له غير مرة[1]، مما يدلنا على صحّة ملاحظاته ودِقَّتها، ولاسيما فيما يتعلق بالجانب الجغرافي الذي يعتمد على المشاهدة.

أسلوب العبدري في رحلته:

من خلال قراءتنا لرحلة العبدري نستطيع أن نتعرف خصائص نثره الفنّيّ، ومكانته الأدبية، وهو في هذا النثر لا يخرج عن الأسلوب الذي كان سائداً في عصره، وهو أسلوب التصنّع والتزويق اللفظي، وإن كنّا لا نعدم مواضع ابتعد فيها العَبْدريّ عن هذا الأسلوب، وترك نفسه على سجيتها، فجاء أسلوبه مرسَلاً بعيداً عن قيود الصنَّعة، وبذلك نرى صاحب الرِّحلة لم يلتزم أسلوباً واحداً في رحلته بل زواج بين أسلوبي الصَّنعة والطبع.

١ - طغى على أسلوب العَبْدريّ في رحلته الصّنعة والتكلّف فقد فشا فيها السَّجع والجناس وما إلى ذلك من المحسنات البديعية التي يَكِدُّ المؤلف فيها ذهنه، ويعمل فكره، ويقسو على نفسه ليلائم بينها، ويزوّق ألفاظه وجمله بها.

ولمّا كان هذا الأسلوب طاغياً على الرِّحلة فإنَّنا سنعرض إلى أبرز خصائص أسلوبه الفنّي مؤيّدين كلامنا بشواهد موضّحة ودالّة على المقصد:

أ - الإكثار من المحسنات البديعية كالسَّجع والطِّباق والجناس وهي أبرزها، وهو في السَّجع لا يكتفي باتّفاق أواخر الفواصل في الحروف، بل ربَّما لجأ إلى الموازنة بين ألفاظ الجملتين فيأتي بسجعات صغيرة ضمن

---

(١) الرحلة ٢٠١ -٢٠٢ -٣٣٨.

السَّجعة الكبيرة كقوله عند وصوله إلى المدينة المنورة[1]: «وفي ضحى يوم الاثنين الثَّامن والعشرين من ذي حجّة وصلنا إلى مَعهدِ الفضائل المَشْهورة، ومعقد ألوية الدّين المنشورة، ومحتد المآثر المذكورة، مجمع محاسن الدّارين، ومنبع مفاخر العَصرين، ومطلع سعادة الثّقلين، روضة أزهار الأنام، ومشرق أنوار بدر التَّمام، وحِمى كَرَم ما حَامَ حوله حَام، ولا سَام بصفقته سَام، حمى آدم فآدم عيشه القشف بإكرام، وأولاه مناه، ولولاه لاستمر أذاه ودام، ولاغرو أن كان أباه وقد أسماه عليه الله، فالنَّوْرُ من النَّبت والقطر من الغمام. كم حوى من فخر مَحَلٍّ حواه، كم نال من أثر آثَر رؤاه، علا على كل شَرَف شَرُف إليه منتماه، بل عَلت به الوهاد على الآكام. مَحَلٌّ غدا لبدر الفضائل هالَةْ، منزل إن نازلَهُ وصَّافٌ بالوَصف هالَه، قصاراي الوصول ولو كنت ابنَ أبي هاله. وضَجّت من طول وصفي الأقلام... يا له محلاً هو لسلك الدُّنيا واسطة، فدع عنك الشَّامَ وحمْصَه، والعراق وواسطه، وبه تُمسي القلوب مقسطَّة وقد أصبحت قاسطة، وبه تحطّ أوزارُ من قَطن أوزار، وتَمَّحي الآثام».

فقد جاء المُصنّف بثلاث سجعات داخلية قصيرة ضمن السَّجعة الكبيرة، واعتنى بصياغة الجملة عناية كبيرة، ووشّى جمله بأنواع البديع وحلاّها بكثرة الفواصل، ما أكسب النص موسيقا داخلية يلَذُّ بها السَّمع وإن كان يظهر على أسلوبه التكلّف في اصطياد الجمل ليحصل في نهايتها على سجعه تأتلف مع سابقتها أو لاحقتها.

ويقول واصفاً الإسكندرية[2] «مدينة الحَصانة والوثاقة، وبلد الإشراق اللامع والطلاقة، وطلاوة المنظر وحلاوة المذاقة، كَلَّ عنها ظِفْرُ الزَّمان ونابُه، ومَلَّ منها جيش الحَدثان وأحزابُه، فلم تَبْدُ عليها للزَّمان ضراعة، ولا وكَسَت لها في معاملاته سلعة ولا بضاعة، ولا وقفت له موقفَ ذلّ يوماً ولا ساعة، بل

---

(١) الرحلة ٤١٩ -٤٢٠.
(٢) الرحلة ٢١٠ -٢١١.

ثبتت لحزبه ثبوتَ البطل، وصابرت كيده حتّى اضمحلَّ سحره وبطل، ولم تُصغ أذناً إلى ما يوعد به من الخنا والخَطَل، فهي واقفة وقوف الأطواد ساميةٌ بطَرْفٍ غيرِ كليل، وجيدٍ غير منآد، آخذة من الكفر وأهله بالمخنق حتى أبدلتهم من الصَّافي المروّق الكدر المُرنَّق، فسامروا الأسف مسامرة النَّدى للمُحلّق[1]، ودجا عليهم ليلَ هَمٍّ ادلهمّ بعد نهارِ سرور تألّق، واضطرم عليهم الأسى واحتدم فحالفوا الندم وقالوا: عوض لا نتفرّق..»

فالعَبْدريّ هنا أسيرٌ للصَّنعة، يلتزمها التزاماً كليّاً، ونجده يُعنى **بالسَّجع** عناية بارزة، ويظهر لهاثه وراء الألفاظ ليحصل على سجعه تلائم سابقتها أو لاحقتها كم رأينا في قوله: «ولا وكست له في معاملاته سلعة ولا بضاعة» فقد أقحم هذه الجملة ليتصيّد في نهايتها هذا المعطوف «ولا بضاعة» ليحقَّق الانسجام مع «ضراعة» قبلها و«ساعة» بعدها، ولو استغنينا عنها لما تغيّر المعنى، ولكان التَّرتيب كما يأتي: فلم تبد عليها للزَّمان ضراعة ولا وقفت له موقف ذُلٍّ يوماً ولا ساعة».

وهو أرشق وأفضل، وكانت الجملة الثانية تأكيداً للأولى وتثبيتاً وتبييناً لها[2] ونرى الرَّأيَ ذاته في جملة «فلم تُصغِ أذناً إلى ما يوعد به من الخنا والخطل» التي يمكن الاستغناء عنها، فيكون قوله «بل ثبتت لحزبه ثبوت البطل، وصابرت كيده حتى اضمحلّ سحره وبطل».

والعَبْدريّ يمضي على هذا النَّسق من التَّلاعب بالألفاظ، ورصف الكلمات والعبارات مما يزيد الأسلوب إرهاقاً والمعنى إبهاماً وغموضاً في بعض الأحيان.

والجناس من المحسنات التي أعجب بها العَبْدريّ واستهوته، فنراه يسعى وراءه تاماً أو ناقصاً، ولا يهمّه من ذلك إلا جَمال شكل العبارة، وإن لم يكن

---

(١) هو المحلّق الكلبي ممدوح الأعشى.

(٢) الوافي في الأدب المغربي ٣٩٤ -٣٩٥.

وراءها طائل فمن ذلك قوله[١]:«محلٌّ غدا لبدر الفضائل هالهْ، منزل إن نازلهُ وصّاف بالوصف هالَه، قُصاراي الوصول ولو كنت ابنَ أبي هالهْ.. وبه تحط أوزار من قطن أوزار».

وتضييق العّبْدري على نفسه بلزوم ما لا يلزم من الحروف جعل كثيراً من سجعاته من الجناس الناقص من ذلك قوله[٢]: «يا له محلاً هو لسلك الدّنيا واسطهْ.. به تمسي القلوب مقسطة وقد أصبحت قاسطة» وقوله: «كَلّ عنه ظِفْرُ الزَّمان ونابُه، وملَّ منها جيش الحَدَثان وأحزابُه».

وكان **للطباق والمقابلة** حظ في أسلوب العبدري كقوله عن مِليانة[٣]: «وأدى له من حكمة خَطَلاَ، وكساه بعد الحبر الأطمار.. وأحل حلاله بعد الأنس بأنسها وحشة العَمار». وقوله: «دجا عليهم ليل همّ ادلهمّ بعد نهار سرور تألَّق».

ب - ويكثر العَبْدريّ من **الاقتباس والتضمين**، فقد وهب البراعة في حسن التَّصرُّف في الأسلوب تَجلّت في صور الاقتباس والتَّضمين من الكتاب العزيز، والحديث الشَّريف والحكم والأمثال، وما كان ينثره من أشعار في كتابه.

فمن أمثلة **الاقتباس** من القرآن الكريم قوله[٤]: «وكنا قد تركنا السُّلطان على الحركة إلى جهاد عكّة، وقد برز جميع عسكره خارج المدينة، فلما خرج مرض فمات من حينه، فسبحان من (**كلّ شيء هالك إلا وجهه**)[٥].

وقوله[٦]: «واستبان لهم لمّا لاحَ في ليل خَبْطِهم نَهار، أنَّ بنيانهم كانَ (**على شَفا جُرُفٍ هَار**[٧])، ولولا ما أتوقع من جدال المماحك، لم أشن وجوه

---

(١) الرحلة ٤١٩ -٤٢٠.
(٢) الرحلة ٤١٩ -٤٢٠.
(٣) الرحلة ٧٩.
(٤) الرحلة ٣٥١.
(٥) سورة القصص من الآية ٨٨.
(٦) الرحلة ١٨٣.
(٧) سورة التوبة من الآية ١٠٩.

الأوراق بهذه المضاحك، ولم أخلد لها ذكراً في كتاب، بل أطويها، **(كَطيّ السِّجل للكتاب**[1]**)**.

ووشح العَبْدريّ جُمَلَهُ بمقاطع من الأحاديث الشَّريفة كانت تتلألأ في أثناء جمله كقوله[2]: «وقد يردع المسيء عن إساءته، ما يرى ويسمع من مساءته، ومن التَّأديب ما كفَّ المرء عن زَللـــه و«نيّة المؤمن أبلَغ من عَمَلِهِ»[3].

وقوله[4]: «وقد دلّ ما نالوه من جسيم الملك كلَّ ذي فطرة سليمة على حقارة الدُّنيا وخساستها، و«لو وزنت عند الله جَناح بعوضة ما سقى منها كافراً جرعةً ماء»[5]، «إنّ الله يعطي الدُّنيا من يُحبّ ومن لا يحبّ ولا يُعطي الآخرة إلا لمن يُحِبّ»[6].

ويلجأ العَبْدري في كثير من الأحيان إلى أبيات الشِّعر أو أجزاء منها ويدخلها في مضمون عبارته ببراعة وإتقان، وربما غمض الأمر على الباحث فلم يستطع أن يردَّ مضمون العبارة إلى مصدرها كقوله[7]: «فوقف علينا خمسة أشخاص أثَّر فيهم الدّؤوب، وعلا على ألوانهم الشُّحوب، عانقوا البراري والقفار حتى أخلصتهم خلوص العسجد بالنَّار وتَخوَّفهم الخوف المطير للوسن، «كما تَخَوّف عودَ النَّبْعَةِ السَّفَنُ»[8].

---

(١) سورة الأنبياء من الآية ١٠٤.

(٢) الرحلة ٢٩.

(٣) حديث أخرجه أبو الشيخ في كتاب الأمثال ٥٤/١ –والهندي في كنز العمال ٤٢٤/٣.

(٤) الرحلة ٣٢١.

(٥) تفرّد الترمذي بإيراده، انظر أبواب الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل رقم ٢٣٢١.

(٦) انظر مسند ابن حنبل ٣٨٧/١.

(٧) الرحلة ٤٦.

(٨) عجز بيت اختلفوا في عزوه وصدره: «تخوّف السَّيرُ منها تامكاً قرداً».

وقوله عن مدينة تونس[1]: «وبها من أهل الرِّواية والدِّراية عدد وافر، يجلو الفخار بهم عن محيّا سافر، وينير علمهم وقد «ألقت ذُكاءُ يمينها في كافرِ»[2].

وقوله عن روضة السيدة نفيسة في القاهرة[3] «عليها رباط مشهور ومحل محفودٌ محشودٌ، تصبُّ بها دِيَمُ العناية الرّبّانية وتجود، و«لأمرٍ ما يُسَوَّدُ من يسود»[4].

ج - ولا يجد العَبْدري بأساً من **نَثْر المنظوم** في أثناء جمله كقوله عن مدينة طرابُلُس[5] «لا ترى بها شجراً ولا ثمراً، ولا تخوض في أرجائها حوضاً ولا نهراً، ولا تجتلي روضاً يحوي نَوْراً ولا زهراً، بل هي أقفر من جوف حمار، وأهلها سواسية كأسنان الحمار، ليس لناشئٍ منهم فضل لذي شَيْبة، ولا لذي الفضل منهم هيبة».

فقد نثر العَبْدري قول كثيّر عَزّة[6].

سواءٌ كأسنانِ الحِمارِ فـلا تـرى ... لذي شيبةٍ منهم على ناشيء فَضْلاَ

د - ومن أمثلة **تضمينه الأمثال** ببراعة قوله[7]: «فإن صحا مرَّة فخوطب قال: أنا ضيف عَمرو، وأن حُذِّرَ بأمر أو خُوِّفَ بزيد أو عَمرو قال وهو مشتعل الأحشاء بالجمر: دعوني فلا خوف، و«لا حُرَّ بوادي عَوف»[8].

---

(١) الرحلة ١١٤.
(٢) عجز بيت لثعلبة بن صعير المازني وصدره: «فتذكرا ثقلاً رثيداً بعدما» انظر المفضليات ١٣٠.
(٣) الرحلة ٣٢٧.
(٤) عجز بيت لأنس بن نهيك وصدره: «عزمْتُ على إقامة ذي صباح». اللسان والتاج (صبح).
(٥) الرحلة ١٨٥.
(٦) ديوانه ٣٨٤.
(٧) الرحلة ١٩٩.
(٨) المثل في أمثال أبي فيد ٧٣، الجمهرة ٤٠٦/٢، والميداني ٢٣٦/٢.

وقوله في عقبة أيلة: إن[1] «كثيراً من الحجّاج من يتجهز منها، ولكن الأمل ربما غرَّ فَضرَّ، وقديماً قالوا: «عَشِّ ولا تَغْترّ»[2].

هـ - كما يلجأ العَبْدريّ إلى **اصطناع ألفاظ العلوم** واستخدامها في نثره كألفاظ العلوم المختلفة، ومناسك الحج، والفقه، وأسماء الفقهاء والأعلام من رجال الفكر والشَّريعة، يقول عن مدينة بونة[3]: «ثم وَصَلْنا إلى مَدينة بونة، فوجدناها بلدةً بطوارقِ الغير مغبونة، مبسوطة البَسيط ولكنها بزحف النَّوائب مطويّة مخبونة». فقد استخدم العَبْدريّ مصطلحات العَروض من بحور وزحافات وعلل.

ويقول عن القاهرة[4]: «تريك صورة ليلى في عين ابن الحُمَيّر، وتسفر لك خيرتها عن وجه كُثيّر، وتبلّد الذكيَّ النِّحرير وتحيّر».

ويقول منكراً على أهلها اشتغالهم بالمنطق[5]: «فليت شِعري هل قرأه الشّافعيّ ومالك، أو هو أضاء لأبي حنيفة المسالك، وهل عاركه أحمد بن حنبل، أو كان الثَّوْريُّ على تعلّمه قد أقبل، وهل استعان به إياس في ذكائه، أو بلغ به عمرو ما بلغ من دهائه، أو تمرس به قُسّ وسَحبان».

٢ - أما في **أسلوبه المرسل** فنجد العَبْدريّ يترك نفسه على سَجيّتها، وعبارته من دون قيد السَّجع ومحسنات البديع، فتجيء واضحة سهلة، جليّة المعاني، بعيدة عن الغموض، خالية من زخارف الألفاظ والتصنع، ونلمح هذا

---

(١) الرحلة ٣٤٠.

(٢) المثل في أمثال أبي عبيد ٢١٢ – الوسيط ١٢٤ – الميداني ١٦/٢.

(٣) الرحلة ١٠٤. والطيّ: حذف الرابع من مستفعلن ومفعولات في البسيط والرجز والمنسرح. والخبنُ: حذف الثاني الساكن.

(٤) الرحلة ٢٧٥. وليلى: هي ليلى الأخيلّية صاحبة توبة بن الحميّر، وكثيّر عزّة كان دميم الوجه.

(٥) الرحلة ٢٨٤، ذكر العبدري أئمة المذاهب الأربعة، وسفيان الثوري وإياس بن معاوية قاضي البصرة وعمرو بن العاص وقسّ بن ساعدة الإيادي وسحبان وائل، ويضرب بهم المثل في الفقه والذكاء والدهاء والفصاحة.

في مجالات الوصف والمناقشات العلمية، وعند حديثه عن بعض الشُّيوخ. من ذلك ما قاله معرّفاً ابن خميس التِّلِمْساني[1]: «وما رأيت بمدينة تِلمسان من ينتمي إلى العلم، ولا من يتعلق منه بسبب سوى صاحبنا أبي عبد الله بن محمد عمر بن محمد خميس، وهو فَتيّ السِّنِّ، مولده عام خمسين، وله عناية بالعلم مع قلّة الراغب فيه والمعين عليه، وحظٌّ وافر من الأدب. وطبع فاضل في قرض الشعر».

ويصطنع العَبْدريّ هذا الأسلوب في ميدان الوصف الذي قلَّما يبتعد فيه معظم كتَّاب ذلك العصر عن السَّجع، يقول في وصف مدينة القدس[2]: «والبلد مدينة كبيرة ومنيعة محكمة، كلها من صخر منحوت، على نَشَز غليظ، مقطوع بجهات الأودية، وسورها مهدوم، هدمه الملك الظَّاهر خوفاً من استيلاء الرُّوم عليها وامتناعهم بها، والخراب فيها فاشٍ، وليس بها نهر ولا بستان، وحواليها تلال مشرفة، وبها كنيسة معظمة عند النَّصارى يَحجُّونها في كلِّ عام..»

ويقول في وصف المدينة المنورة[3]: «مدينة مليحة ظاهرة الشَّراقة والرَّونق، موضوعة في مستوٍ من الأرض على واد به غابةٌ عظيمةَ من النخلِ وأرضها سبخة، وبظاهرها حَرَّةٌ سوداء ووعر، وسورها قد أثَّر فيه القِدَم، وتربته حمراء، ولها جملة أبواب لا أحصي عدتها، والبقيعُ شرقيُّها، وجبل أُحد شماليُّها، وهو جبل عالٍ إلى الحُمرة، وليس بمفرط العلو، وقُباء منها في جهة الشَّرق تلوح مبانيه وصومعته من المدينة..».

فهذه النَّماذج من نثر العَبْدري المرسل توضح أسلوبه الذي كان يتحرر فيه أحياناً من قيود السَّجع والصَّنعة، ولا نجد مميزات خاصة لهذا النثر، فهو يبسط فكرته بوضوح وجلاء، ويستعين بكل ما يستطيع من ألفاظ معبرة تؤدي المعنى المطلوب.

---

(١) الرحلة ٥٣.
(٢) الرحلة ٤٦٨.
(٣) الرحلة ٤٢٢.

كما يدخل ضمن هذا الأسلوب المرسل أبحاثه الفقهية والفصول التي خصصها لمناقشة بعض المسائل العلمية، والقضايا المختلفة في اللُّغة والفقه والتَّفسير[(١)].

وخلاصة القول: إن العبدري امتلك ثقافةً واسعة في علوم اللغة وفنون البلاغة جعلته يوشي أسلوبه بضروب البديع والبيان، ويمتلك قدرة على تحسين ألفاظه وجمله، فقدّم لنا عبارات مسجوعة مفعمة بالمحسنات البديعية نشعر في قراءتها أن هذا الفن انقاد للمؤلف، وامتلك زمامه، فجاءت صنعته في الغالب أقرب ما تكون إلى السهولة، وما ذلك إلا لقدرة وتمكّن وثقافة ساعدت كلّها على أن تظهر لنا صنعة العَبْدريّ بلبوس حَسن ومقبول في الغالب، وهذا ما ذهب إليه كراتشكوفسكي إذ قال[(٢)]: «فعلى الرغم من أن أسلوبه لا يخلو من التكلّف إلا أنه يكتب في نفس الوقت بحرّية ويسر بحيث لا يصل إلى درجة المبالغة الممجوجة التي نلتقي بها لدى ممثلي الأجيال التالية».

النقد في رحلة العبدري:

تميّزت رحلة العَبْدريّ بنظرات في النقد، تدنو في أغلب الأحيان – كما سنرى – من الصواب، ما يمكننا أن نعدّها حلقة ضمن حَلقات النقد الأدبي في المغرب، وهذا ما جعل الدكتور عبد العزيز قليقلة، يعقد للمصنّف فصلاً في كتابه «النقد الأدبي في المغرب»[(٣)]. فلم يكد العَبْدريّ يترك جانباً إلاّ عالَجه وأبدى رأيه فيه، ولم تكن أحكامه منصبّة على النقد الأدبي وحسب، بل إنها تعدّته إلى النقد اللغويّ والنحويّ والعَروضي وغيره إذ بلغت هذه الوقفات النقدية في الرحلة نيّفاً وخمسين موضعاً نقديّاً في المجالات الآتية:

---

(١) انظر الصفحات ٦١ – ١٥١ – ١٨٨ - ١٨٩.

(٢) تاريخ الأدب الجغرافي العربي ١/٣٦٨.

(٣) النقد الأدبي في المغرب ٢٩٤ -٣٢٢.

آ - النقد الأدبي:

حفلت الرِّحلة بالأحكام النَّقدية الأدبية، وكانت هذه الأحكام تعتمد في الغالب على الذَّوق في تمييز الجيّد من الرَّديء، ولم يكن ذوق المصنّف فطريّاً يعتمد على الارتجال، بل كان ذوقاً يستند إلى ثقافة متنوعة ومقدرة على التدقيق والتمييز وإصدار الأحكام.

فمن ذلك أنَّه كان يحكم بجودة المعنى وابتكاره، كتعليقه على بيتي محيي الدين المازوني[1]:

إذا ما الليالي جاورتْكَ بساقطٍ ... وقدْرُكَ مرفوعٌ فعنهُ ترحَّلِ

ألم ترَ ما لاقاهُ في جنْبِ جارِهِ ... «كبيرُ أناسٍ في بجادٍ مُزمّلِ»[2]

بقوله: «وهذا المعنى الذي ابتكره حسن جداً»[3].

ويعلق على أبيات ابن خَطّاب المُرْسيّ[4]:

اشكر لربّكَ وانتظر ... في إثر عُسْرِ الأمرِ يُسرا

واصبر لكرْبِكَ وادّخر ... في ستر ضرّ الفقر أجْرا

فالدّهرُ يعثر بالورى ... والصبرُ بالأحرار أحرى

والوفر أظهر مَعْشراً ... والفقرُ بالأخيار يغرى

بقوله: «نظام هذه الأبيات يدل على باعٍ مديد، وطبعٍ فاضل ومِقْولٍ مجيد»[5].

---

(١) أحد الشيوخ الذين لقيهم العبدري بالإسكندرية.

(٢) عجز هذا البيت من معلقة امرئ القيس صوره: كأنّ أباناً في أفانين ودقه.

(٣) الرحلة ٢٦٨.

(٤) محمد بن عبد الله بن داود بن خطاب الغافقي الأندلسي: كاتب، أديب، عالم بأصول الفقه له شعر، توفي بتلمسان سنة ٦٣٦هـ. (البستان ٢٢٧).

(٥) الرحلة ٦٢.

كما يُعلّقُ العَبْدريّ على بيتي أبي الطيّب الرُّندي[1]:

سلت ظُبا الألحاظِ مُرْهفةً علـــى قلبٍ أرقّ من الهـــوى المكتـــومِ
نَزَعاتُ رامٍ وهي نزعـــةُ ريمـــةٍ شَقَّتْ صميمَ حشايَ قبل أديمـــي

فيقول: «وهذا أغرب ما يكون من الشعر وأرقّه، وأحسنه لفظاً ومعنى»[2].

ويُظهر هذا الحكُم النقديّ ثقافة المؤلف النظرية وتأثره برأي ابن قتيبة في ضروب الشعر[3].

ولم تكن وقفاته كلّها موجزة، ولكنه كان يطيل في بعضها، وربَّما علَّل كتعليقه على القصيدة الشَّقراطسية[4]التي أوردها بتمامها في الرِّحلة وجاءت في ثلاثة وثلاثين ومئة بيت فقال: «قد أبدع هذا الناظم – رحمه الله – فيما نظم، وشرّف هذه القصيدة بقصده الجميل وعظَّم، فراقت معنى ومنظراً، وشاقت حسّاً ومخبراً على أنه – رحمه الله – قد أكثر فيها لأجل الصِّناعة التَّصنّع، وتكلّف منها ما هو بعيد المرام شديد التَّمنُّع، واعترض في كل معنى عرض، وربما أغْرَق النَّزع فخالَف الغرض كقوله:

فويل مكة من آثار وطأته..... البيت.

---

(١) صالح بن زيد بن صالح النفزي، أديب، شاعر من أهل رُندة ولد سنة ٦٠١هـ وتوفي سنة ٦٨٤هـ (الإحاطة ٣/٣٦٠)..

(٢) الرحلة ٦٦ -٦٧.

(٣) قسم ابن قتيبة الشعر إلى أربعة ضروب:

١ - ضرب منه حسن لفظه وجاد.

٢ - وضرب منه حسن لفظه وحَلا، فإذا أنت فَتَّشته لم تجد هناك فائدة في المعنى.

٣ - وضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه.

٤ - وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه (الشعر والشعراء ١/٦٤ -٦٩).

(٤) قصيدة لامية في معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن يحيى الشقراطسيّ وهي في الرحلة ١١٩ -١٣٣.

وقوله:

وحل بالشام شؤم غير مرتحل....» [(١)]

وكتعليقه على قصيدة ابنِ خَميسٍ التِّلِمسانيّ البائية إذ قال:

«هذه القصيدة مهذبة الألفاظ والمعاني، وألذّ من نغمات المثالث والمثاني، إلاَّ أنَّ مقطعها قلق ناب، لا يلين ولو مضع بضرس وناب، ليس يلتئم بما قبله ولا يمتزج، ولا يزال السَّمع به يقلق وينزعج، وقد زاولته أن يلتحم فأبى وحاولتُهُ كي يلتئمَ فنبا»[(٢)].

نلاحظ مما سبق سيطرة فكرة اللفظ والمعنى على المُصنِّف، فهو تناول الألفاظ والمعاني، ورأى أنّ الألفاظ مهذّبةٌ بمفردها، ولكنّها تكون قلقة عندما تأتلف مع غيرها لتشكّلَ المقطع.

وقد عُرف المؤلف بالصراحة في نقده، لذا نراه إذا لم يرق له شِعْرُ شاعر صرّح بذلك، فعندما تحدث عن شعر ابن عريبة[(٣)] قال: «وشعره مجموع ووقفت عليه بخطه، وأكثره قعقعة ما ترسل بغيث مُزْناً، وكما قيل: جعجعةً ولا أرى طِحْنا[(٤)]»[(٥)].

ب - النقد البلاغي:

وهو وجه آخر من وجوه النقد، يعتمد على المعرفة بعلوم البيان والمعاني والبديع، وقد أكثر العَبْدريّ من الآراء النقدية التي تتعلق بالأنواع البلاغية، وكانت هذه الآراء تدلنا على علوِّ كعب المصنف في هذه العلوم،

---

(١) الرحلة ١٣٣.

(٢) الرحلة ٥٨.

(٣) عثمان بن عتيق بن عثمان القَيْسيّ المَهدويّ، محدّث أديب شاعر، ولد في المهديّة وتوفي بتبرسق وهو قاضيها سنة ٦٥٩هـ له تخميس على الشقراطسية (معجم المؤلفين التونسيين ٣٧٣/٣ وانظر مصادره ثمة).

(٤) تضمين للمثل: أسمع جعجعةً ولا أرى طِحْنا، (أمثال أبي عبيد ٣٢١ فصل المقال ٤٤٨).

(٥) الرحلة ١٣٥.

فمن ذلك قوله في نقده للقصيدة الشقراطسية: «ولكن قصيدته بالجملة قد حلت من البلاغة في حصن ممنع، وجلت «وجها زهاه الحسن أن يتقنَّع»(١) »(٢).

ومن هذا القبيل نقده لقصيدة ابن الفكون(٣) في رحلته من قسنطينة إلى مراكش إذ علق على البيت:

بدور بل شموس بل صباح بَهيٌّ في بَهيٍّ في بَهيِّ

فقال: «وقوله:

بُدورٌ بل شَموسٌ بل صَباحٌ

نزول مفرط وعكس للرتبة، فإنَّ الشمس أشهر من الصَّباح وأنور، والانتقال بالتَّشبيه من الأعلى إلى الأدنى أشبه بالذَّمِّ منه بالمدح ولاسيما مع الإضراب.

وقوله:

إذا أنسونيَ الولدانَ حُسنا

ضعيف ساقط، لأنَّ التَّشبيهَ والتَّمثيل يجب أن يكونا في كل صنعة بما تعارفه أهلها، واشتهر عندهم، هذا على تقدير التقييد في الولدان، فكيف واللفظ مبهم مطلق، يدخل تحته كل ما يسمى ولداً»(٤).

وقد يصحح المصنف للشاعر بعض الألفاظ التي استخدمها في شعره فهو ينقد ابن الفكون في قوله:

وحلَّ رَشَا الرّباطِ رِشا رباطي

---

(١) مأخوذ من قول عمر بن أبي ربيعة في ديوانه ٢٢٨.

فلما تواقفنا، وسلمت، أشرقت وجوهٌ زهاها الحُسن أَنْ تتقنّعا

(٢) الرحلة ١٣٣ -١٣٤.

(٣) حسن بن علي بن القُسَنْطينيّ: أديب شاعر من أهل قُسَنْطينة رحل إلى مَرّاكُش ومدح خليفة بني عبد المؤمن كان حياً سنة ٦٠٢هـ (عنوان الدراية ٢٨٠ -٢٨٦، درة الحجال ١/٢٣٦).

(٤) الرحلة ١٠٣.

فقال العَبْدريّ: «وقوله لفظ مختل جاف، ما جلبه إلا التجنيس، وإذا وجد الرّشاء والرِّباط فما بقي إلا الضَّرب، وأيّ رقَّة مع هذه الألفاظ الجافية؟ ولو قال: رشا ارتباطي، لكان أقرب مع بُعده لأنه أراد التماسك والتثبّت فالارتباط به أليق»(1).

فالعَبْدريّ مع إعجابه بمذهب البديع يقرّ بأن التجنيس، والمحسنات البديعية تكون ساقطة ولا قيمة لها إذا لم تخدم المعنى.

وإذا تأملنا إشاراته البلاغية في علم البَيان نجده يهتم بالاستعارة لما فيها من صور فنية تنقله إلى الإبداع والابتكار، يقول عن تخميس ابن حَبيش(2) للقصيدة الشّقراطسية:

«... وقد علق بذهني أول تخميس منها وهي قوله:

عَزْل الشَّباب قضى أن المشيب ولي — فما التغزّلُ من قــولي ولا عملـــي

حَمْد الإلهِ ومَدْحُ المصطفى أملـــي — الحمـــد لله منّـــا باعـــث الرُّســـل

هدى بأحمـــد منـــا أحمـــد الـــسُّبل

أمّا تمكّنها فلأنّهُ لما جرت عادة الشُّعراء بالافتتاح بالتغزّل، وَطّأ بالافتتاح بغيره، مما ذكر من أنّ الوقت اللائق به التغزّل هو عصر الشَّباب، وأنَّ اللائق بعصر الشَّيب هو ذكر الله، والإقبال على الحمد له، وأحسن الاستعارة في ذكر الولاية والعزل، ولما رأى أنَّ البيت متضمَّن لمعنيين: حمد الله تعالى، ومدح رسوله صلى الله عليه وسلم، وَطّأ لهما معاً في القسم الذي قبله حتى جاءت الأقسام والبيت في غاية التناسب، كأنها نظم رجل واحد، وما ذكر من الولاية والعزل في الشَّباب والشَّيب استعارة حسنة واقعة موقعها»(3).

---

(1) المصدر نفسه ١٠٢.

(2) محمد بن الحسن بن يوسف بن الحسن بن يونس بن حبيش المرسي: فقيه، أديب، شاعر، راوية، نحويّ، نزيل تونس، أخذ عن جماعة منهم ابن قطرال، وانتفع به كثيرون، توفي سنة ٦٧٩هـ (معجم المؤلفين التونسيين ٩١/٢ وما فيه من مصادر).

(3) الرحلة ١٣٦.

والعَبْدريّ يحب البديع ويحبّذه، ويُفضّل أن يكون الأدب مرصّعاً به[١]، فعندما وصف منبر المسجد النبوي استشهد بقول الشَّقراطسيّ:

حيّى فمات سُكوناً ثم مـــات لـــدن   حيّى حنيناً فأضحى غايـــة المثـــل

ثم قال شارحاً وموضحاً:

«يعني أنه حين حيي بقرب النبي صلى الله عليه وسلم منه، كان ذا سكون، والسكون للميت، وحين مات بتحوّله عنه كان ذا حنين، والحنين للحيّ، وهذا بديع مليح جداً.

ولو روي: «فمات سكوتاً»، بالتاء المثناة، لكان أبدع للمطابقة بين السكوت والحنين، ولكن الرواية فيه بالنون»[٢].

ومن هذا القبيل الإجابة عن سؤال أحدهم حين سأله: لم كرر لفظ (إحداهما) في قوله تعالى: (**أن تَضلَّ إحْداهما فَتذكّرُ إحداهُما الأُخرى**)[٣] إذ قال:

«.. وهو أن إعادة لفظ إحداهما لتعادل الكلام وتوازن الألفاظ في التركيب، وتماثل أقسام الكلام فيما اشتملت عليه من المفردات، وهو المعني بالترصيع، ولكن هذا أبلغ وأبدع، لأنَّ الترصيعَ توازن الألفاظ من حيث صيغتها، وهذا من حيث تركيبها، وكأنَّه ترصيع معنوي، وقلّما يوجد إلاّ في نادر من الكلام»[٤].

وقد كشف العَبْدريّ في تعليقاته السابقة عن مذهبه الفني، وأنَّه مذهب أهل البديع الذي ساد عصره، ولم تكن لديه القدرة على الانفلات منه كمواطنه ابن خلدون صاحب أسلوب التَّرسُّل[٥].

---

(١) النقد الأدبيّ في المغرب ٣٢١.
(٢) الرحلة ٤٥١.
(٣) سورة البقرة الآية ٢٨٤.
(٤) الرحلة ١٥٣ -١٥٤.
(٥) النقد الأدبي في المغرب ٣٢١.

ج - النقد اللّغويّ:

يُظهر مصنّف الرحلة مقدرة فائقة في فهم دقائق اللغة، ومعرفةً بأساليبها وألفاظها وتراكيبها، وتمكّناً من قواعدها، لذا كانت آراؤه في مجال اللغة تدل على ثقافته لأن النقد هو مَحكّ ثقافة المرء.

فما فتئ المصنف يتصدّى في مناسبات كثيرة لتصويب الأخطاء، ويناقش بعض الشُّعراء في بعض الألفاظ التي يستخدمونها في أشعارهم، فنراه يقف عند قول الشَّاعر ابن خميس التِّلمسانيّ:

فإمّـا سـماءٌ أو تُخـومُ تُـرابِ

فيقول: «الوجه فيه: وإمَّا تخوم تراب بتكرير «إما» بعد حرف العطف، وقلما يؤتى بها غير مكررة إلا نادراً كقول الشَّاعر[1]:

إمَّـا فتـىً نـال العُـلا فاشـتفى　　　أو بطلٌ ذاق الرّدى فاسـتراح»[2]

كما وقف عند قوله:

ويـا برقـا أضـاء علـى أوالٍ　　　يمانيّـاً متـى جئـتَ الـشّآمَا

فقال: (.. أنكر غير واحد أن يقال الشآم بالمد في غير النسب، وليس إنكاره بشيء، وهو ممدود في شعر حبيب[3]، وقد ردّوه ولم يروه حجّة، ونسوا قول النَّابغة[4]:

علـى إثـر الأدلّـة والبغايـا　　　وخفـق الناجيـات مـن الـشآم

ويروى: من السآم، بالمهملة جمع سامة، والحجّة في الرواية الأولى.

---

(١) الشاعر هو الشريف الرضي والبيت من قصيدة في ديوانه ١٩٩/١.

(٢) الرحلة ٥٨ -٥٩.

(٣) حبيب: هو أبو تمام الشاعر المشهور.

(٤) ديوان النابغة الذبياني ١٦٣.

وكذلك أنكروا تشديد الياء من اليَمانيّ لأنَّ الألف كالعوض من التشديد، كما رأوا المدَّ بزعمهم في (شآم) عوضاً من تشديد ياء النَّسب، وإذا جاز مدّه في غير النَّسب جاز تشديد الياء مع المد، وقد أنشد المَبّرد[1] على تشديد ياء اليماني مع زيادة الألف:

فأرعدَ من قبل اللقاء ابــنُ مَعْمَــرٍ وأبرقَ والبــرقُ اليمــانيُّ خَــوّانُ

وهذا البيت أيضاً شاهد لمن قال: أرعد وأبرق بالألف أي: تهدد. وأصله من الرَّعد والبرق، وقد أنكره بعضهم بالألف[2] وقال: إنما هو رَعَدَ وبَرَقَ بغير ألف، وكذلك رعدت السَّماء وبرقت، والصواب: أنهما لغتان وأشهرهما بغير ألف، وعليها قول الشاعر[3]:

فــإذا حَلَلْــتُ ودونَ بيتــي سَــاوةٌ فابرق بأرضِكَ ما بدا لك وارعــدِ»[4].

ويقف العبدري عند بيت ابن خميس[5]:

أمُشْبهَ قلبــيَ المُــضنى احتــداماً علاما ذُدْتَ عَــنْ جَفْنــي المنامــا

فيقول: «وقوله: علاما ذدت الوجه فيه حذف الألف لأن ما الاستفهامية إذا دخل عليها حرف جر حُذِفَ منها الألف لكثرة الاستعمال، وفرقا بينها وبين الخبرية.

قال الله تعالى: **(فيمَ أنتَ من ذكراها)**[6] ، وقال جل شأنه: **(فيما هم فيه يختلفون)**[7].

---

(١) الكامل ١٢٣٧.
(٢) أنكره المبرد في الكامل ١٢٣٧ والأصمعي كما جاء في شرح ديوان المتلس ١٤٨.
(٣) الشاعر هو المتلمس والبيت في ديوانه ١٤٧.
(٤) الرحلة ٦١.
(٥) الرحلة ٦١.
(٦) سورة النازعات ٤٣.
(٧) سورة الزمر ٣.

فالمصنّف عندما يناقش هذه الآراء يسوق أدلته من القرآن الكريم وعيون الشعر العربي، ويستدل بآراء النحاة ويناقشهم فيها.

ويورد العَبْدريّ البيتين الآتيين(١):

تكتُب العِلْمَ وتلقي في سَفطْ ... ثُمّ لا تحفظُ، لا تفلح قَطّ

إنما يفلحُ من يحفظُ مِنْ ... بعد فَهْمٍ وتَوقٍّ من غَلَطْ

ويُعلّق عليهما قائلاً: «لم يُسمع في كلام العرب إدخال قطّ على الفعل المضارع، وإنما يُدخلونه على الفعل الماضي فيقولون: لم أفعل هذا قطّ، وذلك أن (لم) تصيرّ الفعل في المعنى ماضيا، ولا يقولون: لا أفعله قط، لأنَّ قط مشتقة من قطَّ يَقطُّ: أيّ يقطع، فمعناه: لم أفعله في كلّ ما مضى من الزَّمان وانقطع..». ويستدل على صحّة رأيه بقول الحريري في كتابه درّة الغَوّاص(٢).

كما كان للعَبْدريّ ملاحظات نقديّة تمتُّ بصِلَة وثيقة إلى فقه اللغة(٣) فعندما ذكر أبياتَ القاضي أبي حفص بن عمر(٤):

أجَعلْتُمُ العُلماءَ حُمْراً مُوكَفَهْ ... هذا لأنَّكمُ أولو تلكَ الصّفَهْ

أجَهلْتُمُ صَفَةَ الإلهِ وفِعْلَهُ ... ونَسَبْتموهُ لغَيْرِهِ بالزَّخْرَفَهْ

وأردتُمُ تنزيهَهُ فَوقَعْتمُ ... في الشِّرْكِ والإلْحاد والأمْر السَّفَهْ

خالفْتُمُ سُنن النبيِّ وصَحْبِهِ ... وتبعتُمُ في الزَّيْغِ أهلَ الفَلْسَفَهْ

---

(١) الرحلة ٢٦٤.

(٢) درّة الغواص للحريري ١٣-١٤.

(٣) النقد الأدبي في المغرب ٣٠١.

(٤) هو عمر بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عمر السُّلَميّ: فقيه قاض له شعر حَسَن تولى قضاء إشبيليّة للموحدين وتوفي فيها ٦٠٣هـ (الغصون اليانعة ٩١ – أزهار الرياض ٣٦١/٢).

عقب عليها بقوله: «خفف القاضي – رحمه الله – الحُمُر، والتخفيف في (فُعُل) مطرّد إلا فيما يلتبس، وهو هنا يلتبس بجمع أحمر، فينبغي ألا يخفف، ولم يُقرأ في السبع (**كأنَّهم حُمُرٌ مُستَنْفرة**)[١] إلاّ بالتّثقيل، ومن هذه الحجة أنكر المحقّقون إسكان الباء في قوله صلى الله عليه وسلم: (اللّهمَّ إنّي أعوذ بك من الخُبْثِ والخَبَائثِ)[٢] لما كان إمكانه يلتبس بالمفرد»[٣].

ولانعدم بعض الملاحظات التي تدل على إتقان المصنّف علم النحو، فقد انتقد أحد مُدرّسي النحو في تِلِمْسان بقوله:

«.. وقد حضرت بها مدرّساً مذكوراً عندهم يقرأ عليه باب التوكيد من «الجمل» فسمعته يقول: كلا للمذكرين، وكلتا للمذكرتين. وأعربوا قول ابن دريد[٤]:

هُمُ الذينَ جرّعوا مَـــنْ مــــاحَلُوا...

بأن هم مبتدأ، والذين مبتدأ ثان، وجرعوا خبره، والجملة في موضع خبر الأول..» [٥].

ومن هذا القبيل وقفته مع عرب برقة الذين يعجب من فصاحتهم فيقول:

«.. وعرب برقة اليوم من أفصحِ عرب رأيناهم»، ويعلّل ذلك بقوله: «لم يكثر ورود الناس عليهم، فلم يختلط كلامهم بغيره[٦]» وهو تفسير علمي صحيح لأنّ الجماعات المنقطعة في ناحية تكون لغتها أكثر محافظة من غيرها، وهذا ما حمل القدماء على تأخير زمن الاستشهاد بشعر أهل البادية عن شعر أهل المدن والحضر.

---

(١) سورة المدثر ٥٠.

(٢) أخرجه الترمذي عن أنس في كتاب الطهارة، باب ما يقول إذا دخل الخلاء حديث رقم ٥.

(٣) الرحلة ٧٦.

(٤) قوله صدر بيت من مقصورته عجزه (أفاوِقَ الضَّيْمِ ممرّاتِ الحُسا). والمُماحلَة: العداوة (شرح المقصورة للتبريزي ٥٩).

(٥) الرحلة ٥٠.

(٦) الرحلة ٢٠٦.

وساق العَبْدريّ أمثلةً كثيرة على فصاحةِ أهل برقة – صغارهم وكبارهم منها قوله:

«.. وقد سألت بدوياً وجدته يسقي إبله في الحَصَوي عن ماء يقال له: أبو شِمال هل نمرّ عليه؟ وذكرته بالواو في موضع الخفض على عادة أهل الغرب، فقال لي: نعم تطؤون أبا شمال، وأثبت النون في الفعل ونصب المفعول، وليس في الغرب عربي ولا حضري يفعل ذلك»(١).

ومن أمثلة فصاحة أطفالهم قوله: «ومررنا بأطفال منهم يلعبون، فقال لنا واحد منهم: يا حجّاج أمعكم شيء تبيعونَهْ؟ وأثبت النُّون وسكّن الهاء للوقف..»(٢).

ويورد المصنّف أمثلة على استخدامهم نادر الألفاظ، وغريبها في حديثهم اليومي فيقول:

«.. وأمّا نادر ألفاظ اللُّغة وما جرت عادة أهل الغريب بتفسيره، فهم حتّى الآن يتحاورون به على سجيّتهم، فمن ذلك أنَّ شخصاً منهم وقف عليّ بموضع نزولي من محلّة الركب، وكانت التّرعة منه بعيدة فقال لي: يا سيّدي تدعني أَظْهَر؟ أَيْ أخرج»(٣).

ويقول: «وسمعت صبيّاً ينادي في الرَّكب: يا حجّاج من يشتري الصَّفيفَ؟ فلم يفهم عنه أكثر النَّاس فقلت له: اللحم معك؟ فقال: نعم، وأبرز لحم ظَبْيٍ مُقدّد، وهذا اللفظ ذكره مالك رضي الله عنه في الموطأ(٤) وتهمّم بتفسيره فقال بإثر الحديث: قال مالك: والصَّفيفُ: القديد»(٥).

---

(١) الرّحلة ٢٠٧.

(٢) الرحلة ٢٠٧.

(٣) الرحلة ٢٠٨.

(٤) الموطأ ٢٤٠.

(٥) الرحلة ٢٠٩.

د - النقد العروضي:

تناول المصنف الجانب العروضي في غير موضع من الرّحلة ما يدل على جانب آخر من معرفته، فإذا مَرّت بشعر أحد الشعراء هفوةٌ عَرَّض بها أو ناقشها، فبعد أن يورد بيت الشّاعر ابن خميس التلمساني:

أَمُشبهَ قلبـــيَ المُـــضنى احتـــداماً   علاما ذُدتَ عـــن جفنـــي المنامـــا

ناقش إثبات الألف في «علامَ» وعدّه خطأً نحوياً، وقال بعد ذلك: ولو حذف الألف منها لصح الوزن وكان الجزء معقولاً[1] ولكنه زحاف قبيح»[2].

وكذا في تخميس أبي عبد الله المَصريّ القصيدة المُنفرجة إذ قال: «أمّا ما خمس به أولاً قوله:

وأبي عَمْـــروٍ ذي النـــورين الـــ   مـــستهدي المـــستحيي الـــبهجِ

فغلط لا شك فيه، لأنه يؤدي إلى قطع همزة المستهدي، وبقطعها ينكسر البيت لزيادة حرفين على وزن الخَبَب... وأما قوله:

صلوات الله علـــى المهـــدي الـــ   هـــادي النـــاسَ إلـــى الـــنُّهجُ

وأظنّه خفّف فيه الياء، وقطع الهمزة بعدها ليتاتّى له التخميس، لأنّ الأقسام تبنى على الترنم كحرف الرَّويّ، وذلك موجب للمّد والإدغام يمنعه»[3].

وعندما أورد أبيات شيخه أبي العبّاس الغَمَّاز الآتية:

أيا سامعَ الشَّكوى ويا دافعَ البلوى   ويا كاشِفَ الأسواءِ والبأسِ والضُّرِّ

أسيرُ خطايا يرتجـــي فَـــكَّ أسْـــرِهِ   وإن لم يكن أهلاً لِفَكٍّ مـــن الأسْـــرِ

وما ليَ لا أرجو وإن كنتُ مُـــسْرِفاً   وأدري من الصَّفْحِ الجميلِ الذي أدري

---

(١) العقل: هو حذف الخامس المتحرك من مفاعلتن فتصبح مفاعلن ويصيب الوافر (المعيار ٢٦).

(٢) الرحلة ٦١.

(٣) الرحلة ١٥٠.

قال بإثرها: «أتى شيخنا – حفظه الله – بعرَوض البيت تامة وإنما سمعت مقبوضة، إلاَّ أنَّ التَّرصيع الذي في البيت ربما سَوَّغ ذلك كما في التَّصريع، وقد وقع مثله في شعر المتنبي وتُعقِّبَ عليه»(١).

هـ - النقد التفسيري ونقد الشيوخ:

أظهر المؤلّف مقدرة كبيرة على فهم النَّصوص القرآنية، وشارك في مناقشات كثيرة حول تفسير بعض الآيات، وكانت له آراء مصيبة(٢) كما شارك في تفسير بعض الأحاديث الشَّريفة(٣).

وبدا العَبْدريُّ جريئاً في آرائه بالشيوخ الذين قابلهم من حيث المستوى العلمي والسلوك الأخلاقي، فهو يصرّح بأنّه لم يأخذ الفقه عن ابن عُبَيد بطرابُلُس لأنّه قليل التوقير لمجلس العلم(٤).

ويقول بعد أن حضر مجلسين لابنِ جَماعة قاضي بيت المقدس: «فلم أَحْلَ منهما بطائل، وكلَّمته في أشياء تخبَّطَ فيها وتعسّفَ، فلم أجد من نفسي إذعاناً للأخذِ عنه على قلة همتّهِ في الرّواية»(٥).

وحضر مجلس أبي محمد بن عبد السّيّدِ بطرابُلس فلم يفهم عنه إلاّ بعد مشقَّة بسبب حبسة في لسانه، ووصفه بضيق الخلق وعدم الرِّواية(٦).

وقال في أبي علي منصور بن محمد المشدالي بأنه «غير معتن بالرواية ولا له فيها حظ»(٧).

---

(١) الرحلة ٤٩٤.
(٢) الرحلة ١٥٣ – ١٥٥ – ١٨٨ – ١٨٩ - ١٩٠.
(٣) الرحلة ٤١٠.
(٤) الرحلة ٤٨٤.
(٥) الرحلة ٤٧٣.
(٦) الرحلة ١٨٦ -١٨٧.
(٧) الرحلة ٥٦١.

ولا ريب أن مثل هذه الآراء لا تصدر إلا عن عالمٍ حاذق، عارف بالشُّيوخ ومستواهم العلمي، قادر على تقويمهم، وإعطاء كل ذي حقّ منهم حقّه.

كانت تلك بعض آراء العَبْدريّ النقدية وقد لاحظنا عليها الاعتماد على الذَّوق المشفوع بمعرفة غنية، وملكة ثقفتها التجربة والخبرة، فالمؤلف لم يكن يقبل إلا ما وافق قواعد اللغة والبلاغة والعروض، وكانت نقداته يغلب عليها الإيجاز وقلّة التعليل، وإن كنا لا نعدم فيها تعليلاً أو قياساً أو استشهاداً أو مناقشة.

مضامين الرحلة

تحتوي رحلة العَبْدريّ على مضامينَ متشعبةٍ تعْسُر الإحاطة بها جميعاً في هذا المقام، ولذلك سنقصر اهتمامنا على أبرز هذه المضامين، وهي المضمون الجغرافي، والمضمون الاجتماعي، والمضمون الأدبي.

آ - **المضمون الجغرافي:**

تحتوي الرحلات عموماً على معلومات جغرافية مهمة، من وصفٍ للمسالك والطرق والبلدان والآثار المختلفة، إضافة إلى ما تصفه من مظاهر بشرية، وطبيعية، واقتصادية.

ورحلة العَبْدري كغيرها من الرِّحل، تضم بين دفتيها معلوماتٍ قيّمةً في هذا الخصوص، فصاحبها يرسم لنا بدقّة الطّريق التي كانت تسلكها قوافل الحجّاج برّاً من المغرب إلى الحجاز، ويحدد لنا المراكز التي يحطّ فيها الحجاج رحالهم للاستراحة، ويعدد لنا المناهل التي يتوقّف فيها الحجاج للتَّزوّد بالماء، كقوله يعدد المناهل التي في برية ما بين الحجاز

ومصر، ويحدد المسافات بينها بدقة[1]: «وأما مناهل هذه البرية فمن البِرْكة إلى السُّويس ثلاثة أيام، وهي بئر غزيرة واسعة، وهناك ينقطع بحر الشرق فيدور السالك من ورائه ويتركه يميناً، ولا يزال محاذياً له إلى مكة... وماء السُّويس مِلْحٌ لا يكاد يُساغ لملوحته، وخباثة مطعمه، ولكن بالقرب منه على نحو عشرة أميال أو أزيد قليلاً ماء يقال له: مَغْبوق، وهو ماء عذب طيب، ومن مغبوق إلى بئر النخل ثلاثة أيام، وهي بئر واحدة بكية ماؤها شريب...».

كما تطرق العَبْدريّ إلى وصف المدن والأنهار وكثير مما شاهده في طريقه، يقول في وصف بلدة آنسا[2] «وأما بلد آنسا - جبره الله – فهو بلد منفسحٌ منشرح في بسيط مليح، طيب التربة، يغلُّ كثيراً، وبه ماء جار، ونخل وبساتين، وهو آخر بلاد السُّوس من أعلاه، متَّصل بالجبل، مشرف على أرض السوس وكان فيما مضى مدينة كبيرة». وتحدّث عن نهر النّيل، وحدّد أيّام فيضانه وحاول تعليل ذلك[3].

كما أعار العَبْدريُّ اهتماماً خاصاً لمشاهداته في أثناء تجواله داخل البلدان والمدن التي زارها، فوصف آثارها المختلفة، وتحدث عن الأضرحة والزوايا كوصف منار الإسكندرية[4]، وعمود السَّواري[5]، والأهرام والبرابي[6] وروضة الإمام الشَّافعي[7]، وروضة السّيدة نفيسة[8].

---

(١) الرحلة ٣٣٥.

(٢) الرحلة ٤٢.

(٣) الرحلة ٣١٢.

(٤) الرحلة ٢١٣.

(٥) الرحلة ٢١٢.

(٦) الرحلة ٣١٥.

(٧) الرحلة ٣٢٧.

(٨) الرحلة ٣٢٦.

كما وصف المساجد والأسواق، قال في وصف جامع الزيتونة بتونس[1]: «وهذا الجامع من أحسن الجوامع وأتقنها وأكثرها إشراقاً، ودائرهُ مسقّف، ووسطه فضاء قد نصبت فيه أعمدة من خشب على قدر ارتفاع الجُدُر، وشدت إليها حبال متينة في حلق من حديد مثبتة فيها وفي السقوف شدّاً مُحكماً...»

ولم يغفل الإشارة إلى نواحٍ اقتصادية كحديثه عن غلاء الأسعار ورخصها، وعن تعامل عرب برقة بالمقايضة بالسّلع وعدم استخدام النُّقود بينهم[2].

ب - المضمون الاجتماعي:

نقف في رحلة العَبْدريّ على ملامح اجتماعية مهمّة قد لا نعثر عليها في غيرها، فصاحب الرحلة لم يكن يقصر لقاءه على العلماء، ولكنّه كان يختلط بأفراد المجتمعات في البلاد التي كان يمر بها، ويجالسهم، ويتحدّث إليهم، مما جعله يطّلع على أحوالهم الاجتماعية من عادات وتقاليد، وأنماط معيشية.

فقد أخذ على أهل برقة استخدام نسائهم في البيع والشِّراء فقال عنهم[3]: «ويستعملون نساءهم في البيع والشِّراء، فلا يتوصَّل الحاج إلى شراء القوت إلا بعرض مبتذل وحال ممقوت».

كما يخبرنا عن أزياء نساء بَرْقة بقوله[4]: «ومن العجب عندهم أنَّ كل امرأة لابد لها من خرقة تسدلها على وجهها ويسمونها البرقع، وهي تتخلل

---

(١) الرحلة ١١٠.

(٢) الرحلة ٢٠٣ -٢٠٤.

(٣) الرحلة ٢٠٤.

(٤) الرحلة ٢٠٤.

الناس مكشوفة الرأس والأطراف، حافية القدمين ولا تهتم بستر ما سوى وجهها، كأن ليس لها عورة سواه، فلا تزال تلك الخرقة عرضة للاتّساخ، ومرصداً لعارض الأوساخ....»

ويحدثنا عن قوم من اليَمن يقال لهم السّرو[1]: «جفاة، بُداة، مُفرطو البداوة، عرب الألسنة، أدُم الألوان، نحاف الأبدان، أكثرهم يجلب على ظهره، والعُرْي فيهم فاش إلا السترة، ولهم ألفاظ حوشية، والدِّينار في لغتهم أربعة دراهم....».

ويشير العَبْدريّ إلى بعض الظَّواهر الاجتماعية، كالبخل عند أهل تلمسان[2] وجهل أهل القِبْلَة وحسن ظنّهم بأهل الدين، وإيوائهم للغريب وحمايتهم للجار[3].

ولا يغفل الحديث عن المذاهب التي يعتنقها أهالي بعض البلدان، فأهل جَرْبَة «أصحاب مذاهب رَدِيّة»[4] وأهل بدر رفضة[5].

ويُبدي العَبْدري اهتماماً خاصاً بالحديث عن البِدَع التي يعتقدها أهالي البقاع المقدسة، كحكمهم على من لا ينفذ من باب الغار بجبل ثور بأنه ولد زنى[6]، ويصوّر تزاحم الحجاج على الكعبة وبئر زمزم وغيرها[7].

---

(١) الرحلة ٣٨٩.

(٢) الرحلة ٤٨.

(٣) الرحلة ٤٣.

(٤) الرحلة ٤٨٥.

(٥) الرحلة ٣٤٦.

(٦) الرحلة ٣٩٠-٣٩١.

(٧) الرحلة ٣٦٩.

ولا ينسى العَبْدري أنْ يصف لنا الأحوال الأمنية في الطرقات وانتشار قطاع الطرق(١)، ومعاملة الحجاج في الأماكن المختلفة(٢)... إلى غير ذلك من الملامح الاجتماعية التي تستحق دراسة مستقلة.

ج - المضمون الأدبي:

غلب الجانب الأدبي على رحلة العَبْدري، لأن العَبْدريّ أديبٌ قبل أن يكونَ فقيهاً(٣) فقد تضمّنت الرحلة كثيراً من الشعر والنثر والنقد، ما يجعلها مصدراً مهمّاً من المصادر الأدبية المهمة للقرن السابع الهجري.

لن نتعرَّض لشعر العَبْدري، ولكننا سنحاول استعراض ما تضمنته هذه الرحلة من شعر لغيره من الشعراء، فقد ضمت هذه الرحلة نحو سبع مئة وألف بيت من الشعر له ولغيره، ودار هذا الشعر في أغلبه حول المعاني الدينية من زهد ووعظ ومديح نبوي.

ويعود الفضل لرحلة العَبْدري في الاحتفاظ ببعض القصائد والمقطعات التي تفرّدت بها، أو التي قلّ أن نجدها في المصادر الأدبية المختلفة، ومن هذه القصائد قصيدة ابن المولى التي مطلعها(٤).

أنسيمُ ريقِكِ أختُ آل العنبرِ ... هذا أم استنشاقةٌ من عَنْبَرِ

التي يبلغ عدد أبياتها خمسةً وثلاثين بيتاً، وقصيدة ابن الفكون في رحلته من قُسَنطينة إلى مَرّاكُش ومطلعها(٥):

ألا قُلْ للسرّيّ ابنِ السَّريّ ... أبي البَدْرِ الجَوادِ الأرْيَحيِّ

---

(١) الرحلة ٤٥.

(٢) الرحلة ٢١٦.

(٣) الوافي في الأدب المغربي ٣٩٣.

(٤) الرحلة ٦٨ -٧٢.

(٥) الرحلة ٩٧ -٩٩.

التي تبلغ اثنين وثلاثين بيتاً. والقصيدة الشقراطسية لأبي محمد عبد الله ابن يحيى الشَّقراطسي ومطلعها(١):

الحمـــدُ لله منّـــا باعــث الرّسُـــلِ   هدى بأحمَـد منّـــا أحمَـد الـسُّبُلِ

وعدد أبياتها ثلاثة وثلاثون ومئة بيت.

والقصيدة النبوية لعلي بن محمد بن منصور المالكي المعروف بابن المُنَيِّر التي مطلعها(٢):

أجب دعوَة الرحمنِ يا صاحِ تسعدِ   وبادرْ لفرضِ الحَــجّ غيــرَ مفنّــدِ

التي يبلغ عدد أبياتها خمسة وخمسين بيتاً، وقصيدة السَّخاويّ النّبوية التي مطلعها(٣):

قِــفْ بالمدينـــةِ زائـــراً ومـــسلّما   واشكرْ صنيعَ الدّمعِ فيها أن همــى

التي تبلغ خمسة وخمسين بيتاً. وقصيدته في ذكر خلفاء بني العبْاس التي مطلعها(٤):

سلام على معنى الخلافةِ والهــدى   وحيث أقام الدينُ والفضلُ والعِلــمُ

وقصيدة حازم القرطاجني المقلوبة من قصيدة امرئ القيس، إذ عمد القرطاجني إلى تشطير هذه القصيدة ومطلعها(٥):

لعينيكَ قُلْ إن زرتَ أفضلَ مُرسَــلِ   قفا نبكِ من ذكرى حبيــبٍ ومَنْــزلِ

---

(١) الرحلة ١١٩ -١٣٣.

(٢) الرحلة ٢٣٤ -٢٣٨.

(٣) الرحلة ٢٥٨ -٢٦٢.

(٤) الرحلة ٢٥٦ -٢٥٨.

(٥) الرحلة ٥٢٤ -٥٣٠.

وتبلغ ثمانين بيتاً، إضافة إلى المقطعات التي لا نعثر عليها في موضع آخر.

كما ضَمَّت الرِّحلة نصوصاً نثرية نادرة ومهمّة كخطبة أبي حفص ابن عمر السُّلَمي (ت ٦٠٣هـ) التي قال في مطلعها[١] «عبادَ الله، الدّينُ النّصيحة، فخذوها محضة صريحة، هَدْيُ الله هو الهدى، ومن اتَّبع رسل الله اهتدى، فإيَّاكم والقدماء وما أحدثوا فإنهم عن عقولهم حَدَّثوا، أتوا من الافتراء بكل أعجوبة، وقلوبهم عن الأسرار محجوبة. الأنبياء ونورهم، لا الأغبياء وغرورهم...» إلى آخر هذه الخطبة البديعة، وبرنامج محمد بن عبد الله بن داود بن خَطّاب المُرْسيّ (ت ٦٣٦هـ) الذي عدد فيه أسماء الشُّيوخ الذين لقيهم في مُرسية وأخذ عنهم، وبلغ عددهم عشرة شيوخ، وذكر ما أخذه عن كل منهم[٢].

كما ضمن العبدري رحلته بعض رسالة ناصر الدين بن المنيّر في بعض مناهل الحج وقال فيها[٣]: «ولقد تجد النفوسُ إلى تلك القفار أنسا كأنها أوطان، وكأن لأشواقها على القلوب سلطان، وإن لتلك الثّنّيات صباحةً، وإن لمياهها - وإن كانت ملحة - في القلوب ملاحةً..» إلى غير ذلك من النُّصوص النثرية النادرة.

وصفوة القول: لا يمكننا إهمال الرحلات باعتبارها مصدراً رئيساً من المصادر الأدبية لما تقدمه لنا من معلومات أدبية، وتعتمد في الغالب على الرواية، إذ قلّما نجدها في بقية كتب الأدب.

---

(١) الرحلة ٢٨٦ -٢٨٨.

(٢) انظر البرنامج في الرحلة ٦٣.

(٣) الرحلة ٢٤٣.

مختارات من رحلة العبدريّ

ذكر تلمسان

ثمَّ وصلنا إلى مدينة تلْمسَان، فوجدناها بلداً حلّت به زمانة[١] الزَّمان، وأخلّت به حوادثُ الحَدَثان[٢]، فلم تُبْقِ به عُلالة[٣]، ولا تُبصر في أرجائه للظَّمآن بِلالة[٤]. وقد شاهدتُ جمعاً من الحجّاج ينيفونَ على الألفِ وردوها، ووقفوا إلى ملكها[٥] فأعطاهم ديناراً واحداً! وأغربُ من هذا ما شاهدتُهُ من منصور صاحب ملّيكش[٦]، وهو أنّ جماعة من الحجّاج نحو العشرين، وقفوا إليه في محلّته عند بيته، فكلّموه في عشائهم فرحَّب بهم واحتفل في السّلام عليهم، ثمّ أخذ ينادي: يا أهل الدّوّار[٧]، هؤلاء ضيفانُ الله، مَنْ يحمل منهم إلى بيتِهِ واحداً؟! وجعل يكرّر ذلك كما يصنع المَدَرونَ [أهل المدر] [٨]، فلمّا لم يُجِبْهُ أحدٌ ولّى عنهم، ووراءَهُ جَمْعٌ كثيفٌ من الفُرسان، وهو سلطان تلك النّواحي.

وَتِلِمْسَانُ مدينة كبيرة، سهليّة جبليّة، جميلة المنظر، مقسومة باثنتين بينهما سور، ولها جامعٌ عجيبٌ مليح مُتَّسع، وبها أسواقٌ قائمة،

---

(١) الزمانّة: الآفة، والعاهة.

(٢) حدثان الدهر: حوادثه ونُوَبُهُ.

(٣) العُلالة من الشيء: بقيَّته.

(٤) البلالة: الماء.

(٥) كان أبو سعيد عثمان بن يغمراس بن زيان ملك تلمسان بين سنتي (٦٨١–٧٠٣هـ). انظر تاريخ الجزائر العام: ٧٣/٢.

(٦) مليكش: قبيل من صنهاجَة كانت له إيالة ببسيط متيجة قضى عليها بنو مرين لما استولوا على المغرب الأوسط (الذيل والتكملة ٢٧١/٨ حاشية رقم ٣٥٠).

(٧) الدوّار لفظة تطلق في المغرب عند الرُّحَّل، حيث يضربون خيامهم على صورة مستديرة، ثمّ عُمِّمت اللفظة فصارت تطلق على القرية. (حاشية الفاسي على المطبوع: ١١).

(٨) أهل المدر: سكّان البيوت المبنية خلاف أهل الوَبَر وهم سكان الخيام.

وأهلها ذوو لِيانةٍ ولا بأسَ بأخلاقهم. وبظاهِرِها في سَنَدِ الجبل موضع يُعْرَف بالعُبَّاد[١]، وهو مدفن الصّالحين وأهل الخير، وبه مزاراتٌ كثيرةٌ، ومن أعظمِها وأشهرِها قبرُ الشّيخِ الصّالحِ القدوةِ فردِ زمانه أبي مَدْيَن[٢]- رضي الله عنه، وَرَزَقَنا بركَتَهُ - وعليه رِباطٌ مليحٌ مخدومٌ مقصود، والدّائر بالبلد كلُّهُ مغروسٌ بالكَرْمِ وأنواعِ الثّمارِ، وسورُهُ من أوثقِ الأسوار وأصحِهّا، وبه حمّاماتٌ نظيفةٌ، ومن أحسنِها، وأوسعِها، وأنظفِها، حمّامُ العَالية[٣]، وهو مشهور، قلّ أَنْ يُرى له نظير. وهذه المدينة بالجملة ذاتُ منظرٍ ومخبر، وأنظارُها متّسعة، ومبانيها مرتفعة، ولكنّها مساكنُ بلا ساكن، ومنازلُ بغير نازل، ومعاهدُ أقفرَتْ من متعاهد؛ تبكي عليها فتنسكبُ الغمامُ الهُمَّع[٤]، وترثي لها فتتدبُ الحَمام الوُقَّع. إنْ نَزَلَ بها مستضيفٌ قَرَتْهُ بوساً، أوحلَّ فيها ضيفٌ كَسَتْهُ من رداء الرَّدى لَبوسا.

وأمّا العلْمُ فقدْ دَرَسَ رسمُهُ في أكثرِ البلادِ، وغاضَتْ أنهارُه فازدُحِم على الثِّماد[٥]. فما ظَنُّكَ بها وهيَ رَسْمٌ عَفا طَلَلَهُ، ومَنْهلٌ جَفَّ وَشَلُه[٦]، وقد

(١) العُبّاد: قرية على نحو ميل جنوبَ تلمسان، فيها قبور الأولياء التِّلمسانيين، وكانت قرية كبيرة ذات مساجد ومدارس وخانات، ثمّ تراجعت عمارتها حتّى اضمحلّت. انظر وصف إفريقيا ٢/١٨٠.

(٢) هو شعيب بن الحسن الأندلسي: من مشاهير الصوفية، وأصله من الأندلس، أقام بفاس، وسكن بجاية، وتوفي بتلمسان سنة ٥٩٤هـ. له «مفاتيح الغيب لإزالة الرَّيب وسترِ العيب». ترجمته في عنوان الدراية: ٥٥، ونيل الابتهاج: ١٢٧، وتعريف الخلَف ٢/١٨٠.

(٣) بقي هذا الحمّام قائماً إلى أن حوّله الفرنسيون أيام احتلالهم للجزائر إلى مخزن عسكري، ويقع بين ثكنة (المشور) وثكنة (كور مالة) الواقعة أمامها انظر الإعلام بِمَنْ حَلَّ مراكش... ٤/٢٨٩.

(٤) همع الماء: سال.

(٥) الثماد: الحُفَر يكون فيها الماء القليل، وغاضَ الماء: نقص أو ذهب في الأرض.

(٦) الوشل: الماء القليل يتحلّب من جبل أو صخرة، يقطر منه قليلاً قليلاً، ولا يتَّصل قَطْرُه.

حَضَرت بها مُدرّساً مذكوراً عندهم يُقرأ عليه باب التّوكيد من «الجُمَل»[١] فسمعتُه يقول: «كلا للمذكّرين، وكلتا للمذكّرتين»! وأعربوا قولَ ابن دُرَيد[٢]:

[الرّجز]

هُمُ الذّين جَرَّعوا مَــنْ مَــا حلُــوا ....

بأنّ: هُمْ: مبتدأ، والَّذين: مبتدأ ثان، وجرّعوا: خبره، والجملة في موضع خبر الأوّل! وهذا قليل من كثير، وصُبَابةً[٣] من غدير!».

(رحلة العبدري ٤٧ -٥٠)

برنامج شيوخ ابن خطاب المرسي

«يقول محمّد بن عبيد الله بن داود بن خَطّاب الغَافقي – وفّقه الله -: لقيت من الشُّيوخ ببلدتي مُرْسية[٤] – أعادها الله تعالى للإسلام – الفقيهَ الأستاذ النّحويّ أبا بكر محمّد بن محمّد المَعَافريّ الشَّهير بالقُرَشيّ، وقرأت العربيّة عليه؛ والفقيهَ الأستاذ النَّحْويّ المسنّ أبا عليّ الحسنَ بن عبد الرّحمن الكِنانيّ

(١) كتاب «الجمل» للزجاجي.

(٢) ابن دريد محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، من أئمة اللغة والأدب، توفي ببغداد سنة ٣٢١هـــ، من مؤلّفاته: الاشتقاق، والمقصور والممدود، والجمهرة. انظر: معجم الشعراء للمرزباني ٤٢٥، بغية الوعاة ١٣/١. وقولُهُ صَدْرُ بيتٍ من مقصورته، عجزه: «أفاوِقَ الضيم ممرّات الحُسا» والمماحلة: العداوة، انظر شرح المقصورة للتّبريزي: ٥٩.

(٣) الصُّبابة: ما بقي في الإناء من ماء ونحوه.

(٤) مُرْسية: مدينة بالأندلس من أعمال تدمير، اختطَّها عبد الرّحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرّحمن ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان. انظر: الروض المعطار ٥٣٩.

الشَّهير بالرَّفَّاء[1] وقرأتُ عليه «مقامات الحريريّ»، ومن شعر المتنبّي، وأكثرَ «الحماسة»[2]؛ والفقيهَ العالِمَ المسنّ أبا بكر محمّد بن مُحْرِز الزُّهريّ[3]، وقرأت عليه أكثر «التّلقين»[4] للقاضي أبي محمّد عبد الوهّاب[5]، وسمعت عليه دولاً كثيرة من «الموطّأ»، وقرأتُ عليه بلفظي «كتاب التّرمذي» كلَّه، وسمعت عليه «سنن أبي داود» بقراءة صاحبنا الفقيه أبي بكر بن حَبيش[6]، وسمعت عليه «السِّيَر» بقراءَة أبي الحسن الرُّومي المعروف ببلدنا بسَحْنون، وأنشدني جملةً مِن نظمه، من ذلك قوله لابنه الأصغر أبي عامر:

[الخفيف]

يـا بُنَـيَّ ولَـيْسَ مثلـيَ يـسهو ... عندَ وَعْـظٍ يرويـه مِثْلُـكَ عَنْـهُ

أَنْتَ ضَـيْفُ الـدُّنا فأقْلِـلْ عُيوبـاً ... مِن قِراها واخشَ الرَّدى مِن لَدُنْـهُ

---

(١) هو حسن بن عبد الرحمن بن محمد الكناني، أستاذ، نحوي، مقرئ، شاعر مطبوع، أخذ القراءات عن أبي محمد الشمُني، وتوفي سنة ٦٣٣هـ، ترجمته في التكملة ٥٢/١، بغية الوعاة ٥١٠/١ وفيه وفاته ٦٣٥هـ.

(٢) هناك أكثر من حماسة، وأشهرها حماسة أبي تمام المتوفى سنة ٢٣١هـ، وهي المرادة عند الإطلاق.

(٣) محمد بن أحمد بن عبد الواحد الزهري: فقيه، محدّث، عالم لغوي، أصله من بلنسية، واستوطن بجاية، ومات فيها سنة ٦٥٥هـ. له تقييد على التلقين، ترجمته في عنوان الدراية ٢٤١، وشجرة النور الزكيّة: ١٩٤.

(٤) هو كتاب التلقين في الفروع، وهو كتاب في الفقه المالكي، انظر كشف الظنون ٤٨١.

(٥) هو عبد الوهاب بن علي بن نصر الثعلبي البغدادي: فقيه مالكي، قاضٍ، له نظم ومعرفة بالأدب، توفي بمصر سنة ٤٢٢هـ. له: التلقين، والإفادة، والتلخيص، ترجمته في تاريخ قضاة الأندلس ٢٤٠، وفوات الوفيات ٤١٩/٢، ووفيات ابن قنفذ: ٢٣٣.

(٦) هو محمد بن الحسن بن يوسف بن الحسن بن يونس: أديب نحويّ، راوية، برع في النظم والنثر، ولد سنة ٦١٥هـ، وكان حيّاً سنة ٦٩٠هـ، انظر ملء العيبة ٨٣/٢، ونفح الطيب ٣١٠/٤.

ولقيتُ الفقيه الإمامَ العالِمَ أبا المُطَرِّف أحمد بن عبد الله بن عَميرة المَخْزوميَّ(١) ولازمته مدّةَ إقامته بمُرْسية، وقرأت عليه «التَّنقيحات»(٢) للسَّهْرَوَرْدي(٣) و«مختصر المستصفى» للقاضي أبي الوليد بن رُشْد(٤) المسمَّى بـــ «الضّروري»، وقرأت عليه بعض «التّلقين» وكان له عليه كلامٌ حَسَن، وتنبيه على مواضع منه لم أَرَ مَنْ تفطّنَ لها سواه؛ ولقيت الفقيه القاضي المسنّ أبا عيسى محمّد بن أبي السَّداد(٥)، وقرأت عليه بلفظي «شمائل النَّبيّ» ، و«كتاب مُسْلِم بن الحجّاج» من أوّله إلى آخره، و«كتاب التِّرمذي»، وسمعت بقراءة غيري عليه كثيراً من الكتب، وكان يروي عن الخطيب أبي القاسم بن حُبَيْش(٦)؛ ولقيت الفقيه أبا بكر ابن جَهور الأَزْديّ(٧)، وسمعت عليه بقراءة أبي القاسم بن نبيل بعضَ «كتاب مُسلم بن الحجّاج» رحمهم الله أجمعين.

---

(١) هو أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسين بن عميرة المخزومي: أديب، شاعر، برع في النظم والنثر، دوّنَ شعرَه وإنشاءه في مجلَّدين سمُّيا: «بغية المستطرّف وغنية المتطرّف من كلام إمام الكتابة ابن عميرة أبي المطرّف» توفي بتونس سنة ٦٥٦هـــ، ترجمته في الإحاطة: ٦٠/١، وعنوان الدراية: ٢٥٠.

(٢) هو كتاب التنقحيات في أصول الفقه. ذكره البغدادي في إيضاح المكنون ٣٣٠.

(٣) يحيى بن حبش بن أميرك: فيلسوف نشأ بمراغة من العراق العجمي، وسافر إلى حلب فنُسبَ إلى انحلال العقيدة فأفتى العلماء بقتله، فخنق في سجنه بقلعة حلب سنة ٥٨٦هـــ، من كتبه: هياكل النور، والتنقيحات، ترجمته في وفيات الأعيان ٢٦٨/٦ –الأعلام: ١٤٠/٨.

(٤) محمد بن أحمد بن رشد الأندلسي: فيلسوف من أهل قرطبة، صنّف نحو خمسين كتاباً منها فلسفة ابن رشد، والضروري في المنطق، وتهافت التهافت، تُوفّي بمراكش سنة ٥٩٥هـــ بعد أن أحرق المنصور الموحّدي بعض كتبه، ترجمته في: قضاة الأندلس، المعجب ٢٤٢ و٣٠٥، شذرات الذهب ٣٢٠/٢.

(٥) محمد بن محمد بن أبي السّداد المرسيّ: قاض، فقيه من أهل مُرْسية، سمع أبا القاسم ابن حبيش وغيره، وأجاز له ابن الجد وابن زرقون وابن بونة وغيرهم، توفي سنة ٦٤٢هـــ، ترجمته في التكملة ٣٥٧/١.

(٦) عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصاري الأندلسي: مؤرخ، عالم بالقراءات وعلوم العربية، من الحُفّاظ، ولي القضاء بجزيرة «شُقر» ثم بمُرْسية حيث تُوفي فيها سنة ٥٨٤هـــ له المغازي. ترجمته في بغية الوعاة ٨٥/٢، نيل الابتهاج ١٦٢.

(٧) محمد بن محمد بن يوسف بن أحمد بن جهور الأزدي: أخذ عن الكثيرين من المحدثين، وكان له حظ من النظم والنثر، توفي سنة ٦٢٩هـــ. انظر ترجمته في التكملة ٣٣٨/١.

وممن لقيته من الرُجال الصلُّحاء بمُرسية – نفع الله بهم – الفقيهُ أبو العبّاس الطَّرَسُونيّ[1]، كان رحمه الله – أحد الزّهّاد؛ والفقيه أبو عبد الله السّمار المؤدّب، وكان أحدّ الفُضَلاء الزُّهاد؛ والفقيه الخطيب بجامع مُرْسية أبو عبد الله بن فَتْح؛ والفقيه الورع أبو عبد الله النَّجَّار، كان شديد الانقباض عن عِشْرَةِ النّاس، وتُؤثَر عنه في الوَرَع أخبارٌ حِسان، رحم الله جميعهم ورضي عنهم».

(رحلة العبدري ٦٣ -٦٦)

ترجمة تاج الدين الغرّافي

ولقيتُ بالإسكندريَّة سيدي الشَّيخَ الأجلَّ، الرَّاويةَ، المحدّثَ، الشَّريفَ، الأوحدَ، ذا الحَسَبِ الباهر، والشَّرفَ الظَّاهر، والأخلاقَ المُعربةَ عن الكمال، والعِزّةِ الفاضلةِ الَّتي تدلُّ عليه من غير سؤال، سليلَ بيتِ النُّبوَّة، وحليفَ الفضلِ الظّاهر والمروّة، تاجَ الدِّين، أبا الحَسَن، عليَّ بنَ الشَّيخ الفقيهِ العالمِ المحدّثِ أبي العبّاس أحمد بن عبد المُحْسن الحُسَيني الغَرَّافي[2]، حفظَ الله عليه ما منحَهُ من الفضائل؛ وما أقام له على صحّة كماله من الدَّلائل؛ لقيتُهُ فرأيتُ منهُ فضلاً لو تجسَّدَ لملأَ الفضاء؛ وعقلاً سلبَ النِّيق[3] الرّكانةَ[4] والمُرهَفُ المضاءَ، وبشْراً لو كان في وجهِ الدَّهْرِ لم تُخْشَ نوائبُه؛ وأريحيّةً علويَّةً لوحلّت في هَرِمٍ لاهتزّت من الشَّبابِ ذَوائِبُه؛ وتواضُعاً أسكنَه مُهَجَ القلوب، وأحلّه منها مَحَلّ الغرض المطلوب. له روايةٌ عاليةٌ متَّسعة ببغداد والعراق ومصر، وله رحلةٌ إلى الحجاز حجَّ فيها. وقد جمعَ أسماءَ شيوخِهِ في

---

(١) أحمد بن محمد بن أحمد الطرسوني، عالم فقيه محدث روى عنه ابن سعيد وغيره، أخذ عنه كثيرون. توفي بنبوط سنة ٦٢٢هــ. ترجمته في الذيل والتكملة ١ -٣٩١/١.

(٢) توفي تاج الدين الغّرافي سنة ٧٠٤هــ انظر شذرات الذهب ١١/٦.

(٣) النّيق: الجبل الطويل.

(٤) الركانة: السكون والوقار.

«برنامجٍ» له، وهو شيخٌ مفيد مُمتعُ المجالسةِ، كثير التَّواضعِ، مُتفنّن في العلم، متين الدّينِ، قويّ الرّجاءِ في أهله، حَسَن الظّنِ بهم، سُنّي المُعتَقد، شافعيّ المذهبِ، خيرٌ كلُّهُ، نفعهُ الله ونفعَ بهِ، سألته عن معنى نسبته: الغرَّافي، فقال لي: غَرَّافُ موضع بالعراقِ وكان موضعَنا فَنُسبْنا إليه.

قرأت عليه «ثلاثيّاتِ البُخاريّ»[١] وكتبتُها من أصلِهِ، وحدّثني بها عن الشَّيخِ الصَّالحِ أبي الحَسن عليّ بنِ أبي بكر بن عبد الله بن رَوْزَبَةَ القَلانسيّ سماعاً لجميع «البُخاريِّ» عليه، عن أبي الوَقت عبد الأوّل بن عيسى بن شُعيب السِّجْزيّ سماعاً عليه عن أبي الحسن بن عبد الرَّحمن بن محمّد بن المُظَفَّر الدَّاوديّ البوشَنجْيّ عن أبي محمَّد عبد الله بن أحمد بن حَمَويه السِّرخسيّ عن أبي عبد الله محمَّد بن يوسف بن مَطر الفِرَبْريِّ عن البخاري».

(رحلة العبدري ٣٤٥ -٣٤٦)

وصف تونس وأهلها

«وما زالت مدينة تُونس – كلأها الله – دارَ مُلْكٍ وضخامةٍ، وهي الآن دار مملكة إفريقية على ضَعْفِ المملكة بها، وانتهائِها إلى حدِّ التَّلاشي، ومع ذلك فقد أربَتْ على البلادِ في كلِّ فضيلةٍ، وما رأيت لأهلِها نظيراً شرقاً وغَرْباً، شيماً فاضلة، وخِلالاً حميدة، ومعاشرة جميلة، وقد كان الأخلقُ بمن شاهَد أخلاقهم أن يُطنِبَ في وَصْفِهم، ويُضْربَ عَمَّن لم يمحضْهُم الودادَ وينصفهم؛ إذ ذاكَ من بعضِ واجِبِهِم، وأقلّ مراتبهم، ولكنّ الزَّمان لا يُعين على توفيةِ الحقوقِ، ولا يتعمّد بالفراغِ إلاّ أهلَ العقوقِ، وناهيك من بلدٍ لا

---

(١) والمراد به ما اتصل إلى رسول الله r من الحديث بثلاثة رواة، وتنحصر الثلاثيات في صحيح البخاري في اثنين وعشرين حديثاً الغالب عن مكي بن إبراهيم وهو ممن حدثه عن التابعين وهم في الطبقة الأولى من شيوخه. انظر كشف الظنون ٥٢٢.

يستوحشُ به غَريب، ولا يُعدمُ فيه كلُّ فاضلٍ أديب؛ يبدَؤون مَنْ طَرَأَ عليهم بالمداخلة، ويخطبونَ مِنْهُ لفضلِ طباعهم المواصلَة، فهو منهم بين أهلٍ مُشْفق، ورفيقٍ مُرْفق؛ وقد كان بعضُ أخيارِ طَلَبَتها وحسبائِهم لازَمَني مدّةَ الإقامة بها وتَرَكَ لأَجْلي مُهِمَّاتِ أُمورِه، وعرّفَني بِفُضلائها، وكان لا ينفَصلُ عنّي عامَّةَ النَّهار، وكثيراً ما كنتُ أمرُّ بمَنْ لا يعرفُني مِن أهلِها، فأسأله عن الطَّريقِ، إلى ناحيةٍ منها، فيقومُ من حانوتِه ماشياً بين يديَّ يسألُ الناسَ عن الطّريق، ويدلُّ بي، وهذا من أغرب ما يسمع من جميل الأخلاق **(وَذَلِك فَضْلُ اللهِ يُوْتِيه مَنْ يَشَاءُ)**[1]. ولولا أنّي دخلتُها لَحَكَمْتُ بأنَّ العِلْمَ في أُفُقِ الغَرْبِ قد مُحِيَ رَسْمُه، ونُسيَ اسمُه، وضاع حظُّهُ وقسمُه، ولكنْ قَضى الله بأنّ الأرضَ لا تخلو من قائمٍ له بِحُجَّة، يرى سبيل الحقّ ويُوضح المَحَجَّه[2]، وما مِن فنٍّ من فنون العلمِ إلاّ وجدتَ بتونسَ به قائماً، ولا موردٍ من مواردِ المعارفِ إلاّ رأيتَ بها حَوْلَهُ وارداً وحائماً[3].

وبها من أهل الرّواية والدِّراية عَدَدٌ وافر، يجلو الفخارُ بهم عن مُحيَّاً سافر، وينيُر عِلْمُهُمْ وقد:

....   **أَلْقَتْ ذُكاءُ يَمِيْنَهَا فـــي كَـــافِرِ**[4]»

(رحلة العبدري ١١٢ -١١٤)

---

(١) من الآية ٥٧ من سورة الحديد.

(٢) المحَجَّة: الطريق المستقيم.

(٣) وحَوَمَانُ الطائر: دورانه حول الماء.

(٤) عجز بيت لثعلبة بن صعير المازني يصف الظليم والنعامة ورواحهما إلى بيضهما عند غروب الشمس، وصدره: «فَتَذَكَّرا ثَقَلاً رثيداً بعدَمَا...». وذُكاء: اسم للشمس. و«ألقت يمينها في كافر»: بدأت في المغيب. والبيت في المفضليّات: ١٣٠، والأمالي: ١٤٥/٢، ونضرة الإغريض: ١٣٦، واللسان «ثقل» و«كفر» والتاج «رثد».

وصف أخلاق أهل مصر

«... وقد رأيت فيهم من قلّةِ الحَياء، وعَدَمِ التّنزُّه عن الخَنا والفُحْشِ. ومن قلّةِ التّستّر عند قضاءِ الحاجةِ والأكلِ ما تقضّيتُ منهُ العَجَب. وأمَّا بُغضُهُمْ للغريب، وتمالؤهم على ذلك، فأمرٌ لا يحيطُ به علماً إلاّ مَنْ عايَنَهُ، وقد رأيتُهمْ في طريقِ الحجاز إذا سمعوا مهارشةَ شخصٍ منهمْ لغريبٍ يتجارَوْن إليهِ من كلِّ ناحيةٍ كما تصنعُ الكلابُ إذا رأت كلباً غريباً بينَها. وما رأيتُ بالمغربِ الأقصى والأندلسِ على شكاسةِ أخلاقهم، ولا بإفريقيةَ وأرضِ بَرْقة والحِجازِ والشّامِ فريقاً من النَّاس أرذلَ أخلاقاً، وأكثر لؤماً وحَسَداً، ومهانةَ نفوسٍ، وأضْغَنَ قلوباً، وأوسخَ أعراضاً، وأشد دَمامَة[1] وخيانَةً، وسَرِقَةً وقساوةً، وأجفى للغريبِ من أهل هذه المدينة، ناهيكَ من قومٍ جعلوا الخنا شعارَهُمْ، والحَسَدَ المؤرِّث للضّنا[2] دِثارَهُمْ. فترى الشُّيوخَ منهمْ يتهارشونَ في الطّرقات، ويقطعونَ بلَعْنَةِ أسلافِهِم فسيحَ الأوقات. وقلّما يصدر من صبيانِهم ما يصدرُ منهم. ولا يُؤثَرُ عن أطفالِهم ما يؤثرُ عنهم، وقدْ قيل فيهم: إنّهم أعقلُ النَّاسِ صغاراً، وأحمقهُمْ كباراً. حكاه أبو عُبَيْد البَكْرِيّ في كتابه المسالك. وحكى فيه أيضاً أنَّ أبا دُلامَةَ[3] جاءَ إلى مِصْرَ ثم رَجعَ فسُئِلَ عنها فقال: ثُلْثُها كلاب، وثُلْثُها تراب، وثلثها دَواب، فقيل له: فأين النَّاس؟ فقال: في الثُّلث الأوّل.

وقلّما ترى من أهلها رجلاً صافيَ اللّونِ إلاّ إن كان من غيرِها. ولا رَجُلاً طَلْقَ اللسانِ. واللُّكْنَةُ فيهم فاشيةٌ، وجمهورهم يجعل القافَ والكاف همزةً. وقد

---

(١) الدمامة: قبح المنظر.

(٢) الضَّنا: المرض والهزال.

(٣) أبو دلامة: زند بن الجون الأسدي بالولاء. شاعر مطبوع. نشأ بالكوفة، واتصل بالخلفاء العباسيين، وكان يُتّهم بالزندقة لتهتكه. توفي سنة ١٦١هـ. ترجمته في وفيات الأعيان ٣٢٠/٢ – الأغاني ٢٣٥/١٠-٢٧٣ معاهد التنصيص ٢١١/٢ – غربال الزمان ١٥٠.

سمعتُ شخصاً منهم في التَّلبيةِ يقول: لَبَّيْكَ اللّهمَ لَبَّيْكَ، ويجعل كافاتها كلَّها همزاتٍ، فلو سمعتَه سمعتَ كلاماً مُضحكاً.

وأمّا العُقوقُ بينهم فمتعارفٌ؛ كانَ معنا في طريقِ الحجازِ شخصٌ منهمْ حجَّ بأمّهِ، فكان إذا اغتاظ عليها يقولُ لها: لعنَكِ الله، ولعنَ الَّذي آواك –يعني أباه– وذلك بعد ما حجّ بها. وسمعتُ شخصاً منهمْ ينادي رفيقَهُ في الركْبِ، فلمّا أتاهُ لعنَهُ ولعنَ أباه، وقابلَهُ الآخرُ بمثلِ ذلك، وتهارشا[1] زماناً ثمَّ قعدا يأكلان.

(رحلة العبدري ٢٧٨ -٢٧٩)

ترجمة ابن دقيق العيد

«وممَّن لقيتهُ بها الشَّيخُ، الفقيهُ المحدّثُ، الأصوليُّ، المتفنّنُ، عالمُ الدِّيارِ المصريَّة تقيُّ الدِّين أبو الفتحِ محمّدٌ بنُ عليٍّ بن وَهَبٍ بن مطيعٍ بن أبي الطّاعَة القُشَيْريّ[2]، ويعرف بابنِ دقيقِ العيد، صاحبُ المدرسةِ الكامليَّة. لقيت منه حَبْراً كاملاً عالماً يحقّ له اللّقاء، وبَحْراً من علمٍ لا تكدّره الدِّلاء[3]، وطبّاً آسياً يشفي بقولِهِ الدّاءَ العيَاء، له تفنّنٌ في فنون العلوم، وتسلّطٌ عليها بذهْنٍ يردّ المجهولَ إلى المعلوم، وقلّما يُلفَى له في سعة المعارفِ نظير، أو يوجدُ مَنْ يماثله في صحَّةِ البَحْثِ والتَّنْقير[4]، ولهُ في البلادِ ذكرٌ شَهير، وصيتٌ مُستطير، وخَطَرٌ خَطير، يَضربُ في كُلِّ فنٍّ بِسَهْمٍ مُصيب، ويَحظى منهُ بأوفرِ نصيب، ولقيَ جماعةً منَ الأعلامِ فأخذَ عنهمْ وحَصَّل؛ ومازال يُؤصِّلُ نفسَهُ في المعارفِ حتَّى تأصَّل. فهو الآنَ قُطْبُ مِصْرَ وَعَلَمُها، لولا وسوسةٌ تَصْحَبُهُ، وأخلاقٌ يجلُّ عنها مَنْصِبُهُ، لو

---

(١) تهارشا: تخاصما وتقاتلا.

(٢) توفي ابن دقيق العيد سنة ٧٠٢هـ. انظر شذرات الذهب ٥/٦.

(٣) أفاد من قول حسان في ديوانه ١٠:

لساني صارمٌ لا عيبَ فيه   وبحري لا تكدّره الـدلاءُ

(٤) التنقير: التفتيش.

كانت لها صورةٌ كانَتْ أشنعَ الصّور؛ أو تُليتْ لهُ سُورةٌ كانَتْ أبدعَ السُّوَر، وكان في أوَّلِ أمرِهِ مالكيّاً على رأيِ أبيهِ، ثم انتقلَ بَعْدُ شَافعيّاً لصورةٍ تسمُج، وقضيّةٍ عن أحكامِ المُروءَةِ تخرُج. وقَدْ ذكرَ لي عَنْهُ بعضُ مَنْ أَثِقُ بِهِ ممّنْ لهُ بهِ اختصاص، كلاماً في حَقِّ الإمامِ مالكٍ – رضي الله عنه – جارياً على سَنَنِ أخلاقِه، ودالاً على إنهاجِ[1] ثوبِ المروءةِ وإخلاقِه. ومن جُملةِ ما يَصْحَبُه من الوسواسِ أنّه لا يُمَسُّ منه عضو ولا لباس، بل يَقْتَصِر الواردُ عليهِ على الإشارةِ بالسَّلامِ إليهِ، وحطِّ الرَّأسِ على العادةِ النَّميمةِ بين يديه[2].

وقد حدّثني عنه بعضُ من أثقُ بهِ أنّه يأتي إلى جابيةِ الماءِ في شِدّة البَرْدِ، فينغمسُ فيها بثيابهِ لأقلَّ وسوسةٍ تعتريه، حتَّى أَثَّرَ ذلك في ضَعْفِ قوّتِه، ولاحَ أثره في اختلال صحّته. ورأيتهُ وهو يُملي عليّ من حديثه يُمسك الكتابَ بعودين، ولا يَمسُّهُ بيده، ويعاني تصفّحه كذلك، فيكابدُ منه شِدّةً لَهبُها يُضرَم، وحبلُ الرَّاحةِ لأجلها يُصرَم، ويحلُّ بالكتب منه العذاب المهين والبلاء المبرَم.

وقد أجازني جميعَ ما حدّثَ بهِ من مسموعاتِهِ، وجميعَ ما صَدَرَ عنهُ من نَظْمٍ ونَثْرٍ، وكذلكَ أجازَ وَلَدي محمّداً – وفقّهُ الله – وقيَّدَ لي بذلك خطَّ يَدِه، وقَيَّد لي بخطِّه مولدَه، وذكر أنّه كانَ بيَنْبُعَ[3] من البلادِ الحجازيَّة في يومِ السَّبتِ الخامسِ والعشرينَ من شَعبان من عام خمسة وعشرينَ وستِّ مئة. ووقفَ على ما تقيّد من هذه الرِّحْلَةِ واستحسَنَهُ، وأفادني فيها أشياءَ، وقيَّد منها وفاة الشَّقراطِسِيّ صاحبِ القصيدةِ المشهورةِ، حسبما تقيّدت في موضعها فيما تقدّم، وذكر لي أنّهُ طالَما بحثَ عنها فلَمْ يَجدّها».

(رحلة العبدري ٢٩٩ -٣٠١)

(١) نهجَ الثوب: إذا بلي.

(٢) ذَكر التجيبي في مستفاد الرحلة والاغتراب ١٧ أمثلة كثيرة على وسواس ابن دقيق العيد.

(٣) يَنْبُعْ: ميناء بين مكة والمدينة، على سبع مراحل من المدينة، وعلى ليلة من جبل رضوى. انظر ياقوت ٤٤٩/٥.

أسماء مكَّة

قال الله جلّ ذكرُهُ: (**إنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ للنّاسِ للَّذي ببَكَّةَ مُبَارَكاً**[١]). وقال: (**وَهُوَ الذّي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ، وأَيْدِيكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ**)[٢]. فاختُلِفَ في هذين الاسمين، فقيل: هما واحدٌ، والباءُ تُبدَلُ من الميم. كما يقال: لازم ولازب. وقيل: مكّةُ بالميم اسمُ البلد، وبالباء موضعُ البيتِ، وقيل: بكّةَ بالباء بطن مكَّة، وقيل موضع المسجد والبيت، وهذا كلّه متقارب، واختلف في اشتقاق الاسمين فقيل: بكَّة بالباء مشتقّة من الازدحام، وأنشد أبو عبيدة[٣]:

[الرّجز]

إذا الشَّريبُ أَخَذَتْهُ أكّهْ فَخَلِّهِ حتَّى يَبَكَّ بَكّهْ[٤]

وقيل: من بَكّ العُنُقِ وهو التواؤها، لأنَّهُ ما فَجَرَ فيها أحدٌ في الدَّهْرِ الأوّلِ إلاّ أصبحتْ عُنُقهُ ملتويةً.

قلتُ: ويحتمل أَنْ يكون من بكَّ الشَّيء إذا فرّقه، لتفرُّقِ النَّاسِ منها في كُلِّ جهة عند فراغِ الحجّ، قال امرؤ القيس[٥]:

[الطويل]

ولله عَيْنَا مَنْ رأى مِنْ تَفَرُّقٍ أشَتَّ وأنأى مِنْ فِراقِ المُحَصَّبِ

---

(١) سورة آل عمران من الآية ٩٦.

(٢) سورة الفتح من الآية ٢٤.

(٣) أبو عبيدة معمر بن المثنى من أئمة العلم بالأدب واللغة له: نقائض جرير والفرزدق، ومجاز القرآن، والخيل. توفي بالبصرة سنة ٢٠٩هـ. ترجمته في بغية الوعاة ٢٩٤/٢. والبيتان في النوادر في اللغة لأبي زيد الأنصاري ١٢٨، والسيرة لابن هشام ١٠٥/١. وقد عزاهما لعامان بن كعب بن عمرو بن سعد بن زيد مناة بن تميم، انظر المناسك ٤٧٣، وفي معجم البلدان ١٨١/٥. واللسان أكك.

(٤) الشريب: الذي يُشرب معه، والذي يسقي إبله مع إبل صاحبه. يقول: إذا ضاق الشريب وساء خلقه وغضب عند الحوض فدعه يبك إبله بكّة؛ أي يقبلها الحوض يصرفها إليه. والأكّة: الحمية. النوادر ١٢٨.

(٥) ديوان امرئ القيس ٤٢.

وأما مكّةُ بالميم فقيل: هي من قولهم[١]: امْتَكَّ الفصيلُ ما في ضَرْعِ أمّهِ إذا مَصَّه مصّاً شديداً، سمِّيت بذلك لاجتذاب النَّاسِ من الآفاق، أو لاستقصائها محو الذُّنوبِ، أو لقلّة مائها[٢]، حكاه ابن دُريَد. أو لأنَّها تنقصُ من ظلم فيها، وقيل: هي من المُكاء وهو الصَّفيرُ، قال الله عزّ وجلّ: **(ومَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِنْدَ البَيْتِ إلاّ مُكاءً وتَصْدِيَةً)**[٣]، حكاه الزَّجْاجيّ، ولا يصحّ لأنّ المُكاءَ معتلّ، من مكا يمكو إذا صَفر، ومكّة من المضاعف.

وقيل: سُمِّيت بذلكَ لارتفاعِ الجبالِ عليها، من المُكوكِ وهو مكيال مرتَفِعُ الجوانبِ، قال الزَّجاجي: وقد تكلّمتْ بهِ العَرَبُ وجاء في أشعارِ الفُصحَاءِ. قلتُ: وهذا بعيدٌ متكلَّفٌ لاخفاءَ بضَعْفِهِ، وقيلَ: مكّة من الامتكاكِ وهو الازدحامُ مثلما تقدّمَ فيها بالباءِ.

ولها أسماءُ مَكّة، وبكّة، وصلاحُ معدول، والعَرْشُ، والقَادِس، والمُقَدَّسَةُ، والنَّسَّاسةُ والنّاسّةُ بنون وسين مهملة، والبَاسَّةُ بالباء، والبيتُ العتيق، وقيل: هي الكعبةُ، وأمّ رُحمٍ بضم الرَّاء، وأمّ القُرى، والحاطمةُ، والرَّأسُ، مثل رأسِ الإنسان، والبَلْدةُ، وقيل هي مِنى، والقريةُ القديمة، والبلْدَةُ الحرام، حكاها عِياض في مشارقِه[٤]. فصلاحُ مَعدولة عن صالحة، والعرش: السّرير، لأنَّها أرفعُ البلادِ، والقادس والمقدّسة من الطَّهارةِ، والنَّساسةِ من نَسَّ الشَّيء أي[٥] أذهَبَهُ، حكاه السُّهيليّ لأنّها تذهب الظَّلَمَه وتبيدهم، وبالباء من البَسّ وهو الفَتّ[٦] بمعنى الأوَّل، والعتيق: القديم، وقيل: لعتقها من تملّك الجبابرة عليها أو من تَجَرْهَمَ[٧] فيها.

---

(١) اللسان: مكك، مشارق الأنوار ٣٩٢/١.

(٢) مشارق الأنوار ٣٩٢/١.

(٣) سورة الأنفال من الآية ٣٥.

(٤) مشارق الأنوار ٣٩٢/١.

(٥) قول السهيلي في الروض الأنف ١٣٩/٢.

(٦) الفَتُّ: الدقّ والكسّر.

(٧) الجُرْهُم: الجريء في الحرب وغيره.

والرَّحم: الرَّحْمَةِ، وأُمُّ الشّيء، أصلُهُ أي موضعُ الرَّحْمَة. وأمُّ القُرى أصلّها، لأنَّ الأرضَ دُحيت من تحتها، قاله الهَرَويّ[1]. والحاطمة مهلكة الظالمين. والرّأسُ معروف لأنَّها في البلاد كالرّأسِ في الجَسَدِ. والبَلْدَةُ الحَرَام: لاحترامِ الله عزّ وجلّ إيَّاها وتعظيمه لها».

(رحلة العبدري ٣٧٦ -٣٧٨)

قبة الصخرة

وفي وسط فضاءِ المسجدِ[2] قُبَّةُ الصَّخْرَةِ[3]، وهي من أعجبِ المباني الموضوعةِ في الأرضِ وأتقنِها، وأغربِها، قد نالَتْ من كلِّ حُسنٍ بديعٍ أوفَر حِصّة، وتلت في الإتقانِ ظاهرَه ونصّه، وتجلّت في جمالها الرّائع كعروسٍ حسناءَ جُليت على مِنصّة. قامت مشرفة متبرّجة على يَفاع[4]، تُصَرِّحُ وتلوّح بالإعراب والإبداع، وتفصح بما يشرح عن فضيلةِ الصُنّاع، حَسّنها الأوّلُ فاستحسنَها الآخرُ وانعقد الإجماع؛ تنازعَ الكمال منها الظّاهرَ والباطن، لِمَا سَلِما معاً من كل عائب وشائن، واجتمعت في كليهما أشتاتُ المحاسن. فإن أدلى الظّاهرُ بحُجته إلى حكمِ الطَّرفِ حَكَمَ له، وإن أعرب الباطِنُ عن فضائلِه قالَ له الطَّرف: ما أكملَهُ!. تناصَف الحُسْنُ، وتماثلت الأدلّة، فليس إلاّ أن يقال في جواب المسألة أيّهما جاء أوّلاً عَمِلَ عَمَلَهُ.

---

(١) هو عبد الله بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن غفير: عالم بالحديث من الحفاظ، من فقهاء المالكية مات بمكة سنة ٤٣٤هـ أو ٤٣٥هـ له مصنفات منها تفسير القرآن، والمستدرك على الصحيحين، ومعجمان، ترجمته في ترتيب المدارك ٦٩٦/٤ – غربال الزمان ٣٥٥. شذرات الذهب ٢٥٤/٣، وفيات ابن قنفذ ٢٤٠ – شجرة النور الزكية: ١٠٤.

(٢) أراد المسجد الأقصى.

(٣) انظر وصف قبّة الصخرة والمسجد الأقصى في الأنس الجليل ١٦/٢.

(٤) اليفاعُ: المرتفع من كل شيء، يكون في المشرف من الرمل والأرض والجبل وغيرها.

وَصِفَتُها أنَّها قُبّةٌ مثمّنةٌ على نشزٍ[1] في وَسَطِ المسجد، ويُطلع إليها في دَرَج من رُخام قد أحاطَ بها. ولها أربعةُ أبوابٍ، والدّائر مفروشٌ بالرُّخامِ المحكم الصَّنْعةِ، وداخِلُها كذلك. وفي ظاهرها وباطِنها من أنواعِ التّزويقِ ما يقصرُ عنهُ الوَصْفُ.

وأمّا الذَّهَبُ فما رأيتُهُ مبتذَلاً في شيء كابتذاله في هذه القُبَّةِ، حتّى لقد غُشّي[2] به أكثرُها ظاهراً وباطناً، فهي تتلألأُ ساطعَةَ الأنوار؛ كلمعانِ برقٍ أو اشتعالِ نار، وقد ذُهِّبَ الأعلى من ظاهرِها إلى حدِّ التَّسقيف. وأُلبس سَقْفُها ليِّن الرَّصاصِ المحكمِ الإلصاقِ حتّى صارَ جَسداً واحداً. أمّاَ باطِنُها فيكِلُّ عن وصفهِ اللّسان، ويحارُ في حُسنه إنسانُ الإنسان، تبهَرُ النّاظرَ أشعّتُهُ الباهرة، وتستوقفُ الخاطرَ محاسنهُ الظّاهرة. اسكرَت العقولَ فصارتْ لها عقالاً، وأكلَّت الألسنَ فما وَجَدتْ مقالاً، فاقت حُسناً وكمالاً، فقطعت لسان من يغمز[3]، وراقت حُلى وأوصافاً فأسَرَت فؤاد المتحرِّز؛ إن وَعَدَت الإعجاب خَبَراً فهي مُشاهَدَةً تُنْجِز، أو افتخر مكانٌ لتَحدَّثَ من حُسنِها بالمُعجِز[4]:

[الكامل]

شَرَكُ العُقولِ ونُزْهَـةٌ مـا مثْلُهـا　　　لِلنَّاظِرينَ، وعُقلَـةُ المُـسْتَوْفِزِ[5]

وفي وسط القُبَّةِ الصَّخْرَةُ[6] التي جاء ذكرُها في الآثار، وأنّهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلام عرجَ عنها إلى السَّماءِ. وهي صخرةٌ صَمّاءُ. عُلوّها أقلُّ من

---

(١) النَّشز: ما ارتفع وظهر من الأرض.

(٢) غُشِّيَ: غُطِّيَ.

(٣) يغمز: يطعن.

(٤) البيت لابن الرومي، وهو في ديوانه ١١٦٤.

(٥) الرواية في الديوان

شرك النفوس وفتنةٌ ما مثلها　　　للمطمئن، وعقلة المـستوفر

والمراد: أن حديثا يقيّد العَجِلَ فيطمئن ولا يبرح.

(٦) انظر وصف الصخرة الشريفة في الأنس الجليل ١٦/٢.

القامَةِ، وتحتَها شِبْهُ مَغارةٍ على مِقدارِ بيتٍ صغيرٍ يعلو قَدْرَ القامَةِ، ويُنْزَلُ إليه في دَرَجٍ، وقد هُيِّئ لهُ مِحرابٌ وسُوّيَ وأُتقِنَ.

وعلى الصّخرة شُبَّاكانِ مُحكمانِ يُغلقانِ عليها؛ أحدُهما، وهو الخارجُ من خشبٍ، والآخرُ من حديدٍ أو صُفْرٍ[1] محكمِ العَمل، بديعِ الصّنعةِ.

وفي القُبَّةِ صورةُ دَرَقةٍ كبيرةٍ من حَديد، معلّقة هنالك؛ وأظنّها كانت مرآة، ولكنّها قد صَدِئت وزال صقالها، والعَوَام يقولون: إنّها درقة حمزة[2]، واشتُهِرَ عندهم هذا الزُّورْ، حتّى صار في حَدّ المقطوعِ به.

(رحلة العبدري ٤٧٠ -٤٧٢)

قصيدة ابن المولى[3]

أَنسيمُ ريقِكِ أُخْــتَ آلِ العنبــرِ ... هذا أَمِ استنشاقةٌ مـــن عنبــرِ
ونظامُ ثَغْرِكِ مَا نَرَى أمْ لَمْعَــةٌ ... مِنْ بارقٍ أمْ مَعْدِنٌ من جَــوْهَر
أَوْدَعتِني، وجمالَ وجْهِكِ، حُرقَةً ... أَلهبْتِ جَمْرَتَها بطَــرْفٍ أَحــوَرِ
قوْلي لِطَرْفِكِ أنْ يَرُدَّ عَنِ الحَشَا ... لَذَعاتِ نيرانِ الهوى ثمَّ آهجري
٥ - وَانْهَيْ جمالَكِ أَنْ يُصيبَ مقاتِلي ... فَتُصيبَ قومَكِ سَطْوَةٌ من مَعْشَري
إنّي مِنَ القَومِ الَّــذينَ جيــادُهُمْ ... هَبَّتْ على كِسْرَى بريحٍ صَرْصَــرِ[4]
فَأَثَرْنَ نَقْعَاً ما انثَنَــتْ أَثْنــاؤهُ ... حَتَّى تَشَتَّتَ فَوقَ هامَةِ قَيْــصَرِ
فَسَلَبْنَ تاجَ المُلْكِ غَصْباً بالقَنَــا ... وأَجَزْنَ بابَ الدَّرْبِ آلَ الأصفرِ

---

(١) الصُّفْر: النُحاس الأصفر.
(٢) الدرقة: ترس من جلد ليس فيه خشب.
(٣) هو محمد بن عبد الله بن مسلم، مولى بني عمرو بن عوف، من شعراء الدولتين الأموية والعباسية توفي حوالي سنة ١٧٠هــ. انظر الأغاني ٢٨٦/٣ معجم الشعراء ٢٤٢.
(٤) الرّيح الصّرصَر: الشديدة البرد أو الصوت.

آبايَ مِنْ كَهْلانَ أربابُ الــورى ... وبنو الملوكِ عُمومتي مِنْ حِمْيَرِ
ضربوا بلادَ الصِّينِ بالبيضِ الّتــي ... ضَرَبوا بها كِسْرى صَبيحَةَ «تُــسْتَرِ»[١]
والأَمنَ ما بينَ الشّآمِ وفــارسٍ ... بالحارثِ الجَفنيِّ وابنِ المُنْــذِرِ
أولادُ جَفْنَةَ مَعْــشَري وكــأنَّهم ... آسادُ غِيلٍ فوقَ خَيْلٍ ضُــمَّرِ[٢]
وَطِئَتْ ببَدْرٍ مِن قُــرَيْشٍ خَيْلُنَــا ... سَاداتِها تَحْتَ القَنَــا المتَكَــسِّرِ
ونَصَرْنَ في الأحْزَابِ حِزْبَ محمَّدٍ ... وكَسَونَ مؤتَةَ ثَوْبَ مَوْتٍ أَحْمَرِ[٣]
وَطَوَيْنَ يومَ الفَتحِ شِرْكاً ظاهراً ... ونَشَرْنَ أثوابَ الهُدى في خيبَرِ[٤]
وَطَلَعْنَ مِنْ أرجا حُنَيْنٍ شُــزَّباً ... يحمِلْنَ كُلَّ سَليلِ حَرْبٍ مِسْعَرِ[٥]
ما إنْ يُريدُ إذا الرِّماحُ تشاجَرتْ ... دِرعاً سِوى سِربالِ طِيبِ العُنْــصُرِ[٦]
يَلقَى السُّيوفَ بوجهِهِ وبِنَحْــرِهِ ... ويقيمُ هامتَه مقــامَ المِغْفَــرِ[٧]
ويَقولُ للطِّرْفِ: اصْطَبِرْ لشَبا القَنَــا ... فَعَقَرْتُ رُكْنَ المجْدِ إنْ لَمْ تُعْقَرِ
وإذَا الفَوارسُ عَدَّدَتْ أَبْطَالَهــا ... عَدُّوُهُ في أبطــالِهِمْ بالخِنْــصِرِ
وإذا تأمَّلَ شَخْصَ ضَيْفٍ مُقْبِــلٍ ... مُتَسَرْبِلٍ أثْــوابَ مَحْــلٍ أَغبــرِ
أوْما إلى الكَوْماءِ: هذا طــارقٌ ... نَحَرَتْنيَ الأعداءُ إنْ لم تُنْحَــرِي[٨]

---

(١) تستر: تعريب «ششتر» المدينة المعروفة بخوزستان.
(٢) جفنة بن عمرو بن مزيقياء أمير غساني جاهلي، والغيل: موضع الأسد.
(٣) الأحزاب: جنود الكفّار من قريش وغطفان وبني قريظة من يهود. ومؤتة: قرية من قرى البلقاء على حدود الشام، وفيها استشهد الأُمراء: جعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة – رضي الله عنهم.
(٤) خيبر: ناحية على ثمانية بُرُد من مكة، غزاها النبي r سنة سبع أو ثمانٍ للهجرة، وكان يسكنها اليهود.
(٥) خيل شُزَّب: أي ضوامر. وحنين: وادٍ قرب مكة.
(٦) تشاجرت: تشابكت.
(٧) المِغفر: بيضة الحديد على الرّأس.
(٨) الكوماء: المراد بها الناقة الضَّخمة السّنام.

فإذا أردتَ بأن ترى أُسْدَ الشَّرى   فَدَعِ الرِّماحَ لمِذْحَجٍ والأَشْعَرِ(١)
كَمْ قد ولَدْنا من رئيسٍ قَسْوَرٍ   دامِي الأَظافرِ أو ربيعٍ مُمْطِرِ(٢)
سَدِكَتْ أناملُهُ بقائمِ مُرْهَفٍ   في يومِ مَلْحَمَةٍ وذروةِ مِنْبَرِ
إن مَرَّ يومٌ لم يُفِدْ أُكرومةً   يعلو الأنامَ ببعضها لم يُعْذَرِ
نحن الذِّين نُذِلُّ أَعناقَ العِدَا   ونُعِزُّ بالمَعْروفِ ذُلَّ المُعْسِرِ
ولنا بِيَعْرُبَ بَسْطَةٌ مِن مَفْخَرٍ   لا يُنكِرونَ حضورَها في مَحْضَرِ
نرعى الجِوارَ ولا نجُورُ على الورَى   ويبيتُ فينا الوَفْرُ غَيْرَ مُوَفَّرِ(٣)
قَشَرَت قُشَيْراً خيلُنا عن دارِها   وتحطَّمت أرماحُنا في جَعْفَرِ(٤)
دُسْنا تميماً في قَرارِ ديارِها   يومَ الجِفارِ بِكُلِّ طِرْفٍ مُجْفَرِ(٥)
نَقري السَّديف ضيوفَنا، ورماحُنا   في الرَّوعِ حاضِرَةُ القِرى للأَنْسُرِ(٦)
وإذا المُنَى وَرَدَتْ عَلَى أَمْوالِنا   آبتْ محمَّلَةً جميلَ المَصْدَرِ
لو رامتِ الجَوزاءُ أن تَعْلُو على   أعْلَى ذَوائبِ مَجْدِنا لم تقدِرِ(٧)
قَحطانُ والِدُنا وهُودٌ جَدُّنا   بِهِما غَنِينا عَنْ وِلادَةِ قَيْدَرِ(٨)

(رحلة العبدري ٦٨ -٧٢)

---

(١) مذحج والأشعر: جدّان جاهليّان قديمان من كهلان.
(٢) القسور: الأسد.
(٣) الوَفْرُ من المال والمتاع: الكثير الواسع.
(٤) قشير أبو قبيلة، وهو قشير بن كعب بن ربيعة. وجعفر: أبو قبيلة من عامر.
(٥) قرار: واحدها قرارة: المطمئن من الأرض، ويوم الجفارِ: كان بين بني بكر وتميم، وهو ماء لبني تميم بنجد. والطرف: الكريم من الخيل، ومُجْفَر: عظيم الوسط.
(٦) السديف: لحم السنام.
(٧) الجوزاء: نجم يقال إنّه يعترض في جوز السماء.
(٨) قحطان: أصل العرب القحطانية، وهود – عليه السلام: نبيّ عربيّ أرسله الله إلى قوم عاد الأولى، وقيدر جَدُّ عدنان أبو إسماعيل.

قصيدة حديقة الأزهار للقرطاجني

لعَيْنَيْكَ قُلْ إنْ زُرْتَ أَفْضَلَ مُرْسَلِ   قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبيبٍ وَمَنْزِلِ
وَفي طَيْبَةٍ فَانْزِلْ، ولا تَعْشَ مَنْزِلاً   بسِقْطِ اللِّوى بينَ الدَّخولِ فَحَوْمَلِ
وزُرْ رَوْضَةً قَدْ طَالَمَا طَابَ نَشْرُهَا   لمَا نَسَجَتْهَا مِن جَنوبٍ وشَمْأَلِ
وَأَثْوَابَكَ اخْلَعْ مُحْرِماً ومُصَدِّقاً   لَدى السِّترِ إلاّ لِبْسَةَ المتَفَضِّلِ
لَدَى كَعْبَةٍ كمْ فاضَ دَمْعي لِبُعْدِهَا   على النَّحْرِ حتّى بَلَّ دَمْعِيَ مِحْمَلي
فَيا حَاديَ الآمالِ سِرْ بي ولا تَقُلْ:   عَقَرْتَ بَعيري -ياامْرَأَ القَيْسِ- فَانْزِلِ
فَقَدْ حَلَفَتْ نَفْسي بذَاكَ وأَقْسَمَتْ   عَلَيَّ وَآلَتْ حَلْفَةً لَمْ تَحَلَّلِ
فَقُلْتُ لهَا: لاشَكَّ أنّيَ طَائِعٌ   وأنَّكِ مَهْمَا تأْمرِي القَلْبَ يَفْعَلِ
وكَمْ حمَلَتْ في أَظْهر العَزْمِ رَحْلَها   فَيَا عَجَباً مِنْ رَحْلِهَا المُتَحَمَّلِ
وعاتَبَتِ العَجْزَ الَّذي عَاقَ عَزْمَها   فَقَالَتْ: لَكَ الويلاتُ إنَّك مُرْجِلِي
نَبِيُّ هُدًى قَدْ قَالَ للكُفْرِ نُورُهُ:   ألاَ أَيُّها اللَّيْلُ الطَّويلُ ألا انْجَلِ
تلا سُوَرَاً، مَا قَوْلُها بمُعَارَضٍ   إذَا هيَ نَصَّتْهُ وَلا بمُعَطَّلِ[1]
لَقَدْ نَزَلَتْ في الأَرْضِ مِنَّةُ هَدْيِه   نُزولَ اليَمَاني ذِي العِيَابِ المخَوَّلِ[2]
أَتَتْ مَغْرِبا من مَشْرِقٍ، وتعرضَتْ   تَعرُّضَ أَثْناءِ الوِشَاحِ المفَصَّلِ
فَفَازَتْ بلادُ الشَّرقِ مِنْ زينةٍ بها   بشقٍّ، وشِقٌّ عِنْدَنا لَمْ يُحَوَّلِ
فصَلَّى عَليهِ الله ما لاحَ بَارِقٌ   كلَمْعِ اليَدينِ في حَبيٍّ مُكَلَّلِ[3]

---

(١) نصّ الشيء: رفعه.
(٢) العياب: جمع عَيْبة. وهي وعاء للمتاع يكون من أدم.
(٣) الحَبيُّ من السحاب ما عرض لك وارتفع، والمكلّل: الذي في جوانب السَّماء كالإكليل.

نَبيٌّ غزَا الأَعداءَ بَـيْنَ تهـائمٍ … وبينَ أكامٍ، بَعْـدَ مَـا مُتَأَمَّـلِ
فَكم مَلكٍ وافَاهُ في زيٍّ مُنجـدٍ … بمُنْجَـردٍ قَيْـدِ الأوابـدِ هَيْكَـلِ
وكمْ مِنْ يَمانٍ رَامحٍ جاءَهُ اكْتَـسى … بضَافٍ فُويقَ الأَرْضِ لَيْسَ بأَعْزَلِ
وَمِنْ أبْطَحيٍّ نِيطَ مِنـهُ نِجـادُهُ … بجيدِ مُعَمٍّ في العَشيرةِ مُخْـولِ
أَزلُّوا بِبَدْرٍ عَنْ سُروجِهمُ العِـدَا … كما زَلَّتِ الـصَّفواءُ بـالمتنزِّلِ
وَنَادوا ظُباهُم: لايَفُتْكِ فَتى، ولا … كبيرُ أُنَاسٍ فـي بِجـادٍ مُزَمَّـلِ
وفُضِّي جُموعاً قَدْ غَدَا جَامِعاً لهُـمْ … بِنَا بَطْنُ حِقْفٍ ذِي رُكامٍ عَقَنْقَلِ
وَأَحْمَوا وَطِيساً في حُنَينٍ كَأَنَّـه … إِذَا جَاشَ فيهِ حَمْيُهُ غَلْيُ مِرْجَلِ
وَنَادُوا بَنَاتِ النَّبعِ: بالنَّصرِ أَثْمِـري … ولا تُبعِدينا مِنْ جَنَـاكِ المُعَلَّـلِ
ومِمَّن لهُ سَدَّدتِ سَهْمَين، فاضْـرِبي … بسَهْمَيكِ في أَعْشَارِ قَلْبٍ مُقَتَّـلِ
فَما أَغْنَتِ الأَبدانَ دِرْعٌ بها اكْتَستْ … تَرائبُها مَـصْقُولَةٌ كالـسَّجَنْجَلِ
وَأَضْحَتْ لِواليها وَمَالِكها العِـدا … يَقولونَ: لاَ تَهْلِكْ أَسى، وتَجَمَّلِ
وَقَدْ فرَّ مُنصَاعٌ، كما فرَّ خاضِبٌ … لَدَى سَمُرَاتِ الحَيِّ نَاقِفُ حَنْظَلِ
وكَمْ قَالَ: يَاليلَ الوَغَى طُلْتَ فانْبَلِجْ … بصُبْحٍ ومَا الإصْبَاحُ فيكَ بأمْثَـلِ
فَلَيْتَ جَوادي لَمْ يَسِرْ بي إلى الـوَغَى … وَبَاتَ بِعَيْني قَائماً غَيْرَ مُرْسَـلِ
وكَمْ مُرْتَقٍ أَوْطَاسَ مِنْهُم بِمُـسْرَجٍ … مَتَى مَا تَرَقَّ العَيْنُ فِيهِ تَـسَهَّلِ
وَقَرّطَهُ خُرْصاً، كمصباحِ مُسْرِجٍ … أَهانَ السَّليطَ في الذُّبالِ المُفَتَّـلِ
فَيرْنُو لِهادٍ فوقَ هَاديهِ طَرْفُـهُ … بناظرةٍ مِن وَحْشِ وَجْـرَةَ مُطْفِـلِ(١)

(١) وجرة: موضع. ومطفل: ذات طفل وهو الغزال.

ويَسمَعُ من كافورتَيْن بجـــانبَيْ ... أثيثٍ كقِنْوِ النَّخلةِ المتَعَثكـــلِ[١]

ترفَّعَ أنّ يُعزَى لَهُ شَدَّ شـــادنٍ ... وإرْخَاءُ سَرْحَانٍ، وتقريبُ تَتْفُلِ[٢]

ولكنَّهُ يَمضي كما مَـــرَّ مُزْبِـــدٌ ... يكبُّ على الأذْقـــانِ دَوْحَ الكَنْهَبَـــلِ[٣]

ويَغْشَى العِدا كالـــسَّهْمِ، أو كالـــشِّهاب، أَوْ ... كجُلْمودِ صَخْرٍ حطَّهُ السَّيْلُ مِـــنْ عَـــلِ

جيادٌ أَعادَتْ رَسْمَ رستُم دَارساً ... وَهَلْ عِنْدَ رَسْمٍ دَارسٍ مِنْ مُعَوَّلِ

وريعَتْ بهَا خَيْلُ القياصرِ، فاخْتَفَتْ ... جَواحِرُها في صَرَّةٍ لَم تُزيّـــلِ[٤]

سَبَتْ عُرُبا مِن نُسْوَةِ العرب تَـــستَبي ... إذا ما اسْـــبكرَّتْ بَـــيْنَ دِرْعٍ ومَجْـــوَلِ[٥]

وكَم مِن سَبَايا الفُرْسِ والـــصُّفْرِ أســـهَرَتْ ... نَؤومَ الضُّحى لم تَنْتَطِقْ عـــن تَفَـــضّلِ[٦]

وحُزْنَ بُدوراً من لَيالِي شُعورِهَا ... تَضِلُّ المَدارَى في مُثَنَّى ومُرسَلِ

وأبقَتْ بأرْضِ الشَّامِ هَاماً كأنَّها ... بأرْجَائِها القُـــصْوى أَنَـــابيشُ عُنْـــصُلِ[٧]

وما جَفَّ من حَبِّ القُلوبِ بِغَوْرِها ... وقِيعَانِهـــا كأَنَّـــه حَـــبُّ فُلْفُـــلِ

وكَمْ جُبْنَ مِنْ غَبْراءَ لَمْ يُـــسقَ نَبْتُهـــا ... دِرَاكاً ولَمْ يُنْضَحْ بِماءٍ فَيُغْـــسَلِ

---

(١) الأثيث: الكثير المتراكب، والقنو: العذق. المتعثكل: الذي قد دخل بعضه في بعض لكثرته أو وهو المتدلي.

(٢) الشادن ولد الظبية. إرخاء سرحان: سرعة ذئب في لين، وتقريب تتفل: جري الثعلب.

(٣) يكب على الأذقان دوح الكنهبل: يقتلع شجر الكنُهبل من أصوله ويلقيه على أم رأسه لشدة هيجه.

(٤) جواحرها: ما تخلّف منها، والصرَّة: الجماعة. لم تزيل: لم تتفرق.

(٥) المُسْبَكرّةُ: الشابة المعتدلة القامة.

(٦) الصُّفر: لعله أراد بني الأصفر، وهم الروم، لم تنتطق: لم تشد نطاقاً للعمل، أي مرفهة منعمة. عن تفضّل: عن ثوب النَّوم.

(٧) أنابيش عنصل: أصول العنصل: وهو البصل البرّي.

لِخضراءَ ما دبَّتْ ولا نَبَتَتْ بهَا   أَسَاريعُ ظَبْيٍ أَوْ مَسَاويكُ إِسْحِلِ[١]

شَدا طَيْرُها في مُثمرٍ ذِي أَرومةٍ   وَسَاقٍ كأنبوبِ السَّقيِّ المذلّلِ[٢]

فشُدَّتْ بروضٍ ليسَ يذبلُ بعدَها   بكُلِّ مُغارِ الفَتْلِ شُدَّتْ بيَذْبُلِ[٣]

٥٠ - وكَمْ هَجَرَتْ في القَيْظِ تَحْكي دَوَارِعاً   عَذارَى دَوارٍ فِي المُلاءِ المُذَيَّلِ[٤]

وكَمْ أَدْلَجَتْ والقُرُّ يَهْفو هزيُزهُ   ويُلوي بأَثوابِ العَنيفِ المُثقَّلِ[٥]

وخُضْنَ سُيولاً فضْنَ بالبيدِ بعدما   أَثَرْنَ غُباراً بالكَديدِ المُرَكَّلِ[٦]

وكَمْ رَكَزوا رُمْحاً بدِعْصٍ كأنّهُ   مِنَ السَّيْلِ والغُثَّاءِ فَلْكَةُ مِغْزَلِ[٧]

فلم تُبْقِ حِصْناً خوفَ حِصْنهم العِدا   ولا أُطُماً إلاّ مَشيداً بجَنْدلِ[٨]

٥٥ - فهُدَّتْ بِقُضْبٍ شُلْنَ بعدَ إِمَالةٍ   بأمْراسِ كَتَّان إلى صُمِّ جَنْدُلِ

وجَيْشٍ بأقْصَى الأرْضِ أَلْقى جِرانَهُ   وَأَرْدَفَ أعْجَازاً، ونَاءَ بكَلْكَلِ

يَدُكُّ الصَّفا دكّاً، ولو مرَّ بعضُهُ   وَأَيْسَرُهُ على السَّتَّارِ فَيَذْبُلِ[٩]

دعَا النَّصرُ والتَّأْييدُ رايَتَهُ اسْحَبي   عَلى أَثَرَينا ذَيْلَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ[١٠]

---

(١) الأساريع: دود صغير. وظبي: كثيب معروف. الإسحل: شجر تتخذ عروقه مساويك كالأراك.

(٢) أنبوب السقي المذلل: ساق كساق البردي وهو نبات يقوم على سوق في فاقع الماء. المذلل: المحروث.

(٣) مغار الفتل: الحبل المفتول جيداً. ويذبل الأولى: يذوي، ويذبل الثانية: جبل.

(٤) الدوار: صنم لأهل الجاهلية يدورون حوله. الملاء المذيل: الملاء الفضفاض.

(٥) الهزيز: صوت الريح، يلوي: يذهب ويميل. العنيف: غير الرفيق.

(٦) الكديد: ما صلب من الأرض، المركل: الذي ركلته الخيل بحوافرها.

(٧) الدِّعص: الكثيب المجتمع من الرمل. الغثاء: ما يحمله السيل من بقايا الأشياء، فلكة مغزل: كأن الماء استدار حوله.

(٨) الأُطم: الحصن. مشيد بجندل: مبني بالحجارة.

(٩) ستار ويذبل، جبلان.

(١٠) المِرط. كساء من خز أو كتان، والمرحلّ: الموشّى.

لواءٌ منيرُ النَّصْلِ سَــامٍ كأنّــهُ   مَنَارةُ مُمْسَى رَاهِــبٍ مُتَبَتِّــلِ(١)

كأنَّ دمَ الأعْداءِ فِــي عَذَباتِــهِ   عُصَارَةُ حنَّاءٍ بِــشَيْبٍ مُرَجَّــلِ

صِحَابٌ فَرَوْا هَامَ العداةِ وكَمْ قَرَوْا   صَفيفَ شِواءٍ أَوْ قَديدٍ مُعَجَّلِ(٢)

وكَمْ أكْثَرُوا مَا طابَ مِنْ لَحْمِ جفنةٍ   وَشَحْمٍ كَهُــدَّابِ الــدِّمَقْسِ المُفَتَّــلِ(٣)

حكى طِيبَ ذِكراهُمْ، ومُرَّكَفاحِهِمْ   مَداكُ عَرُوسٍ، أوصَــرَايَةُ حَنْظَــلِ(٤)

لأَمْداحِ خيرِ الخَلْقِ قلبيَ قَدْ صَبَا   وليْسَ صِباي عَنْ هَواهَا بمُنْسلِ

ولَمْ يَثْنِنِي عَنْ وَصْفِها خودٌ انثَنَتْ   عليَّ هَضِيمَ الكَشْحِ رَيَّا المُخَلْخَلِ

فَدَعْ مَنْ لأيّامٍ صَلُحْنَ لهُ صَــبَا   ولا سيَّمَا يَــومٌ بَــدارَةِ جُلجُــلِ

وأصْبَحَ عَنْ أمِّ الحويرث ماسَلا   وَجارَتِهَــا أُمِّ الرَّبَــابِ بِمأسَــلِ

وكُنْ في مُديح المصْطَفى كَمُدبّجٍ   يُقَلّــب كفَّيْــه بخَــيْطٍ مُوصَّــلِ

وأَمِّلْ بِهَا الأُخرَى، ودُنْياكَ دَعْ فقَدْ   تمتَّعْتَ مِنْ لَهْوٍ بِها غيْرَ مُعْجَلِ

وَكُنْ كَمُنيــبٍ، للفُــؤادِ مُؤنِّــبٍ   نَصيحٍ على تَعْذالِهِ غَيْرِ مُؤْتَــلِ

يُنادي: إلهي إنَّ ذَنْبيَ قَدْ عَــدَا   عَلَيَّ بِــأنْواعِ الهُمُــومِ لِيَبْتَلِــي

فكُنْ لي مُجيَراً مِنْ شَياطينِ شَهْوةٍ   عليَّ حِراصٍ لو يُــشرِونَ مَقْتَلِــي(٥)

وينْشِدُ دُنْيــاهُ إذا مــا تَــدَلَّلتْ   أَفَاطِمُ مهْلاً بَعْضَ هَــذا التَــدلُّلِ

---

(١) المنارة: يريد به سراج الراهب الذي يستضيء به في وحدته وانقطاعه لعبادة ربه.

(٢) صفيف شواء: شرائح لحم مشوي، والقديد: اللحم المقددّ.

(٣) الدمقس: الحرير.

(٤) مداك العروس: حجر يسحق عليه الطيب للعروس، الصرّاية: نقيع ماء الحنظل.

(٥) يشرّون: يظهرون قتلي من غيظهم عليّ، ويروى: «لو يسرّون» أي يكتمون.

فإنْ تَصِلي حَبْلي بِخَيْرٍ وَصَــلْتُهُ   وإنْ كُنْتِ قَدْ أَزْمَعْتِ صَرْمي فَــأَجْمِلي
وأحسِنْ بقَطْعِ الحَبْلِ مِنْكِ وبَتِّهِ!   فَسُلِّي ثيابي مِنْ ثِيابِــكِ تَنْــسُلِ
أيا سَامِعي مَدْحَ الرَّسُولِ تَنَشَّقوا   نَسيمَ الصَّبا جَاءَتْ بِرَيّا القَرَنْفُلِ
وَروضَةَ حَمْــدٍ للنَّبِــيِّ مُحَمَّــدٍ   غَذّاهَا نَميرُ الماءِ غَيْرُ المحَلَّــلِ
ويا مَنْ أبَى الإصْغاءَ ما أنتَ مُهتدٍ   وما إنْ أَرَى عَنْكَ العَمايَــةَ تَنْجَلــي[1]
فلَو مُطْفلاً أَنْشَدْتُهُ لَفْظَها ارْعَــوَتْ   فألهيتُها عَنْ ذي تَمائِمَ مُغْيَلِ[2]
ولو سَمعتْهُ عُصْمُ طَوْدٍ أمَالَهَــا   فَأنْزَلَ مِنْهُ العُصْمَ مِنْ كُــلِّ مَنْــزِلِ[3]

(رحلة العبدري ٥٢٤ -٥٣٠)

* * *

(١) العماية: الغواية واللّجاج.
(٢) الغيْلُ: اللبن ترضعه المرأة ولدها وهي تؤتى.
(٣) الأعصم: الوعل، والطّودُ: الجبل العظيم.

الفصل الثالث

الرِّحل المنظومة

لم يقتصر التأليف في الرِّحل على الرِّحل المنثورة، بل وجدنا ضرباً آخر منها نُظِم شعراً، وسأكتفي بإيراد رحلتين للدِّلالة على هذا الضرب من التأليف، إذ يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق.

أما الرِّحلة المنظومة الأولى فهي لأبي علي الحسن بن علي بن عمر القسنطيني المعروف بابن الفكون، وكتب بها إلى أبي البدر بن مردينش وهو بقسنطينة ونظمها على البحر الوافر، وجعل الياء المكسورة رويّاً لها، وجاءت في اثنين وثلاثين بيتاً، وذكر فيها المدن التي قطعها في رحلته، وخصّص صدور أبياتها لذكر المدن التي مرّ بها، بينما جعل أعجازها لذكر محاسن نساء تلك المدن، وما تميّزت به من جمال وفتنة، وما خلفته تلك النِّسوة في قلب الشاعر من أحاسيس.

أمّا الرِّحلة الثّانية فقد ختم بها العبدريّ رحلته النثريّة، ويبدو أنّه نظر فيها إلى رحلة ابن الفكون من حيث الوزن والرويّ، غير أنه جعل معاني أبياته تنطلق من موضوع النصح والزهد والاعتبار، وذكر العبدري في رحلته المنظومة معظم البلدان والمدن التي مرّ بها في رحلته من «حاحة» بالمغرب الأقصى إلى بلاد الحجاز والشَّام وجاءت القصيدة في مئة وخمسة أبيات.

رحلة ابن الفكون(١)

أَلا قُلْ للسَّرِيِّ ابنِ السَّرِيِّ　　　أبي البَدْرِ الجَوادِ الأَرْيحيِّ

أَيَا مَعْنى السِّيادَةِ والمَعَالي　　　ويا بَحْرَ النَّدى بَدْرَ النَّدِيِّ

---

(١) وردت القصيدة بتمامها في رحلة العبدري ٩٧ -٩٩. وهي أزهار الرياض للمقري ٣٠٤/٤ -٣٠٧، ونفح الطيب له ٤٨٣/٢ -٤٨٤، والإعلام للمراكشي ١٣٨/٢ -١٤٠، ودرّة الحجال لابن القاضي ٢٣٦/١ -٢٣٨، وجذوة الاقتباس له ١٨٤ -١٨٦، وتعريف الخلف لمحمد مخلوف ١٣١/٢ -١٣٢ وأخلّت هذه المصادر بالأبيات من ٢ -٦.

أَمَا وبَحَقِّكَ المُبْدِي جَلالاً ... وَمَا قَدْ حُزْتَ مِن حَسَبٍ عَلِيٍّ
وَمَا بَيْنِي وبينَك مِنْ ذِمامٍ ... وما أُوتيتَ مِنْ خُلُقٍ رَضِيٍّ
لقد رَمَتِ العُيونُ سِهامَ غُنْجٍ ... وليسَ سِوى فُؤادِي مِنْ رَمِيٍّ
فَحَسْبُكَ نَارُ قَلْبِي مِنْ سَعيرٍ ... وَحَسْبُكَ دَمْعُ عَيْنِي مِنْ أَتِيٍّ(١)
وكُنْتُ أَظُنُّ أنَّ النَّاسَ طُرّاً ... سِوى زيدٍ وَعَمْرٍو غيرُ شَيٍّ
فَلَمَّا جِئْتُ «مِيلَةَ» خَيْرَ دَارٍ ... أَمَالَتْنِي بِكُلِّ رَشاً أَبِيٍّ(٢)
وكَمْ أَوْرَتْ ظِباءُ «بَنِي وَرارٍ» ... أُوارَ الشَّوقِ بِالرِّيقِ الشَّهيِّ
وَجِئْتُ «بِجَايَةً» فَجَلَتْ بُدوراً ... يَضيقُ بِوَصْفِها حَرْفُ الرَّوِيِّ
وَفي أرضِ «الجَزائر» هَامَ قَلْبي ... بِمَعْسُولِ المَراشِفِ كَوْثَرِيِّ
وَفي «مِلياتةٍ» قدْ ذُبتُ شَوْقاً ... بِلينِ العِطفِ والقَلْبِ القَسِيِّ
وَفي «تَنَسٍ» نَسيتُ جَميلَ صَبْري ... وَهِمْتُ بِكُلِّ ذِي وَجْهٍ وَضِيٍّ(٣)
وَفي «مَازُونةٍ» ما زلتُ صَبّاً ... بِوَسْنَانِ المحاجِرِ لَوْذَعِيٍّ(٤)
وفي «وَهرانَ» قَدْ أَمسَيْتُ رَهناً ... لِظَامِي الخَصرِ ذِي رِدِفٍ رَوِيٍّ(٥)

---

(١) الأتيّ: السَّيلُ.

(٢) رشا: أصله بالهمز، وهو الغزال.

(٣) تنس: مدينة بقرب مليانة، بينها وبين البحر ميلان، وهي مسوّرة حصينة. وبعضها على جبل وقد أحاط به السور، وبعضها في سهل الأرض. انظر الروض المعطار: ١٣٨.

(٤) مازونة: مدينة جزائرية بالقرب من مستغانم، وهي على ستة أميال من البحر. انظر الروض المعطار: ٥٢١. وقال الوزان: على بُعْدِ نحو ٤٠ ميلاً من البحر انظر وصف إفريقيا: ٣٦/٢.

(٥) وهران: مدينة جزائرية على ساحل البحر، بينها وبين تلمسان ١٤٠ ميلاً. انظر وصف إفريقيا ٣٠/٢ وظامي الخصر: نحيله، وردف رويّ: مملوء.

وأبدتْ لي «تِلِمْسانٌ» بــدوراً   جَلَبْنَ الــشَّوقَ للقَلْــبِ الخَلــيِّ
ولَمَّا جِئتُ «وَجْدَةَ» هِمْتُ وَجداً   بمُنْخَنِــثِ المَعَــاطِفِ معنَــويِّ[١]
وحلَّ رَشَا «الرِّباطِ» رِشا رِبــاطي   وتَيَّمَنــي بِطَــرْفٍ بــابليِّ[٢]
وَأَطْلَعَ قُطرُ «فاسٍ» لي شُموسَاً   مَغَارِبُهنَّ في قَلْــبِ الــشَّجيِّ[٣]
ومَــا «مِكْناسَــةٌ» إلاّ كِنَــاسٌ   لأحوى الطَّرْفِ ذِي حُسْنٍ سَنيِّ[٤]
وإنْ تَسْلا عَنْ آرضِ «سَــلا» فَفيهــا   ظِبــاءٌ صــائداتٌ للكمــيِّ[٥]
وَفي «مرَّاكُشٍ» يا وَيْحَ قَلْبــي   «أتى الوَادِي فَطَمَّ على القَريِّ»[٦]
بُدورٌ بَلْ شُموسٌ بَــلْ صَــبَاحٌ   بَهــيٌّ فــي بَهــيٍّ فــي بَهِــيِّ
أَتَحْنَ مَــصَارِعَ العُــشَّاقِ لمَّــا   سَعَيْنَ بهِ فكَــمْ مَيْــتٍ وحــيِّ
بقامَــةِ كــلِّ أَسْــمَرَ سَــمْهَرِيٍّ   ومُقْلَةِ كُلِّ أَبْــيَضَ مَــشْرفيِّ[٧]

---

(١) وجدة: مدينة بالمغرب، بينها وبين تلمسان ثلاث مراحل، وتبعد عن البحر المتوسط ٤٠ ميلاً جنوباً. انظر وصف إفريقيا: ١٢/٢. والانخناث: التثنّي.

(٢) المقصود بها تازة، وتدعى رباط تازة، وهي غير رباط الفتح التي أُسّست بعدها بعدّة قرون، واتخذها الفرنسيون عَاصمة لهم بعد احتلالهم المغربَ. انظر حاشية الفاسي: ٤٠.

(٣) القلب الشجّي: المحزون.

(٤) مكناسة: مدينة بالمغرب في بلاد البربر، وهي مدينتان صغيرتان، اختطّ إحداهما يوسف بن تاشفين ملك المغرب من الملثمين، والأخرى قديمة، وأكثر شجرها الزيتون، وسميت لذلك مكناسة الزيتون. انظر ياقوت: ١٨١/٥. والأحوى: شديد الخضرة، المائل إلى السواد. والرواية في درّة الحجال: لأحورَ ذي جمال يوسفيٍّ.

(٥) الكمّي: البطل.

(٦) القريّ: مسيل الماء من الربوة إلى الروضة، وهو مَثَل، كما في الميداني: ١٥٩/١، والرواية فيه جرى الوادي فطمَّ على القريِّ.

(٧) السمهريّ: الرمح الصّليب العود.

إذا أَنْسَوْنِيَ الولدانَ حُسْناً	أُنَسِّيهم هَوَى غَيْلانِ مَيٍّ[1]

فَها أَنا قد تَخِذْتُ الغَرْبَ داراً	وأُدْعَى اليَومَ بالمَرَّاكُشِيِّ

على أنَّ اشْتِياقِي نَحْوَ زَيْدٍ	كَشَوْقِي نَحْوَ عَمْرٍو بالسَّوِيِّ

تَقَسَّمَني الهَوى شَرْقاً وَغَرْباً	فَيَا لَلمَشْرِقيِّ المغربِيِّ

٣٠ - فَلِي قَلْبٌ بأرضِ الشَّرْقِ عَانٍ	وَجِسْمٌ حَلَّ بالغربِ القَصِيِّ[2]

فهذا بالغُدُوِّ يَهيمُ غَرْباً	وذاكَ يَهيمُ شَرْقاً بالعَشِيِّ

ولولا الله متُّ هَوىً ووجداً	وكَمْ لله مِنْ لُطفٍ خَفِيِّ

نقد العبدري قصيدة ابن الفكون:

قلت: قال أهل اللغة[3]: الغُنْجُ والغُنُجُ: الدَّلُّ وحسن الشَّكل؛ فقوله:

لقد رَمَتِ العُيونُ سِهامَ غُنْجٍ ....

غيرُ مُلائم، وقائله لا يسلم مِن لائم، ولا يحسن في الأدب خِطابُ ذوي الرّتب بمثل قوله:

فَحَسْبُكَ نَارُ قَلْبِي مِنْ سَعيرٍ ....

---

(١) المقصود بغيلان: ذو الرَّمة الشاعر المشهور. وميّ: صاحبته التي اشتهر بها. ولعلّه أراد بالولدان الذين وصفهم الله تعالى في قوله: (**يطوف عليهم ولدان مخلّدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثورا**). الإنسان: ١٩.

(٢) العاني: الأسير.

(٣) انظر في اللسان: غنج.

وإذا نُعي على أبي الطِّيِّبِ قوله[1]: [الطويل]

كَفَى بِكَ دَاءً أنْ تَرَى المَوْتَ شَافِيا ....

وقوله[2]: [الطويل]

إِذَا مَا لَبِسْتَ الدَّهْرَ مُـستَمْتِعاً بِـهِ تَخَرَّقْتَ وَالمَلْبـوسُ لَـمْ يَتَخَـرَّقِ

وقد علم أنَّ المُخاطَبَ بذلك غيرُ الممدوح، فما الظَّنُ بهذا وقبلهُ

أَمَـا وَبَحَقِّـكَ المُبْـدِي جَـلالاً .... البيتـين؟

وقوله:

.... بوسـنانِ المحـاجِرِ لَـوْذَعِيِّ

موضوعٌ في غير موضعه، فإنَّ الوَسَنَ إنَّما يُوصَفُ به الجفنُ والعينُ والطَّرف وما جرى مجراه، كما قال عَديّ بن الرِّقاع[3]: [الكامل]

وَسْنَانُ أَقْـصَدَهُ النَّعـاسُ فَرَنَّقَـتْ فـي عينِـهِ سِـنَةٌ ولـيسَ بنـائِمِ

وأفرطوا حتّى جعلوه مَرَضاً، فقال النَّابغة[4]: [الكامل]

نَظَرَت إليكَ بحاجـةٍ لَـمْ تَقْـضِها نَظَرَ السَّقِيمِ إلى وُجُـوهِ العُـوَّدِ[5]

---

(١) صدر بيت للمتنبيّ، وعجزه: «وحَسْبُ المنايا أن يَكُنَّ أمانيا» ديوانه: ٢٨١/٤.

(٢) ديوان المتنبيّ: ٣٠٧/٢.

(٣) هو عَديّ بن زيد بن مالك بن عديّ بن الرّقاع، من عاملة: شاعر كبير من أهالي دمشق توفي سنة ٩٥هـ، ترجمته في الأغاني ٣٠٧/٩. والبيت من قصيدة في ديوانه ١٢٢.

(٤) ديوانه: ٣٥.

(٥) في الديوان: المريض.

وتبعه جرير فقال[1]: [البسيط]

إنَّ العُيونَ التَّي في طَرْفِها مَــرَضٌ قَتَلْننـــا ثُـــمَّ لَـــمْ يُحيـــينَ قَتْلاَنَـــا

وأمّا المحاجِر فَمَا وَصَفَها أَحَدٌ بالوَسَنِ فيما أَعلم.

وترتيبُ اللَّوْذَعيِّ مع وصفِ المحاجِرِ، كترتيب الدَّلِّ مع الشَّنَب[2]، والتَّحاكم في ذلك إلى كثير؛ وقوله: «معنوي» بعد: مُنْخَنث المعاطف، أبعدُ مِنْ هَذا؛ ولقد استَرَبْتُ به حتّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ مُصحَّف، ولا أَتبرَّأ فيه من تصحيف. وذكرُ الانخناث في المعاطف ليسَ بدونِ هذا في القُبح، فإنَّ اللَّفْظَ وإن كانَ له أَصلٌ في اللُّغةِ في اللِّين والتَّثَنِّي، فقد رفعه كثرة الاستعمال في وجه آخر، وإنَّما جَرَت عادة الشُّعراء في وصف المعاطف بذكر التّثنّي واللِّين والانْعِطاف لا بالانخنِاث.

وقوله: «رشا رباطي» لفظ مختل جاف، ما جلبه إلاّ التّجنيس، وإذا وجد الرِّشاء والرِّباط فما بقي إلاّ الضّرب؛ وأيّ رقّة مع هذه الألفاظ الجافية؟ ولو قال: رشا ارتباطي لكان أقرب مع بعده؛ لأنّه أراد التَّماسُك والتَّثَبُّت، فالارتباط به أليق.

وقوله: «مَغَارِبُهنّ في قلبِ الشّجيِّ» خارجٌ عن اعتدال الكلام؛ فإنّه أراد بما ذكر من غروبهنّ في القلوب اشتمالَها على حُبِّهنَّ، وليس إذا غرب حبّهنّ

---

(١) ديوانه: ١٦٣/١.

(٢) الشَّنب: جمال الثغر وصفاء الأسنان. ويشير العبدريّ هنا إلى قصة الكميت بن زيد عندما أنشد نُصيباً فاستمع له فكان فيما أنشده:

وقد رأينا بها حوراً منعّمــةً بيضاً تكامل فيها الدَّلُّ والشَّنَبُ

فثنى نصيب خنصره فقال له الكميت: ما تصنع؟ قال: أُحصي خطأك. تباعدتَ في قولك: تكامل فيها الدّلّ والشّنب هلاّ قلت كما قال ذو الرمة:

لمياءُ في شفتيها حوّةٌ لعَــسٌ وفي اللّثاثِ وفي أنيابها شنبُ

انظر الأغاني: ٣٤٨/١ حاشية ٢.

في القلوب فقد غربن فيها؛ ولا يحسن أن يُقال: «مطالعهنَّ قطرفاس، ومغرب حبّهن قلب الشجيّ»، وإنَّما يحسن أن يذكر في غروبهن ما يغيّبهنّ عن النَّواظِر كالخدور ونحوها، وبذلك جرت عادة الشُّعراء، وهو مستعمل كثير، نحو قوله: [الكامل]

قَمَـــرٌ إِذَا اسْـــتَخْجَلْتَهُ بِعِتابِـــهِ لبسَ الغُروبَ ولَـمْ يَعُـدْ لِطُلُـوعِ

ونحو منه قول أبي الطَّيِّب[1]: [الكامل]

بِأَبي الشُّموسُ الجَانِحَـاتُ غَوارِبَـا ....

فهذا الرَّجل لم يُخالف مُبْدِعا، ولم يوالف مُتْبِعا.

وقوله: «بُدورٌ بل شُموسٌ بل صَبَاحٌ» نزولٌ مفرط، وعكس للرُّتبة؛ فإنَّ الشّمس أشهر من الصَّباح وأَنْوَر، والانتقال عن التّشبيه بالأعلى إلى الأدنى أشبه بالذَّمّ منه بالمدح، ولاسيّما مع الإضراب.

وقوله: «بهيٌ في بهيٍّ في بهيٍّ» غير منطبق على صدر البيت، ولا ملائم له، ولو قال: «بدورٌ في خدور في قصور» لجاءَ عليه عجز البيت أَلْيَقَ مِنْ العقد بجيد الحسناء، وأوفق من الجَوْد[2] للرَّوضة الغنّاء.

وقوله: «إذا أَنْسَوْنيَ الولدانَ حُسناً» ضعيف ساقط؛ لأنَّ التَّشبيه والتَّمثيل يجب أن يكونا في كلّ صنعة بما تعارَفَهُ أَهلُها واشتهر عندهم، هذا على تقدير التّقييد في الولدان، فكيف واللّفظ مبهم مطلَقٌ[3]، يدخل تحتَهُ كُلُّ ما يُسَمَّى وَلَدا.

---

(١) صدر بيت، عجزه: «اللاّبسات من الحرير جلاببا» وهو مطلع قصيدة للمتنبيّ في مدح علي بن منصور الحاجب: في ديوانه ١/١٢٢.

(٢) الجَوْد: المطر الغزير.

(٣) بدا للمصنّف أن لفظ «الولدان» بهم مطلق، غير أنه يبدو لي أنّ الشاعر أراد الولدانَ المخلَّدين الذين ورد ذكرهم في الآية الكريمة رقم (١٩) من سورة الإنسان.

وقوله: «فهذا بالغدوّ يهيم غرْباً» كلامٌ غيرُ مُحصّل؛ فإنَّ الجسم العَرِيَّ من القلب لا يهيم، وإنَّما يهيم القلب؛ وليست الباء هنا ظرفية بمعنى «في»؛ لأنَّ الهيمان لا يتخيَّرُ الأوقات، وما أَضعف حبّاً لا يهيج إلاّ مرّةً في اليوم، وإنَّما هي للإلصاق؛ أي: هذا يشتاق في وقت الغروب إلى الغدوّ، وذلك في وقت الشُّروق إلى العشّي، شوقاً من هذا إلى الشَّرق، ومن ذاك إلى الغَرْب؛ وهو معنىً حَسَنٌ لو ساعَدَهُ اللَّفظ.

رحلة العبدري المنظومة

عَلَيْكَ النُّصْحُ رِدْهُ بِكُـلِّ حَـيٍّ   وإنْ أَلْفَيْـتَ وَارِدَهُ فَحَـيِّ
فمُعْظَمُ دِينِنـا نُـصْحُ البَرايَـا   كَذَاكَ أَتَى الحَديثُ عَنِ النَّبيِّ[1]
وَقَدْ نَصَحَ الجَمادُ لذِي اعْتِبـارٍ   وكَفَّ أولي النُّهَى عَنْ كُلِّ غَيٍّ[2]
لِسَانُ الحَالِ أبْلَـغُ مِـن بَلِيـغٍ   وَفي ذِي الجَهْلِ أعْيَا مِنْ عَيِـيٍّ[3]
وقدْماً سَارَتِ الأَمْثَـالُ عَنْهَـا   وَمَا زِدْنا سِوَى حَرْفِ الـرَّوِيِّ
فَأَصْغِ إلى نَصَائِحِها مُـصِيخَاً   وأَيْقِظْ جَفْنَ نَـدْبٍ شَـمَّرِيٍّ[4]
مَسَحْتُ الأَرْضَ غَرْبَا ثُمَّ شَرْقاً   أُسائِلُ عَنْ عَواقِبِ كُـلِّ حَـيٍّ
فَقَالَتْ: مَا سُؤَالُكَ بَعْـدَ عِلْـمٍ   أَلَمْ تَرَهُمْ جَمِيعَـا تَحْـتَ طَـيٍّ
تُسائِلُ والحَـوادِثُ مُفْـصِحاتٌ   صَوائِحُ قَـد أَصَـمَّتْ بالـدَّوِيِّ

(١) يريد قول النبي عليه السلام «إن الدين النصيحة».
(٢) أولو النُّهى: أصحاب العقول. الغيّ: الضّلال والباطل.
(٣) العِيُّ: العجز عن التعبير اللفظي.
(٤) الندب: الخفيف في الحاجة –ورجل شمّري: ماض في الأمور والحوائج مُجرّب.

فصافَحْتُ التَّــصَفُّحَ مُــسْتَبِيناً ... فَما أَلْفيــتُ أرضَــاً ذاتَ عــيِّ

مَرَرْتُ «بِحاحَةٍ» فَسَأَلتُ عَمَّن ... أَناخَ بآخرِ الغَــرْبِ القَــصيِّ[1]

فَقَالَتْ: خَلَّفُــونِي ذاتَ شَــجْوٍ ... أُبَكِّـــي بالغَــداةِ وبالعَـــشِيِّ

أَنَاخَ بِهِمْ زَمانٌ لَــيْسَ يَرْثــي ... لغَــيْلانٍ، ولا يُعْنَــى بِمَـــيِّ[2]

وَقَدْ أَهْدَى الكُسوفَ إلى أُناسٍ ... تَراهُمْ كالبُدورِ لَــدَى النَّــدِيِّ[3]

وَجِئْتُ «السُّوسَ» أَسأَلُ وَهْــوَ أَقْــصَى ... فَقَالَ: إليْكَ عَنْ كَمِدٍ شَــجِيِّ[4]

أَلَمْ تَرَنِي وَحِيداً مِــنْ أَنَاسِــي ... كَما عَطِلَتْ كَعَابٌ مِن حُلــيِّ[5]

وطُفْتُ بِلادَهُ أَرْضَــاً فَأَرْضَــاً ... تُخبِّرُنِـــي بِمَــوْتِهِمِ الــوَحِيِّ[6]

وَوافَيْتُــا «تِلمِــسَانَاً» فأَبــدَتْ ... عَلى أهْلٍ مَضَوا شَجْوَ النَّعِــيَّ

كَذَا «مِليانــةٌ» أَبْــدَتْ عِــوِيلاً ... لأَهْلٍ ضَمَّهمْ جَــرْفُ الأَتــيِّ[7]

ورُحْتُ إلى «الجزائرِ» ذا سُــؤَالٍ ... فَقيلَ: سألتَ عَنْ هَيِّ بن بَيِّ[8]

دَعْ التَّسْآل عمّــن حَــلَّ تُرْبــاً ... وَبَــادِرْ مَــنْهَجَ البَــرِّ التَّقِــي

---

(١) أناخ بالمكان: أقام.

(٢) غيلان: هو ذو الرّمة الشاعر المعروف. وميّ محبوبته.

(٣) كسف القمر: ذهب ضوؤه واسودّ. والنَدِيّ: المنتدى. يريد أن هؤلاء الناس الذين كانوا كالنجوم دفنوا تحت التراب.

(٤) الكَمِدُ: الحزين.

(٥) عطلت المرأة منَ الحَلْي: خلت من الحلي. الكَعاب: التي نهد ثديُها.

(٦) الوحي: السريع العاجل.

(٧) العويل: رفع الصوت بالبكاء والصياح، والأتيُّ: السيل يأتي من بعيد.

(٨) هيُّ بن بَيّ، وهيّان بن بيّان: لا يُعرف هو ولا يعرف أبوه، وقيل: هيُّ بن بيّ كان من ولد آدم فانقرض نسله.

وَقَالتْ لي «بِجايةُ»: أَنْتَ خِلْوٌ ... «فياوَيْحَ الشَّجِيِّ منَ الخَلِيِّ»[1]
تُسَائِلُ عَـنْ أمُـورٍ ظَـاهِراتٍ ... عَقَرْتَ لها ظُهُـوراً للمَطِـيِّ[2]
وَجِئْتُ «بني وَرارٍ» وَهْيَ عُمْرِي ... أَثَارَتْ كامِنَ الـشَّجَنِ الخَفِـيِّ
و«مِيلةُ» لمْ تَمِلْ عَنْ نَهْجِ نُـصْحٍ ... أَصِخْ إنْ كنْتَ ذا فَهْمٍ سَـنِيِّ[3]
وَمَنْ شاءَ الحَديثَ فَقُلْ «قُسَنْطِيـ ... ـنَةٌ» تَرْوِي حَديثَ المَغْرِبِـيِّ
و«بُونَةُ» قَدْ أَبَانَتْ مَنْ أَبَانَـتْ ... صُرُوفُ الدَّهْرِ مِنْ سَامٍ سَـرِيِّ[4]
وَفي «خُولانَ» أَطْرَقْتَ اعْتِباراً ... «جَرَى الوَادي فَطَمَّ عَلَـى القَـرِيِّ[5]»
و«بَاجَةُ» بالبَوائحِ قَدْ أَبَاحَـتْ ... وَأَمْحَلَ رَوضُها مِـنْ بَعْـد رِيِّ
ولمَّا جِئْتُ «تُونسَ» وَهْيَ خَوْدٌ ... زَهَتْ بجَمالِها وبحُـسْنِ زِيِّ[6]
سَأَلْتُ عنِ الأُلَى هَامُوا إِلَيْهـا ... فَكَمْ بَـرٍّ بِهـا مِـنْهُمْ حَفِـيِّ
فَقَالَتْ: مَا أرَى مِـنْهُمْ أَنِيـساً ... وَشَرُّ الوَصْلِ وَصْـلُ الآدَمِـيِّ
وَجِئْتُ «القَيْرَوانَ» فَجِئْتُ قَفْراً ... يُجِيبُ صَداهُ بالصَّوْتِ الـشَّجِيِّ
و«قَابِسُ» قَدْ نَزَفْتُ بِهَا سُؤَالاً ... فَكَانَـتْ مثْلَهـا سِـيَّاً بِـسِيِّ

---

(١) ضمّن العبدري المثل: ويل الشجي من الخليّ وَيُروى: ما يلقى الشجيّ من الخليّ وهو في الميداني ٢٧٣/٢، وأمثال ابن سلام ٢٨٠، وفصل المقال ٣٩٥.

(٢) عقر الظهر: جرحه وحزّه، والمَطيّ: واحدها المطيّةُ: الدابة يركب ظهرها.

(٣) فهم سَنيّ: فهم كبير.

(٤) السَريّ: السيّد الشريف ذو المروءة. وصروف الدهر: نوائبه وحدثانه.

(٥) ضمّن العبدري المثل جرى الوادي فطمَّ على القّري، وهو في الميداني ٢١٩/١ وجمهرة الأمثال للعسكري ٣٢٢/١ والمستقصى ٥١/٢، وتمثال الأمثال ٤١٠/٢.

(٦) الخَوْد: الفتاة الحسنة الخلق الشابة.

ورُحْتُ إلى «طَرابُلُسٍ» فَقَالَتْ: رمَتْ أَهْلي الحَوادِثُ عـنْ قِـسيِّ[1]
وَفي «مِصْرَاتَةٍ» سَحَّتْ جُفونِي لِمَا أَبْدَتْ مِنَ النُّصْحِ الجَلِـيِّ[2]
وَفي «زَدِّيكَ» مَسْقَطِ كُلِّ قَفْـرٍ بيَـانٌ بالخِطَـابِ المَعْنَـوِيِّ
يقولُ: صَحِبْتُ قَـبْلَكُمُ أُنَاسَـاً غَدَوا لسِهام دَهْري كـالرَّمِيِّ[3]
وكَمْ رَمَّتْ لَدَيَّ عظامُ شَـخْصٍ مُنِيبٍ، فَاضِـلٍ، بَـرٍّ، تَقِـيِّ[4]
وَباحَتْ بالنِّداء «قُصُور سُرْتٍ» فأَورَتْ زِنْدَ فِكـرِ الأَلْمَعِـيِّ[5]
وَقَالتْ لي: أقَمْتُ هُنَـا زَمانَـاً أُشاهِدُ عِبْرةً فـي كُـلِّ حَـيِّ
وكمْ نُشِرَتْ عليَّ بُنودُ رَكْـبٍ عَلَيهِمْ غابةٌ مِـنْ سَـمْهَرِيِّ[6]
فَمَـا طَـالَ المَـدى إلاَّ قَلـيلاً وَقَـدْ عَفَّـاهُمُ مَـرُّ الأَتِـيِّ[7]
رَأيْتُ الدَّهْرَ يُسْحِتُ كُـلَّ حَـيٍّ يكرُّ عَلى الجَبَانِ مَعَ الكَمِـيِّ[8]
وقد بَرِقَتْ «بِبَرْقَـةَ» لامِعـاتٌ تُلِينُ عَرِيكَـةَ القَلْـبِ القَـسِيِّ
وسَلْ «إسْكندريّةَ» أَيـنَ ولَّـى وَسَلْ عن سَـاكِنٍ إسْـكندرِيِّ

(١) القسيّ: جمع قوس.

(٢) سَحَّ: سال وصبَّ.

(٣) الرّميّ: الهدف الذي يرمي عليه.

(٤) رمَّ العظم: بَلي. المُنيب: التائب.

(٥) الألْمعيّ: الذكي المتوقّد الحديد اللسان والقلب.

(٦) البنود: أعلام الفرسان، السَّمهريّ: الرُّمح الصليب العود.

(٧) عفّى الأثر: محاه. الأتيِّ: السَّيل.

(٨) يُسحتُ: يستأصل – الكميُّ: الشجاع المقدم الجريء.

وسَلْ «فُسطاطَ عَمْروٍ» عَنْ نَواهُ ... وسَلْ عن جَوهَرٍ مَوْلَى الشَّقِيِّ[1]

بِقاعِدةِ الدِّيارِ دِيــارِ «مِــصْرٍ» ... وَسَلْ بِعُبَيــدِهِمْ والقُرْمُطِــيِّ[2]

وسَلْ أُمَّ القِفَارِ بِمَــنْ طَوَتْــهُ ... فَكَمْ مِن فَاضِلٍ فِــيهِمْ رَضِــيِّ

وكَمْ حَلَّتْ قِوَى مَن حَلَّ فِيهَــا ... وكَمْ حَالَتْ حُلَى وَجْهٍ وَضِيِّ[3]

وكَمْ ضَخْمٍ يَموجُ مِنَ امْــتِلاءٍ ... غَدا نَضْواً بَهَا مِثْلَ النَّــضِيِّ[4]

بِها صَرْفُ الزَّمانِ يكونُ صِرْفًا ... فَكَمْ نَــاعٍ حَوَتْــهُ وكَــمْ نَعِــيِّ

وَسَلْ في «أَيْلَةٍ» بَــرّاً وبَحْــراً ... و«يَنْبُعَ» سَلْ بِمُنْقَطِــعٍ ثَــوِيِّ

وَإِنْ تعطِفْ «لِطَيْبَةَ» لِيْتَ عَــنْسٍ ... فَعرّجْ إِنَّهــا بَيْــتُ الــرَّوِيِّ[5]

وقُلْ أَيْنَ الأَحِبَّةُ لَيْتَ شِــعْرِي ... أَيُخفي التُّرْبُ أَقْمــارَ الــسَّمِيِّ

وَقَفْتُ هُناكَ مُعْتَبِــراً سَــؤُولاً ... أَخا جَفْنٍ رَوٍ وَحَشىً ظَمِــيِّ[6]

بِجَمْــعٍ مــا بِــهِ إلاّ مَــشوقٌ ... إذا ما سِيمَ بِيعَ بِــلا نَــسِيِّ[7]

فَقُلْتُ لَها: فَديتُكِ أيــن أوْسٌ؟ ... وأيْنَ أَخُوهُ مُعتَنِــقُ الكَمِــيِّ[8]

---

(١) هو جوهر الصقلّي باني القاهرة، والمقصود بالشقيّ: المعزّ العبيدي.

(٢) القرمطي: هو الحسين بن زكرويه كان يدّعي الانتماء إلى الطالبين، لقّب نفسه المهدي أمير المؤمنين.

(٣) حالت: غيّرت.

(٤) النَّضو: الهزيل. والنضيّ: كالنضو.

(٥) اللِّيت: صفحة العنق والعَنْس: الناقة القويّة.

(٦) أراد بالجفن الرّويّ: الباكي، وبالحشى الظَّميّ: الخصرالضامر النحيل.

(٧) السُّوم: عرض السلعة على البيع – النسء: التأخير.

(٨) يريد الأوس والخزرج.

فقَالَتْ: ويكَ قَــدْ ذَهَبــا لأَمْــرٍ   عَظيمِ الشَّأنِ في وجْهِ قَــضِيِّ
وكَمْ قَدْ رَاحَ بَعــدَهُما مَنَــونٌ   بأَوْسِـــــيٍّ وراحَ بخَزْرَجِــــيِّ
فيا عَجَبَـاً تــسائِلُني بــأوْسٍ   وحَسْبُكَ واعِظــاً قَبــرُ النَّبــيِّ
وفي «الدَّهناءِ» باحَ ولَمْ يُداهنْ   لِسَانُ الحَــالِ بالــسِّرِّ الخَفِــيِّ
فَسَلْ فيهــا مَنــازِلَ عافِيَــاتٍ   كوَشْمٍ لاحَ في كَفِّ الهِــدِيِّ[١]
وسَلْ «بدْراً» بِعيرٍ مِنْ قُــرَيْشٍ   وَعَنْ فُرْسَانِها وَسْط الرُّكِــيِّ[٢]
وَجِئْتُ «خُلَيْصَ» أَسْأَلُ عَنْ نَجِيٍّ   مِنَ الآفاتِ في الــدُّنيَا سَــرِيِّ
فَقَالَتْ: ما سَــمِعْتُ بمَــشْرِقيٍّ   نَجَا مَنْ صَــرْفِها أَوْ مَغْربــيِّ
وكَرَّرْتُ السُّؤالَ «ببَطْنِ مَــرٍّ»   فَقيل: ضَلَلْتَ عن نَهْجٍ سَــوِيِّ
فَلاَ وأبيكَ مَا فِي الأَرْضِ حَــيٌّ   وُقِي سَهْمَ الحُتوفِ ولا ابْنُ حَيِّ
وَشَأنُ الدَّهْرِ حَــلٌّ وارتِحــالٌ   وَبَطْــشٌ بالعَــدوِّ وبــالوَليِّ
وكَمْ أَعْدَى الضَّعيفَ على قَوِيٍّ   مُدِلٍّ، والفَقيرَ علــى الغَنــيِّ[٣]
ولَمَّا جِئْتُ «مَكَّةَ» قُمْتُ فِيهَــا   أُسَــائِلُها بكَعْــبٍ أو لُــؤيِّ[٤]
فَقَالَتْ قَدْ سَطا بِهِمَــا مَنَــونٌ   وبَعْدَهُما أَنَاخَ عَلــى قُــصَيِّ[٥]
وَصَالَ عَلَيْهِمُ شَخْصاً فَشَخْصاً   فَسَلْ، إنَّ السُّؤالَ جَــلاءُ عِــيِّ

---

(١) عفت الرياح الآثارَ: إذا درستها ومحتها. والهَدِيُّ: العروس تُهدى إلى زوجها.
(٢) العِيرْ: القافلة: والرُّكيّ جمع رَكيّة وهي البئر وفيه إشارة إلى قتلى بدر من الكفار الذين وضعوا في القليب.
(٣) المُدِلُّ بالشجاعة: الجريء.
(٤) كعب ولؤي: جدّان من أجداد قريش.
(٥) قصي بن كلاب: جدّ من أجداد قريش.

وما نَكلَ الرَّدَى عَنْ هَاشِــميٍّ   ولا أَنِفَ الرَّدَى منْ بَــاهِليٍّ[1]
ولا مَــازَتْ عَــسَاكِرُهُ قَــديماً   حَنيفاً مُسْلِماً مِــن جَــاهِليٍّ[2]
فَما لَكَ سَائِلاً عَنْ واضِـحَاتٍ   تَبــدَّتْ للــذَّكيِّ، وللغَبِـــيِّ
أمَا دَارَتْ على دَارًا صُــروفٌ   كَسَرْنَ عمادَ كِسْرَى الفَارِسِيِّ[3]
وَقَدْ أنْحَتْ على الفَاروقِ جَهْرًا   وعُثْمانٍ وبَعْدُ عَلــى عَلــيٍّ[4]
وَفي السِّبْطَينِ جِئنَ بِكُلِّ نُكْــرٍ   عَلى كَفَّيْ طَليــقٍ أو دَعِــيّ[5]
ومَا رَاعتْ عِياذَ أبــي خُبَيْــب   ببَيْــتِ الله والحَــرَمِ العَلــيّ[6]
وما عَبَأ الــرَّدَى بِبُغَــامِ رِيــمٍ   وَلا بِزئيــرِ لَيْــثٍ قَاصِــرِيِّ[7]
وَمَا أَبْقَى عَلَى شَــيْخٍ وكَهْــلٍ   ولا غَضٍّ الــشَّبابِ ولا صَــبيٍّ
وَلا ذُو العِلْم خُصِّصَ مِنْ جَهُــولٍ   وَلا ذُو الرُّشْدِ مُيِّزَ مِنْ غَــوِيٍّ
بمالــكٍ الإمــامِ غَــدَا مُنيخَــاً   وأَحْمَــدَ والإمَــامِ الــشَّافِعيِّ[8]
وبلَّد فِكْــرَهُ مــن كــلِّ حِبْــرٍ   وَقطَّ لِسانَ طَلْــقٍ لَــوْذَعِيِّ[9]

---

(١) نكل عن الأمر: نكص وجَبُنَ. الرّدى: الهلاك.

(٢) ماز: عزل وفرز.

(٣) دارا وكسرى: من ملوك الفرس.

(٤) الفاروق: عمر بن الخطاب.

(٥) السّبطان: الحسن والحسين ابنا علي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

(٦) أبو خُبَيبْ: هو عبد الله بن الزبير، حاصره جيش الحجّاج في بيت الله الحرام، وقتله ثمة.

(٧) بُغام الظبية: صوتها: والليث القاصري: الحبيس.

(٨) مالك: هو ابن أنس إمام المذهب المالكي، وأحمد هو ابن حنبل إمام المذهب الحنبلي.

(٩) الحَبْرُ: العالم الصالح. اللوذعيّ: المتوقد الذهن واللسن الفصيح.

وما إنْ خَامَ عنْ وَعْـلٍ بنِيـقٍ | وَلا في قَفْرةٍ عَـن أَخْـدَريٍّ[١]
نُفوسَ الخَلْقِ يَشْرَبُ ليسَ يُروى | بِوَسميٍّ يَـصُوبُ ولا وَلِـيٍّ[٢]
يشُقُّ القَفْرَ أَهْدَى من قَطَـاةٍ، | وَلَيلَ النَّقْعِ أجْرأَ من كمـيٍّ[٣]
ومَا جَـابَ القِفَـارَ بـأَرْحَبيٍّ | وَلاَ شَقَّ الغُبَـارَ بـأعْوَجيّ[٤]
٩٠ - ولَيْسَ يَنِي يُبَـدِّدُ كُـلَّ نَظْـمٍ | ولَيسَ يَني يُذوَّبُ كُـلَّ نِـيٍّ[٥]
تَراهُ إلى الورَى يَخْطُو الهُوينَى | مُخَاتَلَةً لهمْ، كمَـسيرِ فَـيٍّ[٦]
ومَـا دَارَى لمنطِقِـهِ جَريـراً | ولا هَابَ القَوافيَ منْ عَـديٍّ[٧]
وما حَـابَى لـصَنْعَتِه حَبيبَـاً | وَلا أرْضَى المفَاخِرَ فـي الرَّضـيٍّ[٨]
ومَا أعْفَى مِنَ الأَحْداثِ عَفْـواً | وَلا طِرْفاً يُـصَانُ بـأتْحَمِيٍّ[٩]

---

(١) خام: نكص: النيق: أرفع موضع بالجبل، الأخدريّ: الحمار الوحشي الأسود.

(٢) الوسميّ: مطر أوّل الربيع، والوليّ: في صميم الشتاء.

(٣) والكميّ: الشجاع المقدم الجريء، ضمّن العبدري في بيته المثلَ: أهدى من قطاة، وهو في مجمع الأمثال ٤٠٩/٢.

(٤) أرحبيّ نسبة إلى بني أرحب بطن من همدان إليهم تنسب النجائب الأرحبية، وأعوجيّ منسوب إلى فحل سابق من الخيل يقال له: أعوج.

(٥) النيُّ: الشَّحم. من نَوَتِ الناقة إذا سمنت.

(٦) الفيّ: خُفّفت همزته وهو الظلّ.

(٧) جرير هو الشاعر المعروف، وعَديّ هو ابنُ زَيْد الشاعر الجاهلي المعروف، أو ابن الرّقاع العامليّ.

(٨) حبيب: هو أبو تمّام الشاعر المعروف، والرضي: هو الشريف الرضي الشاعر.

(٩) الأتحميُّ: ضربُ من البرود.

وَلا غَمراً يَــصُوبُ بِكُــلِّ رِيٍّ   ولا ذَمِراً يَــصولُ بمَــشْرَفيٍّ[1]
وَلا مَلِكــاً تَــدِينُ لَــهُ البَرايَــا   ولا عَبْداً تزمَّــلَ فــي كُــسَيٍّ
إذا حَانَ المدَى منْ حَيْنِ حَــيْنٍ   فَرَى في السَّابريِّ حَشَى الرَّمــيِّ[2]
وما عَرَفَ الكَيِيسَ فَزادَ يَوْمــاً   ولا أَجْرَى الشُّهودَ على النَّسِيِّ[3]
فَــسَلْ بالنَّاسِــئينَ ولاَ نــسَاءٌ   وسَــلْ عَمْــراً بوالِــدِه لُحَــيٍّ
ولا تطمَحْ بِعَيْنِكَ نَحْــوَ سَــامٍ   بِهِمَّتِــهِ إلــى أقْــصَى الرُّقــيِّ
فَأَرْقَى النَّاسِ مَنْزِلَــةً كَــسَهْمٍ   يَكونُ هُوِيُّــهُ سَــبَبَ الهُــوِيِّ
ولا يغرُرْكَ مِنْ دَنْيَــاكَ وَصْــلٌ   فَفِي الأَمْثالِ «أَغْدرُ مِنْ بَغِــيٍّ»[4]
فَقُلْتُ: لَقَدْ نَصَحتِ بكلِّ معنــى   حقيقٍ أَنْ يُــصاخَ لــه حَــرِيٍّ
وَقَد أَسْمَعْتِ لَو ناديــتِ حَيّــاً   ولكنَّ النِّــداءَ لِغَيْــرِ حَــيٍّ[5]
فقالَتْ: قَدْ عَهِدْتُ إليك نُــصْحاً   فَوَفَّقَكَ المَهَيْمِنُ مِــنْ وَصِــيٍّ

* * *

(١) الغمر: الماء الكثير، والذَّمِرُ: الشجاع، والمشرفي: السيف المنسوب إلى المشارف باليمن.

(٢) الحين: الموت. فرى الشيء: شقّه وأفسده، والسابري: الدروع المنسوبة إلى سابور.

(٣) النسيّ: الزيادة.

(٤) المثل: «أغدر من بغي» لم أقف عليه فيما رجعت إليه من كتب الأمثال.

(٥) مأخوذ من قول عمرو بن معد يكرب الزبيدي في ديوانه: ١١٣.

لقد أسمعت لو ناديــت حيــاً   ولكن لا حياة لمــن تنــادي

الخاتمة

حاولت في هذه الدراسة أن أميط اللِّثام عن جانب مهم من تراثنا الأدبي هو «أدب الرحلة». وقد قمت بالتعريف ببعض الرِّحل في المغرب العربي، فعشت مع هؤلاء الرَّحالين في حلّهم وترحالهم أستجلي مشاعرهم ومعاناتهم، وأعيش غبطتهم وسرورهم، وقمت بترجمة أصحاب الرِّحل، ودللت على مصادر تراجمهم، وعرضت رحلهم وأهم ما تتميز به كل رحلة منها، ثم اخترت بعض النصوص منها، وتعمّدت أن تكون هذه النصوص طريفة ودالة على روح صاحبها واهتماماته، وبذلك تكتمل الدراسة.

وقد أكون اتفقت مع بعض الباحثين المعاصرين في بعض المواقف والنتائج، ولكنني أؤكد أنني استقلّيت بالنظر، وحرصت أن أتجرّد من كل رأي - في أغلب الدراسة - حتّى تكون الأحكام صادرة عن التأمّل والاجتهاد.

وأزعم أنني قد نظرت إلى الموضوع نظرة تختلف عن غيري. واعتمدت توثيق النصوص من مصادرها الرئيسيّة.

وعسى أن أكون قد أفلحت في الكشف عن هذا الجانب المهمّ المشرق من تراثنا العربي، وأرجو أن تكون هذه الدراسة حافزاً لدراسات أعمق في الأدب في غير كتب الأدب.

المصادر والمراجع

١ - القرآن الكريم.

٢ - الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين بن الخطيب، تح محمد عبد الله عنان، القاهرة ١٩٧٣م.

٣ - أدب الرحلة، جورج غريب، دار الثقافة بيروت ١٩٧٢م.

٤ - أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، أحمد المقّري التلمساني، تح مصطفى السقّا وآخرين، القاهرة ١٩٣٩م والدار البيضاء ١٩٧٩م.

٥ - الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٢م.

٦ - الإعلام فيمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام، العبّاس بن إبراهيم المراكشي، المطبعة الملكية، الرباط ١٩٧٤م.

٧ - أعلام الجغرافيين العرب، عبد الرحمن حميدة، دار الفكر دمشق ١٩٨٠م.

٨ - الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، دار الكتب المصرية، القاهرة، بلا.

٩ - الإكسير في فكاك الأسير، محمد بن عثمان المكناسي، تح محمد الفاسي، الرباط ١٩٦٥م.

١٠ - الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل، مجير الدين الحنبلي، عمّان ١٩٧٣م.

١١ - إيضاح المكنون، إسماعيل البغدادي، بيروت ١٩٨٢.

١٢ - البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، محمد بن أحمد بن مريم، تح محمد ابن أبي شنب، الجزائر ١٩٠٨م.

١٣ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنُّحاة، جلال الدين السيوطي، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٦٥م.

١٤ - تاج العروس، محمد المرتضى الزبيدي، المطبعة الخيرية، القاهرة ١٣٠٦هـ.
١٥ - تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، خالد البلوي، تح الحسن السائح، المحمدية بلا.
١٦ - تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، مطبعة الهلال، القاهرة ١٩٣٦م.
١٧ - تاريخ الأدب الجغرافي، كراتشكوفسكي، ترجمة صلاح الدين هاشم، القاهرة ١٩٦٣م.
١٨ - تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٣م.
١٩ - تاريخ الجزائر العام، الجيلالي، المطبعة العربية، الجزائر ١٩٥٥م.
٢٠ - تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، حسين مؤنس، القاهرة ١٩٨٦م.
٢١ - تاريخ الفكر الأندلسي، آنجل جنثالث بالنثيا، ترجمة حسين مؤنس، القاهرة ١٩٥٥م.
٢٢ - تاريخ قضاة الأندلس، أبو الحسن البنّاهي، بيروت، بلا تاريخ.
٢٣ - تراجم المؤلفين التونسيين، محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٢م.
٢٤ - ترتيب المدارك، القاضي عياض، تح أحمد بكير محمود، بيروت ١٩٦٧م.
٢٥ - التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً، ابن خلدون، تح محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة ١٩٥١م.
٢٦ - تعريف الخلف برجال السلف، محمد الحفناوي، تح محمد أبو الأجفان ورفيقه، تونس ١٩٨٢م.
٢٧ - التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبار القضاعي، مجريط ١٨٨٩م والقاهرة ١٩٥٦م.
٢٨ - تمثال الأمثال، محمد بن علي العبدري، تح أسعد ذبيان، بيروت ١٩٨٢م.
٢٩ - جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس، ابن القاضي المكناسي، الرباط ١٩٧٤م.

٣٠ - الجغرافية والرحلات عند العرب، نقولا زيادة، بيروت ١٩٨٠م.
٣١ - جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري، تح محمد أبو الفضل إبراهيم ورفيقه، القاهرة ١٩٦٤م.
٣٢ - درّة الحجال في أسماء الرجال، ابن القاضي المكناسي، تح محمد الأحمدي أبو النور، تونس القاهرة ١٩٧٠م.
٣٣ - دليل مؤرخ المغرب، عبد السلام بن سودة، تطوان ١٩٥٠م.
٣٤ - الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ابن فرحون المالكي، بيروت بلا.
٣٥ - ديوان امرئ القيس، امرؤ القيس، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٥٨م.
٣٦ - ديوان حازم القرطاجني، حازم القرطاجني، تح عثمان الكعّاك، بيروت ١٩٦٤م.
٣٧ - ديوان ابن الرومي، ابن الرومي، تح حسين نصار، القاهرة ١٩٧٦م.
٣٨ - ديوان المتنبّي، أبو الطيب المتنبّي، تح مصطفى السقّا وآخرين، القاهرة ١٩٣٦م.
٣٩ - ديوان النابغة الذبياني، النابغة الذبياني، تح شكري فيصل، دمشق ١٩٦٨م.
٤٠ - الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، ابن عبد الملك المراكشي، تح إحسان عباس وابن شريفة، بيروت والرباط.
٤١ - الرحالة العرب، نقولا زيادة، دار الهلال، القاهرة ١٩٥٦م.
٤٢ - الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، زكي محمد حسن، دار المعارف، القاهرة ١٩٤٥م.
٤٣ - الرحلات، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة ١٩٤٥م.
٤٤ - الرحلات، محمد الخضر حسين، تح علي الرضا التونسي، القاهرة ١٩٧٦م.
٤٥ - رحلة ابن بطوطة، ابن بطوطة، تح علي المنتصر الكتاني، بيروت ١٩٨١م.

٤٦ - رحلة التجاني، محمد بن أحمد التجاني، تح حسن حسني عبد الوهاب، تونس وليبيا ١٩٨١م.
٤٧ - رحلة ابن جبير، ابن جبير الكناني، دار صادر، بيروت ١٩٨٠م.
٤٨ - رحلة ابن رُشَيد، ابن رُشيد الفهري، تح محمد الحبيب الخوجة، ومخطوط لإسكوريال.
٤٩ - رحلة العبدري، محمد العبدري، تح علي كردي، دار سعد الدين، دمشق ١٩٩٩م.
٥٠ - الرحلة في طلب الحديث، أبو بكر البغدادي، تح نور الدين العتر، بيروت ١٩٧٥م.
٥١ - رحلة القلصادي، علي القلصادي، تح محمد أبو الأجفان، تونس ١٩٨٥م.
٥٢ - الرحلة والرحالة المسلمون، أحمد رمضان أحمد، بيروت بلا.
٥٣ - ركب الحاج المغربي، محمد المنوني، تطوان ١٩٥٣م.
٥٤ - الروض المعطار في خبر الأقطار، محمد بن عبد المنعم الحميري، تح إحسان عباس، بيروت ١٩٨٤م.
٥٥ - شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد مخلوف، بيروت بلا.
٥٦ - شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي، بيروت بلا تاريخ.
٥٧ - شرح مقصودة ابن دريد، التبريزي، تح فخر الدين قباوة، حلب ١٩٧٨م.
٥٨ - عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية، أبو العباس الغبريني، تح رابح بونار، الجزائر ١٩٨١م.
٥٩ - غربال الزمان في وفيات الأعيان، الحضرمي، تح محمد ناجي العمر، دمشق ١٩٨٥م.
٦٠ - الغصون اليانعة في محاسن شعراء المئة السابعة، ابن سعيد الأندلسي، تح إبراهيم الأبياري، القاهرة ١٩٦٧م.
٦١ - فهرس الفهارس والأثبات، عبد الحيّ الكتّاني، تح إحسان عبّاس، بيروت ١٩٨٦م.

٦٢ - فوات الوفيات، ابن شاكر الكتبي، تح إحسان عباس، بيروت بلا تاريخ.
٦٣ - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة، بيروت ١٩٨٢م.
٦٤ - لسان العرب، ابن منظور الإفريقي، دار صادر، بيروت ١٩٦٨م.
٦٥ - مجمع الأمثال، الميداني، تح محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، بلا.
٦٦ - مستفاد الرحلة والاغتراب، القاسم التجيبي، تح عبد الحفيظ منصور، ليبيا وتونس ١٩٧٥م.
٦٧ - المستقصى في أمثال العرب، الزمخشري، بيروت ١٩٧٠م.
٦٨ - مشارق الأنوار على صحاح الآثار، القاضي عياض، تونس وبيروت ١٩٣٣م.
٦٩ - المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي، محمد سعيد العريان ورفيقه، الدار البيضاء ١٩٥٠.
٧٠ - معجم البلدان، ياقوت الحموي، بيروت بلا.
٧١ - المناسك وأماكن طرق الحجّ، أبو إسحاق الحربي، تح حمد الجاسر، الرياض ١٩٦٩م.
٧٢ - نيل الابتهاج بتطريز الديباج، أحمد بابا التنبكتي، دار الكتب العلمية، بيروت، بلا تاريخ.
٧٣ - الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى، محمد بن تاويت، الدار البيضاء ١٩٨٢م.
٧٤ - وصف إفريقيا، ليون الإفريقي (الحسن الوزان)، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت ١٩٨٣م.
٧٥ - وفيات الأعيان، ابن خلكان، تح إحسان عباس، بيروت ١٩٧٧م.
٧٦ - وفيات ابن قنفذ، ابن قنفذ القسنطيني، تح عادل نويهض، بيروت ١٩٨٣م.

n

الصفحة

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الدكتور علي إبراهيم كردي

- إجازة في اللغة العربية وآدابها من جامعة دمشق ١٩٨٢م
- ماجستير في اللغة العربية وآدابها (القسم الأدبي) بمرتبة امتياز، من جامعة دمشق ١٩٨٧.
- دكتوراه الدولة في اللغة والآداب العربية، بمرتبة مشرّف، من جامعة منّوبة، تونس ١٩٩٣م.
- أستاذ الأدب المغربي القديم، بقسم اللغة العربية، جامعة دمشق.
- له عدد من الكتب المطبوعة في سوريا والإمارات العربية المتّحدة.
- له عدد من البحوث في الدوريات السورية والعربية.

الطبعة الأولى / ٢٠١٣م
عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة